

الهجاء والهجاءون في صدر الاسلام

الدكتور محمد محمد حسين
رئيس قسم اللغة العربية
في جامعتي الاسكندرية وبيروت العربية

دار النهضة العربية
للمطباعة والنشر
بيروت ص.ب. ٧١٩

المَجَاءُ وَالْمَجَاءُونَ في صَدْرِ الْإِسْلَامِ

تأليف

الدكتور محمد محمد حسين

رئيس قسم اللغة العربية في جامعة
الاسكندرية وبيروت العربية



دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ص.ب ٧٤٩

شبكة كتب الشيعة



shiabooks.net
رابطه يديل < mktba.net

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقدمة الطبعة الثانية

أحمد الله رب العالمين ، حمد شاكر لآلانه راج عفوه ، وأسأله أن ينجينا من
فتنة الدنيا ومن عذاب الآخرة ، وأن يدخلنا برحمته في عباده الصالحين . كما أسأله
أن يصلي ويسلم على عبده ونبيه وخاتم رسله سيدنا محمد ، وأن يربط قلوبنا على
محبه ، وأن يجعل هذه الرابطة وسيلتنا إلى الاهتداء بهديه والسير على سنته
والتماس بركته . وبعد :

هذا هو القسم الثاني من تاريخ فن الهجاء . وهو يؤرخ هذا الفن في العصر
الإسلامي . وأقصد بالعصر الإسلامي عصر النفوذ العربي الذي انتهى بغلبة
النفوذ الفارسي ، وتقويض هذه الدولة العربية ، التي كان من أبرز صفاتها التعصب
للمروبة في شق مظاهرها الخلقية والاجتماعية والأدبية .

والعصر الأدبي الذي نؤرخ هذا الفن فيه ، لا يساير التقسيم التاريخي ،
ولا يجري على ما جرى عليه جمهور مؤرخي الآداب ، من تقسيمها تبعاً للتقسيم
التاريخي . فهو يبدأ منذ وفاة النبي ﷺ ، وينتهي بانتهاء القرن الأول الهجري .
والواقع أن المطابقة التامة بين تاريخ الأدب وبين التاريخ السياسي ، تعرض
الباحث لأخطاء كثيرة ، وقورطه في تعسف غير قليل . فدارس الأدب - وهو
مرآة صادقة دقيقة لحضارة العصر ولمزاج أفراده - لا يلاحظ فرقاً كبيراً بين
لون هذا الأدب في عصر الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم ، وبين لونه في
الصدر الأول من العصر الأموي . بيد أنه يلاحظ هذا الفرق واضحاً إذا قارن
بين الصدر الأول من العصر الأموي وبين الشطر الأخير من حياة هذه الدولة .

فالأدب في عصر الخلفاء الراشدين ، وفي الصدر الأول من العصر الأموي - وهو ما نسميه بالعصر الإسلامي - أدب عربي خالص ، يجرى على ما جرى عليه الأدب العربي القديم ، في أسلوبه ، وفي أغراضه ، وفي صورته ، وفي أوزانه ، مع بعض التطورات التي اقتضتها طبيعة الظروف . فهو عربي في ديباجته وأسلوبه ، إسلامي في موضوعه ومضمونه ، وفيما تأثر به من أسلوب القرآن وبلاغة الناشئين في حجره والمتأدبين بأدبه . أما الأدب في القسم الثاني من ذلك العصر ، فهو متأثر بالحضارة الفارسية ، وبالترف والخلاعة ، اللذين نشأ من شيوع الفناء والمجون ، وكثرة الجوارح وغلبتهن على قلوب العرب . وقد انحرف به ذلك في بعض الأحيان عن طبيعته العربية ، وزيف وجهه الإسلامي وشوّهه .

ولسنا هنا في مقام المقارنة بين العصرين ، وتفصيل الفوارق بينهما . ولكننا أحببنا أن نوضح السبب الذي جعلنا نعدل عن التقسيم المألوف ، فنخلط بين عصر الخلفاء وبين قسم من العصر الأموي من جهة ، ونفصل بين شطر هذا العصر الأول وشرطه الثاني من جهة أخرى .

وليس يفهم من هذا أننا ننكر الصلة القائمة بين التاريخ السياسي وبين تاريخ الأدب . فهذه الصلة قائمة بينهما ، قيامها بين الأدب وبين ألوان المعارف الإنسانية . ولكن الذي ننكره هو وضع المصور الأدبية في حدود التوليف التي تعين قيام الدول وسقوطها . فليست العبرة في ذلك بقيام دولة وسقوط أخرى . ولكن العبرة في شكل الحضارة السائدة ، وألوان الثقافة الغالبة ، وحالة المجتمع القائمة . وليس هناك ما يمنع أن تتقارب هذه العناصر جميعاً وتتشابه في دولتين ، مما عصران مختلفان عند المؤرخ ، بينما تتباين أشد التباين في دولة واحدة ، هي في عرفه عصر واحد .

بيروت في ٢٧ رجب ١٣٨٩

(١٩٦٩ / ١٠ / ٩)

نشأة الأحزاب السياسية

عاش العرب في جاهليتهم كما رأينا على النظام القبلي ، لا يعرفون لهم رابطة غير العصبية القبلية . فلما جاء الإسلام دعاهم إلى رابطة جديدة هي رابطة الدين . ونشأ جيل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يمثلون الدين في سلوكهم وفي تفكيرهم أصدق تمثيل . بينما ظل الأعراب ممن دخلوا في الإسلام قبيل وفاته ﷺ وبعد فتح مكة - وهم كثرة العرب - على ما نشئوا عليه من قيم ، لم تتح لهم الفرصة لتذوق النظام الجديد الذي جاء به الإسلام ولممارسته . لذلك لم يستطيعوا أن ينسوا وطنهم الأول الصغير ، ليتفانوا في الوطن الكبير والاتحاد الجديد ، الذي نشأ من ضم هذه الأوطان القبلية الصغيرة ، تحت سلطة مركزية جديدة تدبر شؤون الأمة الإسلامية . لم يكن ذلك الأعرابي يحمل لهذا الوطن الجديد شيئاً من الحب أو التقديس ، وكل الذي فهمه أن قريشاً قد فرصت سيادتها على بقية القبائل العربية . وكان أثقل شيء على نفسه ، هذه الأموال التي فرضها عليهم الإسلام ، وسماها « زكاة » . ولم تكن الزكاة في ظاهر أمرها - إذا صرفنا النظر عن حقيقتها الروحية وأثرها في تطهير النفس وإخراجها عما فطرت عليه من الشح والأثرة - إلا نوعاً من الضرائب ، التي يدفعها الأفراد للدولة الآن ، مقابل حمايتهم وتدبير شؤونهم ، بما يكفل لهم حياة مطمئنة ، قريبة غاية الجهد من تحقيق السعادة لسائر الأفراد . ولكن البدوي لم يفهم هذا الوطن الجديد ، ولم يعرف شيئاً عن الأمة ، ولم يستطع عقله البدائي أن يفهم الحكمة في وجودها ، أو الفوائد التي تحققها . فهو يختص القبيلة بكل حبه وعواطفه ، ويرى قوتها كفيلاً بتحقيق غاياته ، ويرى أن فناءها في هذا المجموع الكبير ، تضحية لا مبرر لها . فالزكاة في نظره ، ليست

إلا إناوة تدفع لقريش ، وتوضع تحت تصرفها ، لتنفقها حيث تشاء . لذلك لم يكبد النبي ﷺ يموت ، حتى انبعثت هذه العصبية قوية جارفة ، تريد أن تتحلل من كل قيد ، وأن تعود إلى حياتها الأولى الحرة الطليقة . منكرة حتى الخليفة في الزكاة . ولم يكن الخليفة في نظر هؤلاء البدو سوى أمير قرشي يريد أن يفرض سيادته عليهم . وخير ما يصور هذا التفكير البدوي ، الذي ينفر من النظام ، ويأبى الاعتراف بالسلطان ، ولا يرضى إلا حياة الخلاف والتناحر ، أبيات الخطيئة التي قالها في الردة :

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا فيا عجباً ما بال دين أبي بكر
أيورثها بكرأ إذا مات بعده ؟ وتلك لعمر الله قاصمة الظهر !
ورأت القبائل أن قريشاً لم تفضلهم وترجح عليهم إلا بالنبوة . فليكن فيهم إذاً أنبياء . ففي ربيعة نبي من حنيفة هو مسيلة . وفي مضر نبي ونبيه . أما النبي فمن أسد وهو طليعة بن خويلد ، وأما النبوة فمن نعيم وهي سجاح . وفي اليمن نبي هو الأسود العنسي .

وينهض رجل الإسلام الكبير للجهاد في سبيل إعادة بناء الأمة الإسلامية ، بعزيمة لا تعرف وهناً ولا فتوراً ، وإيمان صادق عميق ينتهي آخر الأمر بالظفر على هذه الفتنة . وإعادة القبائل المنشقة إلى الطاعة والخضوع لدين الله . والقارىء لشعر القبائل في حركة الردة لا يجد فيه معارضة لمبادئ الإسلام . فالحركة ليست ثورة على الإسلام ، لأنه لم يدخل قلوب هؤلاء البدو من الاعراب ، الذين كانوا قوام تلك الحركة . ولكنها محاولة لاسترداد سلطة القبيلة المسلوقة . فالشعر منصب كله على القبائل والأفراد . والمسألة في حقيقتها عصبية خالصة . يقول الخطيل بن أوس أخو الخطيئة (١) :

فدى لبني ذبيان رجلي وناقني عشيّة يُجَدَى بالرماح أبو بكر

(١) الطبري . حوادث سنة ١١ هـ .

ولكن يدّ هدى بالرجال فهبته إلى قدر ما إن تقيم ولا تسري^(١)
 وله أجناد تذاق مهانة لتحسب فيما عد من عجب الدهر^(٢)

ويقول أبو شجرة بن عبد العزى السلمي وهو ابن الخنساء^(٣) :

صحا القلب عن مَيِّ هواه وأقصرا وطاوع فيها العاذلين فأبصرا
 وأصبح أدنى رائد الجهل والصبا كما ودّها عنا كذاك تغيرا
 وأصبح أدنى رائد الوصل منهم كاحبلها من حبّلنا قد تبّترا
 ألا أيها المدلي بكثرة قومه وحظك منهم أن تضام وتقهرا
 مل الناس عنا كل يوم كريمة إذا ما التقينا دار عين وحسرا
 السنّا نعاطي ذا الطماح لجأه ونطعن في الهيجا إذا الموت أقفرا^(٤)

(١) دعت الجهر فتدهدى دحرجته . هينة كذلك هي بالنص في كل نسخ الكتاب كما جاء في طبعة المعارف . لعلها من أهاب بالابل والحيل إذا زجرها قائل أهاب هاب ، فيكون المقصود أن هؤلاء الرجال يزجرون أبا بكر وجيوشه ويدفعونهم إلى قدرم وحينهم . ومن الواضح أن هناك بيتاً أو أبياتاً ساقطة بين البيت الأول والثاني . ولعل في البيت الثاني تحريفاً . وامل صوابه : ولكن يدهدي (على البناء للمعلوم . والضمير لأبي بكر) بالرجال مهينة (على البناء للمفعول ، حال من الرجال) . إلى قدر ما إن يقيم ولا يسري (والضمير في الفعلين لأبي بكر . يعني أنه في حيرة من أمره لا يدري ماذا يصنع) وقصة الأبيات في الطبري في حوادث سنة ١١ .

(٢) يسخر يحنود الله من المسلمين ، يقول هل رأيتم أعجب من هذا ؟ جنود الله تذوق الذل والهوان !

(٣) الطبري حوادث سنة ١١ .

(٤) طمعت الدابة طامحا وطموحا نشزت ورجعت لوفرة نشاطها . عاطاها اللجام فأولاه ومدّه لها . أي أنهم فرسان يتدفقون مع هذه الجياد المجهزة مرخين لها العنان . إذا الموت أقفرا بمعنى أقفرت ساحت (والمقصود هو ساحة القتال) من الفرسان .

وعارَضَهُ شِهَابٌ تَخْطِرُ بِالْقَنَا تَرَى الْبُلْقَى فِي حَافَاتِهَا وَالسَّنَوْرَا^(١)
فَرُوَيْتُ رُحْمِي مِنْ كَتِيبَةِ خَالِدٍ وَإِنِّي لَأَرْجُو بَعْدَهَا أَنْ أُعْمَرَا

ومما يصور أن العصبية روح هذه الحركة والدافع إليها ، ما يروي الطبري
من خروج الزبرقان بن بدر والأقرع بن حابس إلى أبي بكر ، وقولهم له
(اجعل لنا خراج البحرين ، ونضمن لك أن لا يرجع من قومنا أحد) .
وقد رضي أبو بكر بهذا الشرط وكاد ينفذه . لولا أن سيدنا عمر رضي الله عنه
اعترض ومزق الصحيفة غاضباً^(٢) .

ويمضي سيدنا أبو بكر رضي الله عنه بعد سنتين من خلافته ، ويخلفه سيدنا
عمر ، فيحكم الجزيرة بحزمه الصارم . مندفعاً في الفتوح كالسيل الجارف . لا
يقف في سبيله شيء . ثم ينتهي حكمه بهذه المأساة المروعة ، التي ذهب الخليفة
الكبير ضحيتها ، فتنتهي الخلافة إلى بيت من قريش ، عريق النسب في الجاهلية ،
كانت المنافسة قائمة بينه وبين بني هاشم . وقد امتدت الدولة العربية ، واتسعت
رقعتها ، حتى أصبحت إمبراطورية كبيرة ، قد ابتلعت دولتين عريقتين . هما
الفرس والروم . ولم تعد النظم العربية الساذجة ، التي تركز السلطة في يد الخليفة ،
والتي تقوم على الزهد المطلق ، وتنفر من ادخار المال ، وتتهرج من
إنشاء خزينة للدولة ، كافية لضبط ذلك الملك العريض . ولم يعد الأمر
كما كان ، مقصوراً على إقامة حدود الدين ، والتمسك بقانونه الأخلاقي
القوم . فالعرب الذين كانوا يعيشون منذ سنوات قلائل على النظام القبلي ، قد

(١) عارضه : قابله بمثل ما أتى . شهاب : كتيبة شهاب أي بيضاء لكثرة ما عل فرسانها من
سلاح . البلق : وصف لموصوف محذوف أي الجياد البلق ، جمع أبلق وهو ما كان فيه سواد
وبياض . السنور : كل سلاح من حديد . وقد يكون هناك بيت ساقط قبل هذا يعود
عليه ضمير (وعارضه) (٢) الطبري حوادث سنة ١١ .

أصبحوا أمام مشاكل جديدة خطيرة ، هي سياسة هذه الإمبراطورية القترامية الأطراف ، وتدير أمورها ، وضبط شؤونها . فهم أمام مشاكل مالية وإدارية وسياسية ، لا عهد لهم بمثلها في عزلتهم القديمة .

وتضطرب الأمور وتتعدد على عهد سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ويفلت زمام الأمر من يده ، وقد غلت الأمصار بالفتنة التي دبرها ذلك اليهودي المفسد (عبدالله بن سبأ) الملقب بابن السوداء ، الذي تستر تحت ستار الدين فاستغوى كثيراً من المسلمين في زمانه ، ثم لم يعدم من قصار النظر الغافلين عن حقيقة أمره من يزيف حقيقته على المسلمين ، ويردد أكاذيبه ومفترياته في تاريخهم المتداول المأثور . ويندفع الدماء في طوفان مدمر يحرف في طريقه هذا الخليفة الطاهر الطيب القلب .

وأصبح من الواضح أن المسلمين لم يمددوا في حاجة إلى رجل دين وتقوى فحسب ، ولكنهم أصبحوا في حاجة إلى رجل يجمع إلى ذلك حزمًا وسياسة وعبرية إدارية تستطيع أن تنشئ قواعد للحكم إنشاء . وتخلق من العدم نظامًا وقوانين ، تستطيع أن تسير التوسع الجديد . وقد وجد العرب ضالتهم آخر الأمر ، في عاهل العرب الأول ، ومنشئ الدولة الإسلامية الكبرى معاوية بن أبي سفيان .

وكان بين مقتل سيدنا عثمان رضي الله عنه وبين ما يسميه المؤرخون عام الجماعة الأول ، الذي انتهى فيه الأمر إلى معاوية ، ست سنوات ، اضطربت فيها الجزيرة بالفتن ، واجتاحتها موجة من الحروب المدمرة في كل مكان ، كانت كلها قتالاً حول شخص الحاكم ونظام الحكم . وقد ظهر في هذه الحروب لون جديد من العصبية هو العصبية الإقليمية ، فقد أصبح الشام حزب معاوية ، وأصبح العراق حزب علي ، وأصبح الحجاز موطنًا للمعارضة ، يقودها زعماء قريش الساخطون على ما آل إليه أمر المسلمين ، فيهم طلحة والزبير وعبدالله بن عمر

وعائشة أم المؤمنين . وفي هذه الحروب ، وضع أساس الأحزاب الثلاثة التي كان لها أعمق الأثر فيما يلي من الناحيتين التاريخية والأدبية ، وهي : حزب الشيعة ، وحزب الخوارج ، وحزب الأمويين ، ومعها حزب رابع لم يعمّر طويلاً ، وهو حزب الزبيريين .

ولست أحب أن أزج بنفسي في الخلاف بين علي ومعاوية رضي الله عنهما . فما ينبغي لمسلم بقدر أصحاب رسول الله ﷺ حق قدرهم وينزلهم منازلهم أن يدخل في ذلك . فقد كانت فتنة تحكم فيها أهل الشر والباطل ، الذين بيتوا النية على هدم الإسلام وقفريق جماعة المسلمين ، من عصابة ابن سبأ ومن تبعهم عن قصر نظر أو فساد دين ، فروجوا شائعات وأكاذيب بقصد الإثارة والتهيج ، ليس من موضوع هذا الكتاب أن يتبعها بالنقض ^(١) . ولكني أحب أن أنبه إلى أن سيدنا علي رضي الله عنه إن كان في منزلة أفضل من منزلة معاوية لا شك ، فإن ذلك لا يفض من قدر معاوية ومن منزلته في سياسة الناس وتدبير الدولة ، وهي مكانه استحقها عن جدارة منذ ولاء عمر رضي الله عنه الشام . فقد مرّ على السياسة في هذه الحقبة الطويلة التي ولي فيها أمر الشام ، وأعانه على ذلك أنهم أهل طاعة ، قديم العهد بالنظام والملك . وقد استطاع بحلمه وسعة صدره ونعمومة مكره ، أن يكسب حبيهم وإعجابهم . وكان مع هذا داهية عارفاً بالرجال ، يحسن اختيار بطانته ، ويعرف أين يضع ثقته . وكان بعد هذا حكيماً يحسن تقدير الظروف ، ويعرف متى يأخذ الحق كله ، ومتى يتقي الشر الكبير الخطير والفتنة الجالحة بالإغضاء عن بعضه إلى حين .

وقد بدا له في ظل الظروف التي كان يختارها المسلمون وقتذاك ، وفي ضوء تجاربهم السابقة ، أن من صالح دولتهم الناشئة أن يكفيها شر الحن والثورات

(١) راجع في ذلك كتاب « العواصم من القواصم » لأبي بكر بن العربي .

التي تتعرض لها فيما يقع بين الناس من خلاف عقب موت كل خليفة ، فأخذ البيعة لابنه يزيد قبل موته . وقد يكون مخطئاً أو مصيباً فيما قدر من أن هذا هو العلاج الصحيح . وقد يكون يزيد أو لا يكون بحيث رجا أبوه أن يكون . فالأمر لا يعدو أن يكون اجتهداً يخطئ فيه المجتهد أو يصيب .

كان ثم معاوية الأول أن يوطد أركان الدولة ، ويدعم النظام والاستقرار والولاء للجماعة - أو ما نسميه الآن بالدولة - بمثابة في الخلافة . فعني بوضع أركان حزب سياسي قوامه الشعراء ، يصدق عليهم العطاء . وتآلف قلوب أعدائه من أصحاب النفوذ . وأحسن اختيار ولاته من أصحاب الحزم ، ثم أطلق يدهم في أقاليمهم ، إلا فيما يمس السياسة العامة . ثم أوجد نظام البريد ، ليسهل الاتصال بينه وبين عماله . وأوجد ديوان الخاتم ، ليكون سجلاً لتوقيعات الخليفة التي يبعث بها إلى الأقاليم ، فلا تتكرر مأساة سيدنا عثمان . واتخذ الحجاب والحرس ، لأن من في مثل مكانه ، لا يأمن أن يكون بين رعاياه موتور متهوس ، ينتهز منه غرة فيقتله ، بل لا يأمن مكر الجوس واليهود في مثل غدرهم بعمر وعثمان رضي الله عنهما من قبل . كل هذه السجاياء جعلت معاوية خليفاً بما وصفه به ابن عباس رضي الله عنه حين قال : ما رأيت أليق من أعطاف معاوية بالرياسة والملك .

ولكن هذا الاستقرار لم يطل عهده بعد معاوية ، فقد كان من سوء حظ الناس ، أن جاء بعد يزيد ابنه معاوية الثاني وكان ضعيفاً زاهداً ، فأبى أن يستخلف ، وترك أمر الناس فوضى ، فثارت الفتنة من جديد ، وكثر المطالبون بالملك والخارجون في كل مكان ، من زبيرية وشيعة وخوارج .

وتفرقوا شيعاً فكل مدينة فيها أمير المؤمنين ومنبرٌ واحتكم الناس إلى السيف من جديد وأصبح الملك للفالسب ، كما يقول كعب بن جُعَيْل التغلبي :

أصبحت الأمة في أمر عجب والملئكُ مجموعُ غداً لمن غلب
 فقلتُ قولاً صادقاً غيرَ كَذِبٍ إِنَّ غداً تَهْلِكُ أعلامُ العرب
 وأمرُف الناس في القتل وفي إراقة الدماء ، حتى ملوا الحرب ، واستيقظت روح
 الجاهلية في المتحاربين ، فرأوا أنهم إنما يقاتلون من أجل قريش ، كما تقول هذه
 المرأة النكلى ، التي فقدت أولادها الثلاثة في صفين (١) :

أعينيَّ جوداً بدمعٍ سَربُ على فتيةٍ من خِيار العرب
 وما ضرَّهم غيرُ جنبي النفوس بأي امرئٍ من قريشٍ غَلَبَ
 وكما يقول الشاعر الطائي :

وإن امرءاً يُعطي الأسنَّةَ نحره وراء قريشٍ لا أُعدُّ له عقلاً
 يذمون لي الدنيا وقد ذهبوا بها فما تركوا فيها لمُلتَمِسٍ ثُعلاً
 ومنه شعر علي بن الغدير الفَنَوِي ، الذي يزعم فيه أن الناس لا يقاتلون
 إلا من أجل قريش ، فهم في وهم أصل الشر وأُس البلاء ، ومن الخير للناس أن
 يدعوم وشأنهم ، ولا يهلكوا أنفسهم في سبيلهم (٢) :

من مبلغُ قيسَ بن عيلانَ كلُّها بما احتازَ منها أرضُ نجدٍ وشأُها
 فلا تهلكنكم فتنةُ كلِّ أهلها كحيران في طُخِياء (٣) داج ظلامها

(١) مروج الذهب ٢ : ٣٠ .

(٢) نقائض جرير والأخطل ٢٣ .

(٣) الطاخية الظلمة الشديدة ، والطخياء الدية المظلمة .

فشأن قريش والخصومة بينها إذا اختصمت حتى يقوم إمامها
هم أخذوها بين حنفٍ معجلٍ وخطبة خسف لا تزال تسامها
فضموا جناحيكم إلى مرجئة مراحمة معاربيها إن حاربت أوسلامها^(١)
وشيموا سيوف الهند حتى تبينوا على أي أعداء يسئل حسامها^(٢)
وخلوا قريشاً تقتل إن ملكها لها وعليها يرثها وأظمها
فإن وسعت أحلامها وسعت لها وإن عجزت لم يدم إلا كلامها
فإن قريشاً مهلك من أطاعها تنافس دينا قد أحتم انصرامها^(٣)

ثم يقرر السيف للمرة الثانية ، أن بني أمية هم أولى الناس بالملك ، فيستقر لهم الأمر على نظام الخلافة الوراثية .

كان لهما تين الثورتين الكبيرتين آثار خطيرة في التفكير العربي ، لا تخلو من خير . فقد صعبتهما حركة فكرية عنيفة ، لا تضارعها إلا هذه الحركة التي صعبت ظهور الإسلام . وللمرة الأولى بدأ الناس يناقشون نظام الحكم ، وأتبع لهم أن يروا ألواناً مختلفة من البرامج السياسية ، يعرضها عليهم المرشحون للحكم ، كل منهم يحاول استمالهم إلى جانبه . وبدأت العصبية الجاهلية القديمة تتخذ صورة حزبية مهتدة ، تقوم على نظريات سياسية واضحة محددة . فأتباع بني أمية في الشام - ومعظمهم من اليمنية ، الذين أصهر معاوية إلى قبيلة كبيرة

(١) مرجئة أي راجعة وشيدة ، ضموا جناحيكم إلى مرجئة أي كتيبة مرجئة أو خطة مرجئة من الرجعان . الضمير في (حاربها) لقريش .

(٢) شام من الأضداد في اللفظ تقول شام سيفه استله وشامه أغمدته أيضاً والمقصود هنا المعنى الأخير .

(٣) أحمر دنا رحان .

منهم هي قبيلة كلب - يقرون النظام الجديد ، الذي يقوم على التوريث ، وتأخذ فيه البيعة شكلاً صورياً . وأتباع ابن الزبير في الحجاز متمسكون بالنظام القديم ، الذي يقوم على الانتخاب ، ولكنهم يحصرون حق الخلافة في قريش . والشعبة يرون في الخلافة أو الإمامة كما يسمونها شيئاً من القداسة التي لا تكتسب اكتساباً ، ولكنها تورث توريثاً . فسلالة النبي ﷺ من ابنته فاطمة هم وحدهم أصحاب الحق في الخلافة ، وحققهم في ذلك ثابت من عند الله ، ليس للناس فيه رأي أو خيار . والخوارج يمثلون التطرف في المساواة الإسلامية ، فهم لا يرون الخلافة حقاً لقريش أو لفرع معين منها ، بل لا يرونها حقاً للعرب مقصوراً عليهم لا يتجاوزهم إلى غيرهم . فالخلافة عندهم تصلح في أنفس الناس كلهم ، من كان منهم قائماً بالكتاب والسنة عالماً بها . ثم هم بمد ذلك يخالفون بقية الأحزاب ، في حق سحب الثقة من الإمام الجائر ، فالخلافة عندهم ليست بالحق الذي يوهب مدى الحياة ، وهناك فرقة من الخوارج هم النجدية ، يمثلون الفوضوية اللاحكومية ، فهم يرون أن الناس يستطيعون أن يتعاطوا الحق فيما بينهم ، وأن ينظموا أمورهم ، من غير حاجة إلى إمام .

وقد كان للمصيبات الجاهلية أثر واضح في نشأة الأحزاب الجديدة وتكوينها ، فعروب العراق والشام ليست إلا امتداداً للنزاع القديم بين المناصرة والقباسنة من ناحية ، وبين الزارية والقمطانية من ناحية أخرى . شاعت الظروف أن يكون جند معاوية يمينين ، لأنهم معظم أهل الشام ، فلم يكن لأهل العراق بد - ومعظمهم زارية - من أن يكونوا جند المعارضة . وانساق اليمينيون منهم مع جمهور الناس متأثرين بعصية الإقليم ، ولكنهم ظلوا متمسكين بعصيتهم اليمينية لا ينسونها . فالأشعث بن قيس لا يرشح في التحكيم بين علي ومعاوية إلا أبا موسى الأشعري . فإذا اعترض علي عليه ورشح ابن عباس ، قال الأشعث وأصحابه : والله لا يحكم فينا مضري ^(١) . ثم هو يثبط الناس عن علي ، حين

طلب إليهم أن يمضوا لقتال معاوية في الشام ، بعد أن هزموا الخوارج ، قائلاً :
 قد كلت سيفونا ، ونفدت نبالنا ، ونصلت أسنة رماحنا ، فدعنا نستعد
 بأحسن منها ^(١) . والعداء بين الأمويين وبين الأنصار - مع أنهم يمنية - ليس
 إلا أثرًا من آثار العداوة القديمة بين يثرب وبين مكة ، التي كان يتزعمها في ذلك
 الوقت أبو سفيان بن حرب .

ولم تلبث هذه المعصيات بانتهاء الفتنة واستقرار الأمور ، فقد ظل الأمويون
 على كرمهم للقيسية وأهل العراق . دخل رجل من قيس على عبد الملك بن
 مروان فقال : زبيري ! والله لا يحبك قلبي أبداً . فقال : يا أمير المؤمنين ، إنما
 يحزع من فقد الحب النساء . ولكن عدل وإنصاف ^(٢) . ودخل مسكين الدارمي
 على معاوية ، وسأله أن يفرض له ، فأبى - وكان لا يفرض إلا لليمن ^(٣) .
 فاليمينية لم يقاتلوا مع معاوية ثم مع مروان ، ألا بعد أن اشترطوا عليها
 شروطاً . يقول المسعودي : واشترط حسان بن مالك - وكان رئيس قحطان
 وسيدها في الشام - على مروان ، ما كان لهم من الشروط على معاوية وابنه
 يزيد وابنه معاوية بن يزيد ، ومنها أن يفرض لهم لألفي رجل ألفين ألفين ، وإن
 مات رجل قام ابن عمه مكانه ، وعلى أن يكون لهم الأمر والنهي وصدر المجلس ،
 وكل ما كان من حل وعقد فمن رأي منهم ومشورة . فرضي مروان بذلك
 وانتقاد إليه . وقال له مالك بن هبيرة اليشكري : إنه ليست لك في أعناقنا
 بيعة . وليس نقاتل إلا عن عَرَضِ دنيا ، فإن تكن لنا على ما كان لنا معاوية
 ويزيد نصرناك ، وإن تكن الأخرى ، فوالله ما قريش عندنا إلا سواء ^(٤) .

(١) مروج الذهب ٢ : ٢٨ .

(٢) المقد الفريد ٤ : ١١٤ .

(٣) غزاة الأدب ٢ : ٢٥٥ .

(٤) مروج الذهب ٢ : ١٠٦ .

وظل الأمويون على بنفهمم للأنصار ، ولكنهم كانوا يصانعونهم ويدارونهم ،
 لسابق صنيعهم في الإسلام ، ولوصية رسول الله ﷺ . دخل قيس بن سعد بن
 عباد على معاوية بمد وفاة علي ووقوع الصلح ، في جماعة من الأنصار . فقال
 لهم : يا معشر الأنصار . بم تطلبون ما قبلي ، فوالله لقد كنتم قليلا معي
 كثيرا علي ، ولقد فلتتم حدي يوم صفين ، حتى رأيت المنايا تتلظى في
 أسنتكم ، وهجوتوني في أسلافي بأشد من وقع الأيثة ، حتى إذا أقام الله
 ما حاولتم ميله قلت : ارفع وصية رسول الله ! هيهات ، يابى الحقير الغدرة (١) .
 وحضرت الوفود بباب معاوية ، فاستأذن لهم حاجبه وقال : الأنصار بالباب ،
 وكان عمرو بن العاص حاضرا ففاظه هذا اللقب ، فقال لمعاوية : ما هذا اللقب
 يا أمير المؤمنين ؟ أردد القوم إلى أنسابهم . وخرج الحاجب فقال : من كان
 هنا من ولد عمرو بن عامر فليدخل ، فلم يدخل الأنصار ، ثم خرج فقال : من
 كان هنا من الأوس والخزرج فليدخل ، فدخلوا يقدمهم النعمان بن بشير ،
 وهو يقول :

يَا سَعْدُ لَا تُجِيبِ الدُّعَاءَ فَمَا لَنَا نَسَبُ نُجِيبُ بِهِ سِوَى الْأَنْصَارِ
 نَسَبُ تَخْيَرِهِ الْإِلَهُ لِقَوْمِنَا أَثْقَلُ بِهِ نَسَبًا عَلَى الْكُفَّارِ
 إِنَّ الَّذِينَ تَوَوَّأُوا بِيَدْرِ مِنْكُمْ يَوْمَ الْقَلِيلِ هُمْ وَقُودُ النَّارِ
 فنظر معاوية لعمرو قائلا : إن كنا لأغنياء عن هذا (٢) .

هذه العصبية القديمة التي انتهت إلى الصورة الحزبية الناضجة التي

(١) مروج الذهب ٢ : ٦٣ . يابى الحقير الغدرة ، يقصد أن الضيف لا يغدر لأنه عاجز
 عن الغدر ، لا لأنه ينف عنه .

(٢) الأغاني ١٤ : ١٢٥ .

قدمناها ، قد أوجدت في العصر الأموي معارضة قوية فعالة ، تخشى الحكومة بأسها ، فتأخذها باللين نادرة ، حريصة على إرضائها ، وتأخذها بالعنف أخرى حين لا يكون بد من العنف . وكان موطن هذه المعارضة في الغالب هو العراق . ويرجع ذلك لأسباب كثيرة ، منها بعده عن مركز السلطان ، فالخارج على الحكومة ، يستطيع أن يمد له مهرباً إلى الشرق أو إلى الصحراء إذا انهزم ، فهو في مكانه هذا أبعد عن يد السلطان ، وآمن على سلامته . لذلك اضطرب العراق بالثورات والحروب طوال العصر الأموي . ولم يعرف الاستقرار ، إلا بعد انتقال عاصمة الملك إليه ، بقيام الدولة العباسية . وقد أعان على هذا الاضطراب تباين البيئات فيه ، واختلاف المذاهب والآراء ، من زبيرية وخوارج وشيعة . فهو مشابة الثائرين ، ومقلد الخارجين ، وملجأ الهاربين . هذا والنازحون إلى العراق من البدو كثير . والجفاء وحسب الخلاف غالب على خلقهم . فهم ينفرون من قيود القانون ، ولا يحتملون إلا إلى السيف ، لأن اقتصاص السلطان لا يشفي صدورهم . فهو عندهم من مظاهر المعجز . وخير ما يصور ضيق هؤلاء البدو بالقانون والنظام ، قول شبيب بن عوانة الطائي :

قضى بيننا مروانُ أمس قضيةً فما زادنا مروانُ إلتنائياً
فلو كنتُ بالأرض الفضاء لعِقتُها ولكن أأتُ أبوابه من ورائيا
والبدوي لا يعتقد أن للسلطان حقاً فيما يستمتع به من سلطات . ولا يراه إلا مفتصباً قد أكل أموال الناس . وراح يتصرف فيها على حسب ميله وهواه . يقول غتبة الأسدي ^(١) :

(١) المقد الفريد ٦ : ١٦٨ .

معاوِيَ إِنَّا بَشَرٌ فَأَسْجِحْ فَلَسْنَا بِالْجَبَالِ وَلَا الْحَدِيدِ^(١)
أَكَلْتُمْ أَرْضَنَا وَجَذَذْتُمُونَا فَهَلْ مِنْ قَائِمٍ أَوْ مِنْ حَاصِدٍ
فَهَبْنَا أُمَّةً هَلَكَتْ ضِيَاعًا يَزِيدُ أَمِيرُهَا وَأَبُو يَزِيدٍ
أَتَطْمَعُ بِالْخُلُودِ إِذَا هَلَكْنَا وَلَيْسَ لَنَا وَلَا لَكَ مِنْ خُلُودٍ
ذَرُّوا خَوَلَ الْخِلَافَةِ وَاسْتَقِيمُوا وَتَأْمِينَ الْأَرَاذِلِ وَالْعَبِيدِ^(٢)

(١) السجح (بضمتين) والسجيج اللين السهل . أسجح سهل ولان .

(٢) الخنول (محرّكة) ما أنعم الله على الرجل من النعم والعبيد والإماء وغيرهم من الحاشية ، يستعمل للواحد وللجمع والمذكر والمؤنث .

الهجاء السياسي

كان الهجاء السياسي من أظهر فنون الشعر في العصر الأموي : فقد عرف معاوية وخلفاؤه ما للشعر من أثر في نفوس الناس ، فحرصوا على أن يجمعوا حولهم أكبر قدر ممكن من الشعراء . ولم يحدوا حرجاً من أن يتألفوا قلوب أصحاب النفوذ والجاه بالمال والعطاء ، وكان لهم في رسول الله ﷺ أسوة حسنة بما فعل من تشجيع الشعر ، وتألف الناس بالمال ، في سبيل نشر الدعوة وإقرارها ، على ما بين العملين من خلاف أسامي في الغاية والهدف . ولازم هذه الحركات العنيفة والحروب المضطربة شعر كثير مضطرب عنيف يؤيد الطامعين في الحكم والمحاربين في سبيله ، ويهاجم خصومهم وأعداءهم . وبذلك عاد الشعراء مرة ثانية للظهور ، بعد أن اختفى أثرهم وخفت صوته منذ وفاة النبي ﷺ . عادوا يحتلون من الحياة السياسية مكاناً ممتازاً ، ويشرفون على توجيه الرأي العام ، بما يذيعون من شعر ، في تأييد أحزابهم ومعارضة أعدائهم ومنافسيهم . وحرص القادة والزعماء والمطالبون بالخلافة عليهم ، فأصبح الشعر - كما كان في الجاهلية - نظير الرمح وقربنه ، وشطر عدة المحارب وروح دعوته . وصحبهم في حريمهم ، كما فعل عبد الرحمن بن الأشعث ، حين خرج من سجستان مقبلاً إلى العراق ، وبين يديه أعشى مدان ، قد تقدم الجيش على فرسه يرتجز (١) :

شطت نوى من داره بالإيوان إيوان كسرى ذي القرى والريحان
فالبندُ نيجين إلى طرد أستان فالجسر فالكوفة فالغريان

(١) الطبري ٥ : ٤٧ : ودوانه ٣٤١

مِنْ عاشقٍ أَضْحَى بِزَاوِيلِستانِ إِنَّ تَقِيْفًا مِنْهُمْ الْكَذَّابَانِ
 كَذَّابُهَا الْمَاضِي وَكَذَّابُ ثَانِ أَمْكَنَ رَبِّي مِنْ تَقِيْفٍ هَمْدَانِ^(١)
 يَوْمًا إِلَى اللَّيْلِ يُسَلِّي مَا كَانَ إِنَّا سَمَوْنَا لِلْكَفُوزِ الْفَتَّانِ
 حِينَ طَفَى فِي الْكُفْرِ بَعْدَ الْإِيْمَانِ بِالسَّيِّدِ الْغِطْرِيفِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ
 سَارَ يَجْمَعُ كَالدَّبِّيِّ مِنْ قَحْطَانِ وَمَنْ مَعْدٍ قَدْ أَتَى ابْنَ عَدْنَانَ^(٢)
 يَحْخَفَلُ جَمْرٍ شَدِيدِ الْإِرْنَانَ فَقُلْ لِحِجَّاجٍ وَلِيِّ الشَّيْطَانِ^(٣)
 يَثْبُتُ لِيَجْمَعَ مَذْحِجٍ وَهَمْدَانِ وَالْحَيُّ مِنْ بَكْرٍ وَقَيْسٍ عِيْلَانِ
 فَإِنَّهُمْ سَاقُوهُ كَاسَ الذِّئْيَانِ وَمُلْحَقُوهُ بِقَرَى ابْنِ مِرْوَانَ^(٤)

واعتمد الزعماء على الشعراء في إعداد الناس لما يدبرون من مشاريع، يهدون لها بالشعر ليتحسروا رأي الناس، ومدى استمدادهم لقبولها، قبل أن يفجسوها بها، كما فعل معاوية، حين هم أن يبايع لابنه يزيد، مستحدثاً بذلك سنة ولاية العهد فأوعز إلى مسكين الدارمي أن يتكلم في ذلك فقال: ^(٥)

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي مَا يَقُولُ ابْنُ عَامِرٍ وَمِرْوَانَ أَمْ مَاذَا يَقُولُ سَعِيدٍ

(١) الكذاب الأول هو اختار بن عبيد الثقفي، ويقصد بالكذاب الثاني الحجاج بن يوسف الثقفي.

(٢) الدبى أصغر الجراد والنمل، يريد كثرة هذا الجيش، كما نقول نحن اليوم في تشبيها العامي عددهم كثير كالنمل.

(٣) الإرنان الصباح، والماضي رن وأرن صاح.

(٤) الذئبان السم القاتل. ملحقوه بقري ابن مروان يعني الشام حيث يقم الخليفة عبد الملك بن مروان.

(٥) الأغاني ١٨ : ٧١

بني خلفاء الله مهلاً فإنما يبوئها الرحمن حيث يريد
إذا المنبرُ الغريُّ خَلَّاهُ رَبُّهُ فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَزِيدُ

وحرصوهم على هجاء معارضيههم ، عاملين على إذاعة هجائهم في الجامع
والحافل ، كما فعل عبد الملك بن مروان بأبي العباس الأعمى ، حين حج فطلب
إليه أن ينشده هجاء ابن الزبير على ملأ من الناس ، يقصد بذلك إلى التأثير فيهم ،
وهو يعلم أن الحجاز معقل صحبه وأتباعه ، ومنشأ المعارضة القوية للحكم
الأموي . قال صاحب الأغاني : حج عبد الملك بن مروان ، فجلس للناس بمكة
فدخلوا على مراتبهم ، وقامت الشعراء والخطباء فتكلموا ، ودخل أبو العباس
الأعمى ، فلما رآه عبد الملك قال : مرحباً بك يا أبا العباس ! أخبرني بخبر المحدث
الحل . حيث كسا أشياعه ولم يكسك ، وأنشدني ما قلت في ذلك . فأخبره بنجر
ابن الزبير ، وأنه كسا بني أسد وأحلافها ولم يكسه ، وأنشده الأبيات :^(١)

بني أسد لا تذكروا الفخرَ بينكم متى تذكروه تكذبوا وتحَمَقُوا
بعيدات بين خيركم لصديقكم وشركم يغدو عليه وَيَطْرُقُ^(٢)
متى تُسْأَلُوا فَضلاً تَضَيُّوا وتبخلوا ونيرانكم بالشر فيها تَحَرَّقُ
إذا استَبَقْتُ يوماً قريشَ وَجَدْتُ بني أسدُ سُكُنْتُ وذو المجدي سبق^(٣)
تحيثون خلف القوم سُوداً وجوهكم إذا ما قريشُ للأضامِ أَصْفَقُوا^(٤)
وما ذاك إلا أن للثوم طابعاً يُلُوحُ عليكم وَشَمُّهُ ليس يَخْلُقُ

(١) الأغاني ٥ : ٦٢

(٢) الطرق والطروق الاتيان بالليل ، والغدو ضد الرواح ، والغدرة ما بين صلاة الغداة
وطلوع الشمس ، بعيدات بين خيركم كذلك هي بالأصل ولعله يقصد : بعيد ما بين خيركم .

(٣) سكت جمع سكت (بوزن كميث) وقد تشدد الكاف وهو آخر خيل الحالبة .

(٤) الإضامة الجماعة من الناس ليس أصلهم واحدا . أَصْفَقُوا اجتمعوا . أي حين يجتمعون
على طعام من ينزل بهم من جماعات الضيفان .

فقال عبد الملك ، أقسم على كل من حضر من بني أمية وأحلافهم ومواليهم ثم على كل من حضر من أوليائي وشيعتي على دعوتهم ، إلا كسا أبا العباس .

بذلك أصبحت السياسة والحزبية خرفة يتكسب منها الشعراء . وهذا هو أعشى ممدان ، يذكر ابن الأشعث ببلائه وصبره معه في الشدة ، ويطالبه بشمن شعره وولائه ، في قصيدة طويلة منها ^(١) :

كَمْ قَدْ أَسَدَيْ لَكَ مِنْ مَدْحَةٍ تُرَوِّى مَعَ الصَّادِرِ وَالْوَارِدِ
وَكَمْ أَجْبَنَّا لَكَ مِنْ دَعْوَةٍ فَاعْرِفْ فَمَا الْعَارِفُ كَالْجَامِدِ
مَا لَكَ لَا تُعْطِي وَأَنْتَ امْرُؤٌ مُثْرٍ مِنَ الطَّارِفِ وَالتَّالِدِ
تَنْجِي سَجِسْتَانَ وَمَا حَوْلَهَا مُتَكِيًا فِي عَيْشِكَ الرَّاغِدِ
لَا تَرَهَّبُ الدَّهْرَ وَأَيَّامَهَا وَتَجْرُدُ الْأَرْضَ مَعَ الْجَارِدِ
إِنْ يَكُ مَكْرُوهٌ تَهِيْجُنَا لَهُ وَأَنْتَ فِي الْمَعْرُوفِ كَالرَّاقِدِ
ثُمَّ تَرَى أَنَا مَرْضَى بِذَا كَلَّا وَرَبُّ الرَّكَعِ السَّاجِدِ
وَحُرْمَةِ الْبَيْتِ وَأَسْتَارِهِ وَمَنْ بِهِ مِنْ نَاسِكَ عَابِدِ
مَا أَنَا إِنْ هَاجَكَ مِنْ بَعْدِهَا هَنِجٌ بِأَتِيكَ وَلَا كَابِدِ
وَلَا إِذَا نَاطُوكَ فِي حَلْقَةٍ ^(٢) بِجَامِلٍ عَنْكَ وَلَا نَاقِدِ

(١) ديوان أعشى قيس والأعشون الآخرون ص ٣٢٤ ، والأغاني ٦ : ٤٧ - ٤٩ ط .
دار الكتب .

(٢) الحلقة الدرع خاصة ، وقيل السلاح كله . والحلقة كذلك الحبل . والمعنى صحيح في الحالين . يعني الشاعر أنه لن يكون معه بعد اليوم إذا احتاج إليه وكان في ضيق من أمره ، في الحرب على المعنى الأول ، أو أسيراً على المعنى الثاني .

فَاعْطُ مَا أُعْطِيَتْهُ طَيْبًا لَا خَيْرَ فِي الْمَنْكُودِ وَالتَّانِكِ (١)
وَأَنْجِزِ الْوَعْدَ إِذَا قُلْتَهُ لَيْسَ الَّذِي يُنْجِزُ كَالْوَاعِدِ

وقد أعان التشجيع من جانب الخلفاء والزعماء ، والطمع من جانب الشعراء ، على استفحال الهجاء السيامي ، فاستطاع شره بين الناس ، حتى أصبحوا يحتمعون لذلك فينشدون أهاجيهم ، ولا يفترقون إلا بعد قتال ، كما كان يفعل سُدَيْفُ (٢) مولى بني هاشم وشبيب مولى بني أمية . قال أبو الفرج في أخبار سديف : شاعر مقل من شعراء الحجاز . ومن مخضرمي الدولتين . وكان شديد التعصب لبني هاشم ، مظهرًا لذلك أيام بني أمية . وكان يخرج إلى صغار صفار في ظاهر مكة ، يقال لها صفا السَّبَاب ، ويخرج مولى لبني أمية معه يقال له شبيب . فيتشاثمان ويذكران المثالب والمعايب . ويخرج معها من سفهاء الفريقين من يتعصب لهذا ولهذا . فلا يبرحون حتى تكون الجراح والشجاج ، ويخرج السلطان إليهم فيفرقهم ويعاقب الجناة . فلم تزل العصبية بهم . حتى شاعت في العامة والسفلة . وكانوا صنفين ، يقال لهم السُدَيْفِيَّة والسَّبِيبِيَّة . وقال في موضع آخر (٣) ، في قول الشاعر :

سَكَنُوا الْجَزْعَ جِزْعَ بَيْتِ أَبِي مَوْ سَى إِلَى النَّخْلِ مِنْ صَفِي السَّبَابِ

(وصفي السباب بفتح الفاء وكسرهما جميعاً . وهو شعب من شعاب مكة ، فيها صفاً أي صخر مطروح ، وكانت قریش تخرج فتقف على ذلك الموضع ، فيفتخرون ثم يتشاثمون ، وذلك في الجاهلية ، فلا يفترقون إلا عن قتال .

(١) نكد فلان فلاناً منه ما سأله ، أو لم يعطه إلا أكلة .

(٢) الأغاني ٤ : ٦٢

(٣) الأغاني ٩ : ١٧٥

ثم صار ذلك في صدر الإسلام أيضاً ، حتى نشأ سديف ، مولى عتبة بن أبي سديف ، وشبيب مولى بني أمية ، فكان هذا يخرج في موالي بني هاشم ، وهذا في موالي بني أمية ، فيفتخرون ثم يكشأون ثم يتجالدون بالسيوف . وكان يقال لهم السديفية والشبيبية . وكان أهل مكة مقسمين بينهما في العصبية) .

بل لقد غرّي الناس بالهجاء . حتى أصبح بدءاً في ذلك الوقت . صاروا يتهاجون لغير خصومة ، كلفاً باللباج والمراء : جاء البردخت إلى جرير ، فقال : تهاجيني ؟ قال : ومن أنت ؟ قال : أنا البردخت . قال : وما البردخت ؟ قال : الفارغ بالفارسية . قال : ما كنت لأشغل نفسي بفراغك ^(١) . ورحل قوم إلى عديّ بن الرقاع ليهاجوه ، فتقدمت إليهم بنته فقالت :

تَجْمَعُمُ من كل أوبٍ ومنزل على واحدٍ لازَلْتُمُ قِرْنَ واحدٍ
هانصر فواعنه ولم يهاجوه ^(٢) . وكان المغيرة بن حنبل هاجي أخاه
صخر بن حنبل ، ولهما قصائد يتناقضانها كثيرة ^(٣) . وكان ابن ميادة متمرضاً
للشر ، طالباً للمهاجاة الشعراء ومساباة الناس . وكان يضرب بيده على جنب
أمه ويقول :

اعرَ نَزِمِي مِيَادُ للقوافي واستميعهن ولا تخافي
ستجدين ابتكٍ ذا قِذاف ^(٤)

ولا نكاد نعرف في هذا العصر شاعراً مشهوراً ، إلا قد أخذ من الهجاء

(١) الشعر والشعراء ٢٧٣

(٢) الشعر والشعراء ٢٣٧

(٣) الأغاني ١١ : ١٦٢

(٤) الأغاني ٢ : ٢٦٣ ، الشعر والشعراء ٢٩٨

بنصيب . يقول ابن قتيبة في أخبار ذي الرمة : وإنما وضعه عندهم ، أنه كان لا يحميد المدح ولا الهجاء^(١).

واحتل المريد في العراق - موطن الفتن والاضطرابات والهجاء في العصر الأموي - مكان عكاظ من الحجاز في الجاهلية ، فصار يجمع الناس في خصوصاتهم الخاصة ، وفي محافلهم السياسية العامة . يقول ابن عبد ربّه : قدم طلحة بن عبد الله والزبير بن العوام وعائشة أم المؤمنين البصرة ، فتلقاهم الناس بأعلى المريد ، حتى لو رموا بحجر ما وقع إلا على رأس إنسان . فتكلم طلحة ، وتكلمت عائشة ، وكثر اللفظ . فجعل طلحة يقول : أيها الناس أنصتوا . وجعلوا يرهجون ولا ينصتون . فقال : أف ! أف ! فراش نار وذباب طمع !^(٢) وفي المريد كانت تنشّد نقائض جرير والفرزدق . وكان لكل منهما حلقة معروفة ومكان معين يجتمع فيه بأصحابه . قال أبو الفرج : وكان لراعي الإبل والفرزدق وجلسائهما حلقة معروفة بأعلى المريد بالبصرة يحلسون فيها . ثم أصبح (جرير) ، حتى إذا عرف أن الناس قد أخذوا بمجالسهم بالمريد - وكان جرير يعرف مجلس الراعي ومجلس الفرزدق - فدعا بدهن فادهن وأصلح وجهه ، حتى إذا كان بموضع السلام لم يسلم ، ثم قال : يا غلام قل لعبيد الراعي أبعثك نسوتك تكسبهم المال بالعراق ؟ والذي نفس جرير بيده لتؤوين إلهن بمر يسوؤهن ولا يسرهن . ثم اندفع في القصيدة (وهي التي يقول فيها بيتة المشهور : ففض الطرف إنك من غير) فنكس الفرزدق رأسه ، وأطرق الراعي^(٣) . وفي المريد تهـاجى النابغة الجعدي وأوس بن مفرّاء ، وحضرهما المعجاج والأخطل وكعب بن جُعيل ، وكلهم شارك في المهاجاة يعين صاحبه بشعره^(٤) . وكثيراً ما كانت تنتهي

(١) الشعر والشعراء ٢١٠

(٢) للمقد الفريد ٥ : ٧١

(٣) الأغاني ٢٠ : ١٦٩

(٤) الأغاني ٥ : ١٢

المهاجاة بالقتال كما يروي صاحب الأغاني في خبر جرير والفرزدق . يقول : ولما
تواقف جرير والفرزدق بالمربد للهجاء ، اقتتل بنو يربوع وبنو مجاشع ، فأمدت
بنو العم بني مجاشع ، وجاؤهم في أيديهم الخشب ، فطردوا بني يربوع ، فقال
جرير : من هؤلاء ؟ قالوا : بنو العم . فقال جرير :

ما للفرزدق من عز يلوذ به إلا بني العم في أيديهم الخشب^(١)

وربما أنشد فيه الشعراء شعرهم في غير الهجاء ، وقد خرجوا على الناس في
أحسن لباسهم وأبهى زينتهم ، كما يروي أبو الفرج في وقوف ذي الرئمة بالمربد ،
وقد اجتمع عليه الناس ، وهو قائم وعليه برد قيمته مائتا دينار ، وهو ينشد
ودموه تجري على لحيته :

ما بال عينك منها المأثم ينسكب كأنه من كلى مفرقة سرب^(٢)

وقد اختلفت صور الهجاء السياسي في ذلك العصر وتعددت مذاهبه ،
فمضى بعضه على الأسلوب الجاهلي الذي يقوم على العصبية القبلية . واتجه بعضه
إلى مهاجمة أصحاب الدعوات والمهاجرين في سبيل السلطة ، وإنكار حقهم في
ذلك ، وتتبع سقطاتهم ، والتشنيع بأفعالهم وهفواتهم . وانصب بعضه الآخر
على الولاة ، مهاجما سياستهم البعيدة عن العدل والانصاف ، والتحالفة لما ألف
الناس من عادات . وذهب فريق من الناس مذهب الساخط على كل هؤلاء الزعماء
القرشيين ، الذين امتلأت نفوسهم بالطمع ، فجروا على الناس هذه الولايات ، التي
لا تعود عليهم بغير الشر والفناء .

(١) الأغاني ٣ : ٢٥٧

(٢) الأغاني ١٦ : ١٢٣

أما شعر العصبية فهو جاهلي في روحه وخصائصه ، لم يتأثر بالمثل الإسلامية الجديدة في قليل أو كثير ، فهو امتداد لشعر الحروب التي كانت تقع بين القبائل في الجاهلية . فالقيسي لا يحس أنه يقاتل من أجل ابن الزبير ، وليس الذي يدفعه للقتال عداؤه للأمويين ، ولكنه يحارب هذه القبائل اليمينية ، التي عادت للظهور بعد أن أخلها الإسلام ، وقضى على مجدها الجاهلي القديم . واليمينية - ومعظمهم من الشام - يقاتلون في سبيل الظهور إلى الحياة ، واستعادة سلطانهم السيامي ، وإقرار الملك في الشام بعد أن أزاله الإسلام ونقله إلى الحجاز ، والأمويون عندهم مطية لتحقيق أغراضهم ، وسبب لما يحاولون من السيادة والملك . والدارس لهذا اللون من ألوان الهجاء السيامي ، يرى أن القيسي عميق الشعور بمضريته ، واليميني عميق الشعور بيمينته . فالقيسي لا يحس أنه تابع لابن الزبير ، ولكنه قيسي قبل كل شيء وبعد كل شيء . واليميني لا يحس أنه من جند معاوية أو مروان ، ولكنه يمني أولاً وآخرأ . فالفريقان كلاهما لم يكونا مدفوعين إلى القتال بفكرة سياسية حول نظام الحكم أي أنواعه أصلح ، وأيا أدنى لتحقيق العدالة وإقامة الإسلام ، ولكنها كانا مدفوعين إليه بالعصبية الجاهلية والتارات القديمة ، ولم تكن هذه الفتنة الإسلامية الجديدة إلا منفذاً أو ثغرة لهذه الحزازات ، التي تلمست طريقها إلى الوجود عن طريق هؤلاء الزعماء الذين يتقاتلون على الحكم .

يقول زفر بن الحارث الكلبي في مرج راهط^(١) :

أريني سلاحي لا أبالك إنني أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا
أثاني عن مروان بالغيب أنه مُقيدٌ دمي أو قاطعٌ من لسانيا
ففي العيس منجاة وفي الأرض مهربٌ إذا نحن رفَعْنَا لهن المَثَانِيَا^(٢)

(١) الطبري وابن الأثير حوادث سنة ٦٥

(٢) المثاني معاطف الوادي ، وركبتا الدابة ومرفعاها ، والمعنى يصلح بكليهما .

فلا تحسبوني إن تَغَيَّبْتُ غافلا ولا تفرحوا إن جئْتكم بلقائيا
فقد يَنْبَتُ المَرَعَى على دِمَنِ الثرى وَتَبْقَى حَزَازَاتُ النَفوسِ كما هيا^(١)
أَتَذْهَبُ كَلْبٌ لم تَنْلَهَا رماحنا وَتُتْرَكُ قَتْلَى رَاهِطٍ هي ما هيا^(٢)
لَعَمْرِي لقد أَبْقَتْ وَقِيعَةُ رَاهِطٍ لِحْسَانَ صَدْعًا يَبِينُا مَتْنائيا^(٣)
أَمِنْ بَعْدِ عَمْرٍ وَابْنِ مَعْنٍ تَتَابَعَا وَمَقْتَلُ هَمَّامٍ أُمْنِي الأمانيا^(٤)
فلم تُرْ مَنْسِي نبوةٌ قبل هذه فراري وتركي صَاحِيٍّ ورائيا^(٥)

(١) الدمن أرواث البهائم المتلبدة والأبمار . يقول إن الحفد الدفين يظل كامنا في النفس وإن سقرته مظاهر البشاشة كما أن المراعي الخضراء الزاهية تنبت فوق الدمن فتخفيها عن الأعين ولكنها باقية كما هي .

(٢) كلب قبيلة يمنية تسكن بإدية الشام أصهر إليهم معاوية ، منهم أم ولده يزيد ، ثم أصهر إليهم يزيد فكانوا أحوال ولده خالد . وقد كانوا منذ ذلك الوقت عصبية أموية . قتل راهط يقصد وقعة مرج راهط وهي من المواقع العظيمة الحاسمة ، كانت بين الزبيرية بقيادة الضحاك بن قيس وبين الأمويين يقودهم مروان بن الحكم . وقد كان جند مروان في هذه الموقعة من اليمنية (كلب وغان والسكسك والسكون) وكان جند الضحاك من قيس عيلان . وقد قتل من القيسية في هذه الموقعة عدد ضخم .

(٣) حسان بن مالك بن بجدل الكلبي ، كان عامل معاوية وابنه يزيد في فلسطين .

(٤) هؤلاء قيسية قتلوا في مرج راهط .

(٥) النبوة الجفوة والبمد ، والقصود به هنا الخطأ والزلة ، لأنها بعد عن الحق والمروءة . كان زفر بقنسرين ، فهرب منها وعلق بقرقيسيا حين علم بمقتل الضحاك بن قيس في مرج راهط . وصحبه في فراره شابان من سليم . فلما جاءت خيل مروان في طلبه قال له الشابان انج بنفسك ودعنا نقتل . فمضى وتركها فقتلا . فذلك هو ما أشار إليه في البيت من ندمه على قتل صاحبيه .

عشية أعدو بالقران فلا أرى من الناس إلا مَنْ عَلِيٍّ وَلَا لِيَا^(١)
 أيذهب يومٌ واحدٌ إن أساته بصالح أيامي وحسنِ بَلَاثِيَا
 فلا صَلَحَ حتى تَنَحَّطَ الخيلُ بالقنا وتثار من نسوان كَلْبٍ نَسَاثِيَا^(٢)
 ألا ليت شعري هل تُصَيِّنُ غارتي تَنُوحًا وحي طيء من شَفَاثِيَا^(٣)
 فيجيبه جَوَّاس بن قَعَطَل :

لعمري لقد أبقتُ وقِعةً راهطٍ على زُفْرِ داءٍ من الداءِ باقِيَا
 مقيمًا ثوى بين الضلوعِ محلُّه وبين الحشا أعْيى الطبيبِ المُدَاوِيَا
 تُبَكِّسِي على قتلى سُلَيْمٍ وعامرٍ وذبيان معذورا وتُبكي البواكِيَا^(٤)
 دَعَا بسلاحٍ ثم أحجم إذ رأى سيوف جنَابٍ والطوالِ المَذَاكِيَا^(٥)
 عليها كأسد الغابِ فتيانُ نجدةٍ إذا شرعوا نحو الطعانِ العواليَا

(١) القران (بكسر القاف) جمع قرن (بفتحين) . والقرن الجمعة ، والسيف ، والنبل ، وحبل يجمع به البعيران ، والبعير المقرون بآخر . وروى ابن الأثير البيت (عشية أدعو في القران) . ويمكن فهم المعنى بشي من التحايل المتكلف على الروايتين . والأرجح أن يكون (القران) اسم موضع .

(٢) نخط الفرس (كضرب) نخطاً ونحيطاً صات من الإعياء .

(٣) كلب وتنوخ وطيء قبائل يمنية اشتركت مع الأمويين في مرج راهط .

(٤) سليم وعامر وذبيان قبائل من قيس عيلان .

(٥) المذاكي هي الخيل التي تم سنّها وكملت قوتها ، الواحد مذك (بضم فسكون) ومذكي (بضم ثم فتح) .

ويحييه عمرو بن غلاة الكلبي :

بكى زُفرُ القيسيُّ من هُلك قومه بَعَّةٌ عين ما يجفُّ سُجُومها
يُبَكِّي على قَتْلِ أَصِيبَتِ بَراهِط تُجَاوِرُ به هام القفار وبُومها
أُجِنَّا جَمَى للحيِّ قيس بَراهِط وولتُ شِلَالاً واستَبِيحَ حَريمُها
يُبَكِّيهم حَرَّانَ تَجري دموعه يُرَجِّي زارا أن تُثَوِّبَ حلومها
فَمَت كَدَا أو عِشْ ذليلاً مُهْضَمًا بحسرة نفسٍ لا تَنَامُ هُمومها
إذا خَطَرَت حولي قِضاةُ بالقنا تَخَبَّطُ فِعلَ المِصْعَبَاتِ قُرومها^(١)
خَبَطْتُ بهم من كادني من قبيلةٍ فمن ذا إذا عزَّ الخطوبُ يرومها

ويعز على زفر أن يُقتل ابن الزبير وهو قرشي مضري، بينما بجدل وابن بجدل
- أخوال يزيد بن معاوية - ينعمان بالحياة وما يمينان فيقول :

أفي الله أَمَا بَجْدَلُ وابنُ بَجْدَل فيَحْيَا وأما ابنُ الزبير فيُقتلُ
كذبتُم وبيت الله لا تقتلُونَه ولَمَّا يَكُنْ يومٌ أغرُّ مُحَجَّلُ
ولمَّا يَكُنْ للمَشْرِيفَةِ فوقكم شعاعٌ كَقَرْنِ الشمسِ حينَ تَرَجَلُ^(٢)

فيحييه عبد الرحمن بن الحكم (أخو مروان) :

أَنذَهَبُ كَلْبٌ قد حَمَتَهَا رماحنا وتُتركُ قَتلى رَاهِطٍ ما أَجَنَّتْ

(١) المصعب الفعل من الإبل الذي يترك لا يركب ولا - حبل حتى يصير صعباً . جمصاعب
ومصاعيب . الغرم (يفتح فكون) الفعل الذي لا يركب ولا يحمل عليه ، ويغلى الفعلة
(بكسر الفاء) . خبط البعير وتخبط وطىء الأرض وطناً شديداً .
(٢) ترجلت الشمس والنهار ارتفع .

لحالله قيساً قيسَ عيلانَ انها أضاعتْ ثغورَ المسلمين وولتْ
فباہِ بقیسِ فی الرخاء ولا تَکُنْ أخاها اذا ما المَشْرِقیَّةُ سُلَّتْ

وما یناسب هذا النوع شعر ابن بقیلة، الذي قاله في فتح خالد للعراق یتعسر
على ما كان للیمنية من مجد في الجاهلية ، وما صاروا إليه من الخضوع للقبائل من
معد ، يؤدون إليهم الخراج بعد أن كانوا يأخذونه من كسرى في العراق ومن
اليهود في المدينة (١) .

أبعد المنذرین أرى سواما تَرَوَّحُ بالخورنق والسَّدير (٢)
وبعد فوارس النُعمان أرعى قُلوصا بین مُرَّةً والحفیر
فصرنا بعد هُلكِ أبي قُبیس كَجَرَبِ المَعزِ في اليوم المطیر (٣)
تَقَسَّمنا القبائلُ من مَعَدَّ علانية كأیسار الجزور (٤)
وكنّا لا يُرامُ لنا حَريمٌ فنحن كضَرَّةِ الضَّرْعِ الفَخُور

(١) الطبري أحداث سنة ١٢

(٢) المنذران ملكان من ملوك الحيرة هما المنذر بن النعمان الذي بنى الخورنق والمنذر بن
ماء المعاء . وماء المعاء أمه كانت مشهورة بحسنها وجمالها . وأبوه الأسود بن النعمان بن المنذر .
الخورنق والسدير قصران مشهوران لملوك الحيرة .

(٣) أبو قبيس يقصد أبا قابوس النعمان بن المنذر صاحب النابغة الذبياني . الجرب والجربة
(بفتح فسكون) الجماعة . والجرب (بضم الجيم) جمع أجرب والمضي صحيح بكليهما .

(٤) هو معد بن عدنان الجد الأكبر لعرب الشمال من ربيعة ومضر . ويقابله قحطان الجد
الأكبر لعرب الجنوب من كهلان وحمير . وملوك الحيرة والشام من عرب الجنوب . يقول الشاعر :
بعد أن كان عرب الجنوب من القحطانية ملوك الناس أصبح عرب الشمال يملكون عليهم ويتقسمونهم
بينهم كما يتقسم لاعبو الميسر الجزور . والجزور من الأبل الناقة أو الحمل ، يطلق على الذكر
والأنثى .

نُودِّي الخرجَ بعد خراج كِنْرَى وَخَرَجَ مِنْ قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ
كَذَاكَ الدَّهْرُ دَوْلَتُهُ سِجَالُ فَيَوْمٌ مِنْ مَسَاعَةٍ أَوْ سُرُورِ

ومنه شعر النجاشي ، في معارضة سياسة معاوية إزاء اليمنيين في الحروب ،
إذ كان يفتخرون في البحر ويفتخرون قيساً في البر (١) :

أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ الَّذِينَ تَجَمَّعُوا بَعَكَا أَنَاسُ أَنْتُمْ أَمْ أَبَا عُرٍ
أَتُتْرَكُ قَيْسُ آمَنِينَ بِدَارِهِمْ وَزَكَبُ ظَهْرِ الْبَحْرِ وَالْبَحْرِ زَاخِرٌ ؟
فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي وَإِنِّي لَسَائِلُ أَهْمْدَانُ تَحْمِي ضَمِيمَهَا أَمْ يُجَابِرُ ؟
أَمْ الشَّرَفُ الْأَعْلَى مِنْ أَوْلَادِ حَمِيرَ بَنُو مَالِكٍ أَمْ تَسْتَمِرُّ الْمَرَاثِرُ (٢)
أَوْصَى أَبُوهُمْ بَيْنَهُمْ أَنْ تَوَاصَلُوا وَأَوْصَى أَبُوكُمْ بَيْنَكُمْ أَنْ تَدَّابَرُوا ؟

وهناك نوع جديد من هذا الهجاء العصبي لم يعرفه الجاهليون ، هو هجاء
الإقليم . وهو يصور تعلق الناس بأوطانهم التي تزحوا إليها ، وشعورهم برابطة
جديدة تجمعهم على اختلاف قبائلهم ، هي الإقليم . فالعربي الذي لم يعرف
الاستقرار في الجاهلية ، ولم تكن تحركه إلا العصبية للأفراد من قبيلته ، قد
بدأ يحس بشيء من العطف نحو الأرض التي سكنها واستقر فيها وتعلق بها . ومن
أمثلة هذا النوع ، هجاء أعشى همدان لأهل العراق ، في قلوبهم وإرصادهم الفتنة
ونكوصهم في الحروب :

(١) خزائن الأدب ٣ : ٢٥٥

(٢) همدان قبيبة بنية . يجابر قبيبة بنية ، وهو أبو مراد . وحير أحد فروع قطعان من
حروب الجنوب ، ومالك هو مالك بن حير وهو جد لعدة قبائل منها كلب ونهد وجرم وغيرهم .
المرّة (بكسر الميم وتشديد الراء) القوة . وأمر الحبل شد قتله . استمر مريده واستمرت مريته
استحكم .

أَبِي اللَّهِ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نورهَ وَيُظْهِرَ أَهْلَ الْحَقِّ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ وَيُنْزِلَ ذُلًّا بِالْعِرَاقِ وَأَهْلِهِ وَمَا أَحَدُ ثَوَا مِنْ بِدْعَةٍ وَعَظِيمَةٍ وَمَا نَكثُوا مِنْ بَيْعَةٍ بَعْدَ بَيْعَةٍ وَجُبْنَا حِشَاءَ رَبِّهِمْ فِي قُلُوبِهِمْ فَلَا صِدْقَ فِي قَوْلِهِ وَلَا صَبْرَ عِنْدِهِمْ فَكَيْفَ رَأَيْتَ اللَّهَ فَرَّقَ جَمْعَهُمْ فَقَتَلَهُمْ قَتْلًا ضَالًّا وَفَتَنَهُ وَمِنْهُ مَجَاوِزُهُ لِأَهْلِ الْبَصْرَةِ مُفْتَخِرًا عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْجَمَلِ :

اكسَعُ الْبَصْرِيَّ إِنْ لَاقِيْتَهُ إِنَّمَا يُكْسَعُ مِنْ قَلٍّ وَذَلَّ^(١) وَاجْعَلِ الْكُوفِيَّ فِي الْخَيْلِ وَلَا تَجْعَلِ الْبَصْرِيَّ إِلَّا فِي النَّفْلِ^(٥)

- (١) الدِّوَانُ ص ٣٢٠ . وقصة الأبيات وخبرها في الأغاني ٦ : ٥٨ - ٦٢ ط دار الكتب المصرية . ورواية الأغاني : ويطفيء نار الفاسقين فتخمد ، وهي أفضل .
- (٢) الصيد (حركة بفتح الصاد) داء بالفتح لا يستطيع صاحبه أن يلتفت منه . والمقصود به هنا الكبير . كان أهل الكوفة جند علي يوم الجمل سنة ٤٠ هـ . وكان أهل البصرة مع المطالبين بدم عثمان من الصحابة ، فيهم طلحة والزبير ومن معها من بني أمية .
- (٣) خاس اللحم (كضرب) تغير وفسد . خاس والمعهد غدر ونكث .
- (٤) كبسه (مثل منعه) ضرب دبره بيده أو بصدر قدمه .
- (٥) النفل (حركة بالفتح) الغنيمة وجمعها أنفال . يقول إن الكوفي يصلح للقتال أما البصري فهو لا يصلح إلا لاقتسام الغنائم .

أَفْخَرْتُمْ أَنْ قَتَلْتُمْ أَعْبُدًا وَهَزَمْتُمْ مَرَّةً آلَ عَزَلٍ^(١)
 نَحْنُ سُقْنَاهُمْ إِلَيْكُمْ عَنُوءَةً وَجَعْنَا أَمْرَكُمْ بَعْدَ فَشَلٍ
 وَإِذَا فَاخِرْتُمُونَا فَاذْكُرُوا مَا فَعَلْنَا بِكُمْ يَوْمَ الْجَمَلِ
 بَيْنَ شَيْخٍ خَاضِبٍ^(٢) عُثْنُونَةٍ وَفَتًى أَبْيَضٍ وَضَّاحٍ رَقْلٍ^(٣)
 جَاءَنَا يَهْدُجُ فِي سَابِقَةٍ فَذَبَحْنَاهُ ضَحًى ذَبَحَ الْحَمَلَ^(٤)
 وَعَفُونَا . فَنَسِيتُمْ عَفُونَنَا وَكَفَرْتُمْ نِعْمَةَ اللَّهِ الْأَجَلَ
 وَقَتَلْتُمْ خَشْيَيْنِ بِهِمْ بَدَلًا مِنْ قَوْمِكُمْ شَرًّا بَدَلٍ^(٥)

ومنه هجاءه لمكشران - والظاهر أنه قد سار إليها غازياً على كره منه -
 وشعره هنا يصور إلى جانب النزعة الإقليمية ضيقاً بالغزو ، وبما يلقي الجند من
 عنت ، يجره الإيفال في الفتوح ، وترك الجنود في الثغور زمناً طويلاً . يقول

(١) العزل (بفتحين) الاعتزال والتنعى ، قصد بآل عزل الحوارج لاعتزالهم جماعة
 المسلمين . والأبيات في الديوان ص ٣٣٧ . ولها قصة في الأغاني ٦ : ٤٤ ط . دار الكتب
 المصرية .

(٢) للمثنون (بضم العين) اللحية أو ما فضل منها بعد العارضين . وإنما يخضب الرجل لحيته
 إذا شاب ليغطي بالخصاب شبهه . رقل مختال يقبض .

(٣) الهدجان والهداج (بضم الهاء) مشية الشيخ المرتعة . سابغة درع تغطي سائر الجسم .
 الحمل (بفتحين) الحروف .

(٤) الحشبية أتباع المختار بن أبي عبيد الثقفي ، الذي ثار سنة ٦٦ وغلِبَ على الكوفة وأخرج
 منها عامل ابن الزبير ، زاعماً أنه يعمل بأمر محمد بن الحنفية ويطلب بدم الحسين رضي الله عنه .
 وقد التقى المختار مع جنده من أهل الكوفة بمصعب بن الزبير مع جنده من أهل البصرة ، فهزم
 جند المختار . ودخل مصعب الكوفة فقتل المختار وكل من كان معه .

الأعشى بعد تشيب طويل يبلغ ستة وثلاثين بيتاً (١) :

وَأَنْتَ تَسِيرُ إِلَى مُكْرَانَ فَقَدْ شَحَطَ الْوَرْدُ وَالْمَصْدَرُ
وَلَمْ تَكْ مِنْ حَاجَتِي مُكْرَانَ وَلَا الْغَزْوُ فِيهَا وَلَا الْمَتْجَرُ
وُخْبَرْتُ عَنْهَا وَلَمْ آتَهَا وَمَا زِلْتُ مِنْ ذِكْرِهَا أَذْعَرُ
بِأَنَّ الْكَثِيرَ بِهَا جَائِعٌ وَأَنَّ الْقَلِيلَ بِهَا مُقْتَرُ
وَأَنَّ لِحَى النَّاسِ مِنْ حَرِّهَا تَطُولُ فَتُجَلَمُ أَوْ تُضْفَرُ (٢)
وَيَزْعُمُ مِنْ جَاءَهَا قَبْلُنَا بَأَنَّا سَنُسْهِمُ أَوْ نُنَحَرَ (٣)
أَعُوذُ بِرَبِّي مِنَ الْمَخْزِيَّاتِ فِيمَا أُسِرْتُ وَمَا أَجْهَرُ
وُحْدْتُ أَنْ مَالَنَا رَجَعَتْ سَنِينَ وَمِنْ بَعْدِهَا أَشْهَرُ
إِلَى ذَاكَ مَا شَابَ أَبْنَاؤُنَا وَبَادَ الْأَخْلَاءُ وَالْمَعَشَرُ
وَمَا كَانَ بِي مِنْ نَشَاطٍ لَهَا وَإِنِّي لَذُو عُدَّةٍ مُوسِرُ

(١) ضرب البعث على جيش أهل الكوفة إلى (مكران) ، فأخرج الحجاج أعشى همدان مع الجيش إلى مكران، فخرج إليها وطال مقامه بها ومرض . فكرمها فقال هذا الشعر . وهو من قصيدة طوبة أولها :

طَلَبْتَ الصَّبَا إِذْ عَلَا الْمَكْتَبَرُ وَشَابَ الْقَذَالُ وَمَا تَقْصُرُ
وَأَجْعُ الْأَبْيَاتُ وَقَعَتْهَا فِي الْأَغَانِي ٦ : ٣٨ - ٤٢ ط . دار الكتب المصرية وفي الديوان ص ٣٢٨

(٢) جلم الصوف (كضرب) جزء وقصه .
(٣) نسهم (على البناء للمجهول) أي نقسم بين الناس فنكون في سهم أحدهم أي في قرعته ونصيبه .

ولكن بُعِثَ لها كارهاً وقيل انطلق للذي يُومَرُ
فكان النَّجَّاهُ ولم أَلْتَفِتْ إليهم وشرُّهم مُنْكَرٌ^(١)
هو السيفُ جُرْدٌ من غمده فليس عن السيفِ مستأخِرُ
وكم من أخ لي مستأنسٍ يظل به اللمعُ يَسْتَحِيرُ^(٢)
يُودُّعُنِي وانتَحَتْ عَبرَةٌ له كالجدول أو أغزر
فلستُ بلاقيه من بعدها يدَ الدهرِ ما هَبَّتِ الصَّرَصُ
وقد قيل إنكمُ عابِرو ن بحراً لها لم يكن يُعْبَرُ
إلى السِّندِ والهند من أرضهم هم الجنُّ لكنهم أنْكَرُ
وما رام غزواً لها قبلنا أكابرُ عادٍ ولا جَمِيرُ
ولا رام سَابُورُ غزواً لها ولا الشيخُ كسرى ولا قَيْصَرُ
ومن دونها مَعْبَرٌ واسع وأجرٌ عظيمٌ لمن يُوَجَّرُ

ومن الهجاء الذي تظهر فيه عصبية الإقليم ، قول عدي بن زيد بن عدي بن
الرقاع العاملي ، في حرب مصعب بالعراق حين زحف إليه عبد الملك بن مروان
سنة ٧١ هـ (٣) :

لعمري لقد أَصْحَرَتْ خَيْلُنَا بأكناف دجلةَ الْمُصْعَبِ^(٤)

(١) النجاء السرعة في السير .

(٢) حمر البعير (كضرب وفرح) واستحسر كلٌ وأعبا . فكان اللمع قد كلٌ وأعبا من
كثرة البكاء .

(٣) الطبري أحداث سنة ٧١

(٤) أصحرت خرجت للصعراء .

إذا ما مُنَافِقُ أَهْلِ الْعِرا قُ عُوْتَبُ ثُمْتُ لَمْ يُعْتَبَ^(١)
 دَلَفْنَا إِلَيْهِ بِذِي تَدْرُؤٍ قَلِيلِ التَّفَقُّدِ لِلْغُيْبِ^(٢)
 يَهْزُونَ كُلَّ طَوِيلِ الْقِنا ةً مَلْتَمِ التَّصَلِّ وَالتَّغْلِبِ^(٣)
 كَانَ دُعَاؤُهُمْ إِذَا مَا غَدَوْا ضَجِيحُ قَطَا بِلَدِ نُحْصِبِ
 فَقَدْ مَنَّا وَاضِحُ وَجْهِهِ كَرِيمُ الضَّرَائِبِ وَالْمَنْصِبِ^(٤)
 أَعَيْنَ بَنَّا وَنَصِرْنَا بِهِ وَمَنْ يَنْصُرُ اللَّهَ لَمْ يُغْلَبْ

ومنه شعر 'نعم بن هُبَيْرَة الشيباني ، الذي كتب به إلى أخيه مَصْنَعَة بن هُبَيْرَة ، وقد انتقل إلى الشام ، وانضم إلى جند معاوية ، ثم أرسل إلى أخيه بطمعه في ترك علي ، والانضمام لمعاوية^(٥) :

قَدْ كُنْتَ فِي مَنْظَرٍ عَنْ ذَا وَمُسْتَمَعَ تَحْمِي الْعِرَاقَ وَتُدْعَى خَيْرَ شَيْبَانَا^(٦)

(١) أعتبه سره بعد ما ساءه ، وأرضاه . والاسم منه العتبى . أي أنه لم يعاتب لإرضائه . ولكنه عوتب بالسيوف .

(٢) دلف الشيخ والمقيد دليفاً ودلوقاً وهو سير فوق الدبيب . درأ العدو دفعه ، وفو تدره قوي على دفع أعدائه . قليل التفقد أي لا يبالي من غاب من جنده ولا يفت ذلك في عزمه لشدة ثقته وانقصود بذلك عبد الملك بن مروان .

(٣) الثعلب طرف الرمح الداخل في تجويف السنن من قاعدته .

(٤) الضرائب جمع ضريبة وهي الطبيعة والسجية . المنصب الأصل والمنبت والجهت .

(٥) الطبري سنة ٣٨٠ . وكان مصقلة قد اشترى من علي رضي الله عنه نصارى ناجية . وكانوا قد أسلموا ثم ارتدوا فقتل علي مقاتلهم وسبى ذريتهم . ثم إن مصقلة اشترى الذرية وأعتقهم مقابل جعل يدفعه إلى علي - وكان والياً على أردشير - فلما طالبه علي بالجعل ولم يستطع سداه فر إلى معاوية .

(٦) أي كنت موضع النظر والسمع من قومك . يحاونك إذا نظروا إليك ويطيعونك إذا سمعوا منك .

حتى تَقَحَّمْتَ أَمْرًا كُنْتَ تَكْرَهُهُ للراكبين له سِرًّا وإعلانا
لو كنتَ أَدَّيْتَ مَا لِلْقَوْمِ مَصْطَبِرًا للحَقُّ أَحْيَيْتَ أَحْيَانًا وَمَوَاتِنًا
لكن لحقت بأهل الشام مُتَمَسِّسًا فضل ابن هندٍ وذاك الرأي أَشْجَانًا
وما تظهر فيه عصبية الشام وعصبية العراق ، شعر ابن جَعْفَلٍ يمارض
عليًا ، ويتهمه بإيواء قتلة عثمان والإغضاء عنهم ^(١) :

أرى الشامَ تَكْرَهُ مُلْكَ العراق وأهلُ العراق لها كارهونا
وكلُّ لصاحبه مُبْغِضٌ يَرَى كُلُّ مَا كَانَ مِنْ ذَاكَ دِينًا
إِذَا مَا رَمَوْنَا رَمِينَاهُمْ وَدِنَاهُمْ مِثْلَ مَا يُقْرَضُونَا ^(٢)
وَقَالُوا عَلِيُّ إِمَامٌ لَنَا فَقَلْنَا رَضِينَا ابْنَ هَنْدٍ رَضِينَا
وَقَلْنَا نَرَى أَنْ تَدِينُوا لَنَا فَقَالُوا لَنَا لَا نَرَى أَنْ نَدِينَا
وَمَنْ دُونِ ذَلِكَ خَرَطُ الْقَتَادِ وَضَرْبُ وَطْعَنُ يُقْرُ الْعِيُونَا
وَكُلُّ يُسَرُّ بِمَا عِنْدَهُ يَرَى غَثَّ مَا فِي يَدَيْهِ سَمِينَا
وَمَا فِي عَلِيٍّ لِمُسْتَعْبِرٍ مَقَالٌ سَوَى ضَمِّهِ الْمُحْدِثِينَا ^(٣)
وإِشَارِهِ الْيَوْمَ أَهْلَ الذُّنُوبِ وَرَفْعِ الْقِصَاصِ عَنِ الْقَاتِلِينَا

(١) وقمة صفين ص ٦٣ .

(٢) الصواب (يقرضونا) وحذف النون ضرورة شعرية قبيحة ليس لها وجه يجوزها .

(٣) يقصد بالحدثين قتلة عثمان . ينهم عليًا بإيوائهم . استعبه طلب منه العتبى (بضم
فكون) أي الرضا . وتستعمل كذلك للضد بمعنى أعطاه العتبى أي أَرْضَاه .

إذا سِيلَ عنه حداً شُبْهَةً وَعَمَى الجواب على السائلينا^(١)
فليس براضٍ ولا ساخطٍ ولا في النهاية ولا الأمرينا
ولا هو ساء ولا سره ولا بد من بعض ذا أن يكونا

وإذا تجاوزنا هذا اللون المتخلف الرجعي من الهجاء السيامي ، وجدنا شعراً
قد تخطى هذه النزعات القبلية ، ليصور حياة أرقى وتفكيراً أسمى من الناحية
الاجتماعية ، ونظرة أوسع وأفقاً أشمل من الناحية السياسية . فهو يترفع عن
الفكرة القبلية الضيقة ، ويناقش نظام الحكم في هذا الوطن الجديد الواسع ،
مهاجماً هذا أو ذاك من الطامعين في الملك ، معارضاً حقهم فيه . وهذا الشعر
يتميز بإدراكه للحياة الجديدة ، وتأثره بمثل الإسلام وأسلوب القرآن . فالشعراء
هنا لا يستمدون فخرهم وهجاءهم من قديمهم الجاهلي ، ولكنهم يستمدونه من
حياتهم الإسلامية ، وما لهم فيها من سابقة وفضل ، ويزنون الأمور بالمعايير
الإسلامية الجديدة . ومما يصور هذا اللون ، شعر سعيد بن عبد الرحمن بن
حسان ، في قتل مصعب لزوجة المختار بن عبيد الثقفي ، وهي بنت النعمان بن
بشير^(٢) :

أتى راكبٌ بالأمر ذي النِّبإِ العَجَبُ بقتل ابنة النعمان ذي الدين والحسب
بقتل فتاة ذاتِ دَلٍّ سَتِيرَةٍ مهذبة الأخلاق والحِمْمِ والنسب^(٣)
مُطَهَّرَةٍ من نسل قوم أكارمٍ من المؤثرين الخير في سالف الحقب

(١) إذا سِيلَ يقصد إذا سئل عن القصص من قتل عثمان . حدا شبهة ساقها .

(٢) الطبري سنة ٦٧

(٣) السّير : العفيف . الحِمْم (بكسر الحاء) الطيبة والسجية .

خليل النبي المصطفى ونصيره

- (١) وصاحبه في الحرب والنكب والكرب
 أثنى بان المُلحدين توافقوا على قتلها لأجنيبوا القتل والسلب
 فلا هنات آل الزبير معيشة
 وذاقوا لباس الذل والخوف والحرب
 كأنهم إذ أبرزوها وقُطعتْ بأسيا فمهم فازوا بمملكة العرب
 ألم تعجب الأقوام من قتل حرة من المحصنات الدين محمودة الأدب
 من الغافلات المؤمنات بريئة من الذم والبُهتان والشك والكذب
 علينا كتاب القتل والبأس واجب وهن العفاف في الجبال وفي الحجب
 على دين أجدادها وأبوة كرام مضت لم تُخز أهلها ولم تُرب
 من الخفريات لا خروج بذرية مُلايمة تبغي على جارها الجنب

(١) النكب « بفتح فسكون » المصيبة . وجمعها نكوب .

(٢) يدعرو عليهم أن يظفروا آثمين لا يتدنون ، يقتلون ويسلبون .

(٣) حربه حرباً « كنصر » سلبه ماله . وحرب « كعلم » حرباً « بفتح حين » اشتد غضبه .

(٤) أي أن دينها حصين منيع .

(٥) يشير إلى قوله تعالى في سورة النور (إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات

لعنوا في الدنيا والآخرة ، ولهم عذاب عظيم - النور ٢٣) .

(٦) الجبال جمع حبة (بالتحريك) . وهي ستر العروس داخل البيت .

وقوله هذا موافق قول عمر بن أبي ربيعة في قتلها :

إن من أعجب المجائب عندي قتل بيضاء حرة عطبول

قتلت هكذا على غير جرم إن لله درها من قتييل

كتب القتل والقتال علينا وعلى المحصنات جر الذبول

(٧) الملاومة أن يلوم كل طرف الطرف الآخر . الجار الجنب هو الملاصق للبيت .

ولا الجار ذي القربى ولم تذر ما خلفنا ولم تزدف يوماً بسوءٍ ولم تُحب
عجبتُ لها إذ كُفنت وهي حية ألا إن هذا الخطب من أعجب العجَب

فهو هنا لا يعبر مصعباً ضعفه أو خول أجداده ، مستعيناً على ذلك بتاريخهم
ومن أذلهم من القبائل وغلبهم ، ولكنه يعبره خروجه على الدين الذي يدعو
باسمه ، محتجاً عليه بأنه قد أباح دم مسلمة لا يحل له قتلها ، مستنداً إلى صنيع
قومها في الإسلام ، وسابقتهم في نصر النبي ﷺ . وهذا الشعر واضح التأثر
بالقرآن في ألفاظه وأسلوبه ومبادئه الأخلاقية ، في مثل قوله (وذاقوا لباس
الذل والخوف والحرب) ، وقوله (علينا كتاب القتل والبأس واجب) ، وقوله
(على جارها الجنب) ، ثم (ولا الجار ذي القربى) .

وبعض هذا الهجاء منصب على نظام الحكم ؛ مثل شعر عبدالله بن همام
السُّلوي في مبايعة معاوية لابنه يزيد ، وهو يهاجم نظام الوراثة الذي استحدثته
معاوية ، قائلاً إنه كسروية ليس من الإسلام في شيء ^(١) :

فإن تأتوا برملة أو بهند نباعها أميرة مؤمنينا ^(٢)
إذا مات كسرى قام كسرى نعدُّ ثلاثة متناسينا

(١) مروج الذهب ٢ : ٧٠ وعبدالله بن همام السُّلوي هو صاحب الأبيات الشهيرة التي
جمع فيها بين تهمة يزيد بالخلافة وتمزيته في وفاة أبيه معاوية ، التي يقول فيها :
أصبر يزيد فقد فارقت ذا مقة واذكر حياء الذي بالملك حاكاً
لا رءه أعظم في الأقسام نعرفه حكمل رزئك أو عقى كهباكا
وهي في العقد الفريد ٣ : ٢٥٤

(٢) رمة بنت معاوية ، وهند أمه . يسخر به ويقول كنا مستعدين لأن نباع بالخلافة لامرأة
ما دمت تريد ذلك وتفرضه على الناس .

فيا لهفالو أن لنا ألوفاً ولكن لا نعود كما عَيننا
 إذا لُصِرْ بُتْمُو حتى تعودوا بمَكَّةَ تَلْعَقُون بها السَّخِينا ^(١)
 حُشِينا الغَيْظَ حتى لو شربنا دماء بني أمية ما رَوينا
 لقد ضاعت رعيَّتكم وأنتم تصيدون الأرانبَ غافلينا

وبعضه منصب على أشخاص الحكام ، ونقد سياستهم ، واتهامهم بمجافاة الدين والخروج على الشرع فيما يفعلون ، مثل شعر جارية بن قدامة السعدي ، يندد بما زعمه من أن طلحة والزبير قد أخرجا عائشة أم المؤمنين للقتال ؛ وقد أمرها الله أن تقرر في بيتها ^(٢) :

صُنْتُمْ حِلَالَكُمْ وَقُدْتُمْ أَمَّكُمْ هَذَا لِعَمْرُكَ قَلَّةُ الْإِنصَافِ
 أَمَرْتُ بِحَجْرٍ ذِيوَهَا فِي بَيْتِهَا فَهَوَتْ تَشْقُ الْبَيْدَ بِالْإِيحَافِ
 غَرَضًا يُقَاتِلُ دُونَهَا أَبْنَاوَهَا بِالنَّبْلِ وَالْخَطِيفِ وَالْأَسِيفِ
 هَتَيْتُكَ بِطَلْحَةَ وَالزَّبِيرَ سُتُورَهَا هَذَا الْمُخْبِرُ عَنْهُمْ وَالْكَافِ

وقول عمرة بن بكرة ، يزعم أنها قد خرجت للقتال ، وحرضت على سفك الدماء ^(٣) :

(١) السخينة «كسبينة» طعام رقيق يتخذ من دقيق ، دون المعصيدة في الرقة وفوق الحساء . وهو لقب لقريش كانت تعبر به لانتخاضها إياه .

(٢) الطبري سنة ٣٦ . وحقيقة الأمر أن سيدتنا عائشة رضي الله عنها لم تخرج للقتال ولكنها خرجت هي وطلحة والزبير رضي الله عنهم جميعاً للإصلاح بين الناس . ولكن عصاة ابن سبأ قتل سيدنا عثمان في التي أقصدت عليهم عملهم بعد أن كاد يتم الصلح .

(٣) الطبري سنة ٣٦

يَا أَمْنًا أَعَقُّ أَمْ نَعَلَمُ وَالْأُمُّ تَغْذُو وَلَدًا وَتَرْحَمُ
أَلَا تَرَيْنَ كَمْ شَجَاعٍ يُكَلِّمُ وَتُخْتَلَى مِنْهُ يَدٌ وَمِعْصَمٌ !^(١)

وقول ابن أم كلاب لها ، يتهمها بتهييج الناس على عثمان ، إذ تقول - فيما زعم - (اقتلوا نعثلاً فإنه قد كفر) حتى إذا قتل واجتمع الناس على بيعة علي ، قامت تطالبه بدم عثمان ^(٢) :

مِنْكَ الْبِدَاءُ وَمِنْكَ الْغَيْرُ وَمِنْكَ الرِّيحُ وَمِنْكَ الْمَطَرُ
وَأَنْتِ أَمَرْتِ بِقَتْلِ الْإِمَامِ وَقُلْتِ لَنَا إِنَّهُ قَدْ كَفَرَ
فَهَبْنَا أَطْعَمْنَاكَ فِي قَتْلِهِ وَقَاتَلَهُ عِنْدَنَا مِنْ أَمْرِ
وَلَمْ يَسْقُطِ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِنَا وَلَمْ يَنْكَسِفْ شَمْسُنَا وَالْقَمَرُ
وَقَدْ بَايَعَ النَّاسُ ذَا تَدْرُؤٍ يُزِيلُ الشُّبَا وَيُقِيمُ الصَّعْرَ^(٣)
وَيَلْبَسُ لِلْحَرْبِ أَثْوَابَهَا وَمَا مِنْ وَفَى مِثْلَ مَنْ قَدْ عَدَرَ

هذا شعر يناقش المسائل على ضوء الدين ، مروياً فيها متذكراً . وهو يذهب في هذا التفكير إلى أبعد حدوده ، فلا يتحرج من أن ينقد شخصاً له حرمة

(١) اختل الخلتى جزء . والخل الرطب من النبات .

(٢) الطبري سنة ٣٦ . واتهامها بالتهيج على عثمان اتهام باطل ووجه السيئون فيأروجه من أباطيل ليثيروا بها الناس على الخليفة الشهيد رضي الله عنه . (راجع المواسم من أنقواص للقاضي أبي بكر بن العربي ص ٦٣ - ١٤٦ ط . السلفية بمصر) .

(٣) الدرء الدفع وذو تدرو قوي على مدافعة العدو . الشبا جمع شباة وهي المغرب ساعة تولد ، وإبرئها ، وحد كل شيء . والشبا كذلك المطحلب وهو أقرب للمقصود هنا أي يزِيلُ الشوائب . الصعر الميل في الحد وهو وصف للتكبر .

ومثله كام المؤمنين رضي الله عنها ، وأن يهاجها في قسوة وعنف .

ومن هذا النوع شعر أبي حرة - مولى ابن الزبير - في هجائه له ، زاعماً أنه قد انصرف عنه لبغله ، ساخراً مما كان لا يزال يقوله للناس : إنما بطني شبر ، فما عسى أن يسع ذلك من الدنيا ، وأنا العائد بالبيت (١) :

ما زال في سورة الأعراف يقرؤها حتى فوادي مثل الحز في اللين
لو كان بطئك شبراً قد شبعنا وقد أفضلت فضلاً كثيراً للمساكين
إن امرءاً كنت مولاه فضيّعني يرجو الفلاح لعمري حق مغبون
وكذلك شعر الضحّاك بن فيروز الديلمي فيه :

تخبرنا أن سوف تكفيك قبضة وبطنك شبراً أو أقل من الشبر
وأنت إذا ما نلت شيئاً قضمته كما قضمت نار الغضى خطب السدر
فلو كنت تجزي أو تئيب بنعمة قريباً لردتلك العطوف على عمرو (٢)
وشعر أبي الطغّل عامر بن وائلة ، يؤيد ابني عباس (٣) في دعوتها للعالمين

(١) مروج الذهب ٢ : ٩٩ وينبغي للقارىء أن يلاحظ أن هذه القطعة والقطعة التالية لشاعرين غير عربيين من الموالي .

(٢) عمرو بن الزبير أخوه وقد كان خارجاً عليه يحاربه مع جند الشام . خرج في جيش الأمويين لحربه في أيام يزيد قاتلهم ، وظفر به أخوه عبدالله بن الزبير فحبسه . ولأن يخرج كل يوم ليقص منه الذين ظلمهم من قبل . فلم يزل يضرب بالسياط اقتصاصاً للذين ضربهم إلا من عفا عنه . وكان عبد الله إذا ضربه بالسياط اقتصاصاً لرجل تركه أياماً حتى يبرأ ، ثم يضربه لآخر . ولم يزل هذا شأنه حتى مات (أنساب الأشراف للبلاذري ٤ : ٢٤ - ٢٥ من القسم الثاني) .

(٣) ما عبد الله بن عباس ، مات بالطائف في ولاية عبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عباس ، كان والياً لمعي على العين حتى عزله معاوية .

ويجئ ابن الزبير لتضييقه عليها ، ومنع الناس من لقاءها والجلوس إليها ^(١) :

لَا دَرَّ دَرُّ اللَّيَالِي كَيْفَ تُضْحِكُنَا مِنْهَا خُطُوبٌ أَعَاجِيبٌ وَتُبْكِينَا
كُنَّا نَحْيِي ابْنَ عَبَّاسٍ فَيُقْبِسُنَا فَضْلًا وَيُكْسِبُنَا أَجْرًا وَيَهْدِينَا
وَلَا يَزَالُ عَيْدُ اللَّهِ مَرْتَعَةً جِفَانُهُ مَطْعِمًا ضَيْفًا وَمَسْكِينَا
فَالْبِرُّ وَالْدِّينُ وَالْدُنْيَا بَدَارُهَا نَنَالُ مِنْهَا الَّذِي نَبْغِي إِذَا شِينَا
إِنَّ النَّبِيَّ هُوَ النُّورُ الَّذِي كُشِفَتْ بِهِ عَمَائَاتُ بَاقِينَا وَمَاضِينَا
وَرَهْطُهُ عِصْمَةٌ فِي دِينِنَا وَلَهُمْ فَضْلٌ عَلَيْنَا وَحَقٌّ وَاجِبٌ فِينَا
وَلَسْتَ - فَاعْلَمْ - أَوْلَانَا بِهِمْ رَحِمًا يَا ابْنَ الزَّبِيرِ وَلَا أَوْلَى بِهِ دِينَا
فَقِيمَ تَمْنَعُهُمْ مِنَّا وَتَمْنَعُنَا مِنْهُمْ وَتَوْذِيهِمْ فِينَا وَتَوْذِينَا
لَنْ يُؤْتِيَ اللَّهُ مَنْ أَخْزَى بِبَغْضِهِمْ فِي الدِّينِ عِزًّا وَلَا فِي الْأَرْضِ تَمْكِينَا

وكذلك شعر أنس بن أبي أنس بن زُتَيْم ^(٢) فيه ، حين تزوج أخوه مصعب عائشة بنت طلحة ، ودفع صداقها ألف ألف درهم ^(٣) :

(١) خزنة الأمب ٤ : ٣٠

(٢) من كنانة بن الدول ، وأبوه أبو أنس (بضم الهمزة) شاعر شريف . وهو القائل في رسول الله صلى الله عليه وسلم :

وما حملت من ناقة فوق رحلها أبر وأوفى ذمة من محمد

وم أنس سارية بن زُيم ، الذي ناداه سيدنا عمر من فوق المنبر بالمدينة صالِحاً : يَا سَارِيَّةُ !
الجليل الجليل .

(٣) الشعر والشعراء ٢٨٤

أبلغ أمير المؤمنين رسالة من ناصح لك لا يريد خداعا
 بُضْعُ الفتاة بألف ألف درهم . وتبيت سادات الجنود جياعا ^(١)
 لو لأبي حفص أقول مقالتي وأقص شأن حديثكم لارتعا ^(٢)
 وكذلك شعر كثير فيه ، وقد سجن الحسن بن محمد بن الحنفية ، ومعه
 خمسة عشر رجلا من بني هاشم ^(٣) :

تُخَبَّرُ من لا قيتَ أنك عائدٌ بل العائدُ المظلومُ في سجنِ عارم ^(٤)
 ومن يلقَ هذا الشيخَ بالخيفِ من منى من الناس يعلم أنه غيرُ ظالم
 سمى النبي المصطفى وابنُ عمه وفكَّكُ أغلال وقاضي مَغارم
 أبى فهو لا يشري هدى بضلالة ولا يتقي في الله لومة لائم
 ونحن بحمد الله نتلو كتابه حلولا بهذا الخيفِ خيفِ المحارم
 بحيث الحمام آمنُ الرُّوع ساكن وحيث العدو كالصديق المسالم
 فما فرَحُ الدنيا بيباق لأهله ولا شدَّةُ البلوى بضربة لازم

(١) البضع (الفتح) القطع والشوق ، والتزوج (وبالضم) مهر النكاح .

(٢) أبو حفص كنية عمر بن الخطاب .

(٣) الكامل للمبرد ٢ : ١٦٥ ، الأغاني ٩ : ١٥ ط . دار الكتب المصرية .

(٤) سجن عارم حبس مشهور كان موحشا مظلما . حبس فيه ابن الزبير الحسن بن محمد بن الحنفية . فاعمل الحيلة حتى تخلص منه ، وتصف الطريق على الجبال حتى أتى منى وبها أبوه محمد بن الحنفية .

ومن هذا النوع شعر عُنْبَةَ الأَسَدِي في مجاء معاوية ، يتهمه بالشعر في جمع المال ، وإفساد أمر الناس ، بتأمين الأراذل والعبيد (١) :

معاويَ إِنَّا بَشَرٌ فَأَسْجِجْ فلسنا بالجبال ولا الحديد (٢)
أَكَلْتُمْ أَرْضَنَا وَجَذَذْتُمُوهَا فهل من قائم أو من حصيد
فَهَبْنَا أُمَّةً هَلَكْتَ ضِيَاعاً يزيدُ أميرُها وأبو يزيد
أَنْطَمَعُ بِالْخُلُودِ إِذَا هَلَكْنَا وليس لنا ولا لك من خلود
ذَرُّوا خَوَلَ الْخِلَافَةِ وَاسْتَقِيمُوا وتأمينَ الأراذل والعبيد

وشعر رجل من الأنصار ، يتهمه بأنه يتخذ دم عثمان ستاراً ، يخفي وراءه طلعه في الخلافة (٣) :

معاوي إن الحقَّ أبلغُ واضحُ وليس بما رَبَّضْتَ أَنْتَ وَلَا عَمْرُو
نَصَبْتَ ابْنَ عَفَانَ لَنَا الْيَوْمَ خُدْعَةً كما نَصَبَ الشَّيْخَانِ إِذْ زُخِرَ فِي الْأَمْرِ (٤)
فهذا كهذاكَ الْبَلَاءُ حَذُوَ نَعْلِهِ سواءَ كَرَّ قَرَارٍ يُغَرُّ بِهِ السَّفَرُ (٥)
رميتَ علياً بالذي لَا يَضُرُّهُ وإن عَظُمَتْ فِيهِ الْمَكِيدَةُ وَالْمَكْرُ

(١) المقد الفريد ٦ : ١٦٨

(٢) سجع الخد (كترج) سجعاً وسجاجة سهل ولان وطال في اعتدال وقلة لحم .

(٣) رقعة صفين ٧١

(٤) الشَّيْخَانِ يقصد بها طلعة والزبير .

(٥) حذا النمل حذواً وحذاء قدرها وقطعها . وحذا النمل بالنمل قدرها عليها .

الرقراق السراب .

وما ذنبه إن نالَ عثمانَ معشرُ أتوه من الأحياءِ يجمعهم مضرُ
فشار إليه المسلمون بيته علانية ما كان فيها لهم قسر^(١)
فبايعه الشيخان ثم تحملا إلى العمرة العظمى وباطنهما الغدر
فكان الذي قد كان مما اقتصاصه رَجِيعُ فِيا لله ما أحدثَ الدهرُ^(٢)
فما أنتم والنصرَ منا وأنتمَ بعيثاً حروبٍ ما يبوخُ لها الجمرُ^(٣)
وما أنتم الله درُّ أبيكمَا وذكركما الشورى وقد فلجَ الفجرُ

وبعض هذا المجهاء السيامي صورة من الاضطراب والبلبله التي سادت هذه
الفترة بانتشار الأراجيف التي كانت تأخذ الناس من كل جانب ، فيما يترامى
إلى سمعهم من الأخبار المتناقضة والشائعات المتواترة ، حتى فقد كثير منهم ثقته
بقادة الأمة وزعمائها على إطلاقهم ، وحتى ارتد بعضهم إلى جاهليته ، يتصور
المعركة معركة قبلية تدور بين سادة قریش وشيوخها .

فمن الشعر الذي يصور ضيق الناس بما آل إليه أمرهم من اضطراب وخلاف ،
قول الصائغان المبيدي^(٤) :

(١) الضمير في (إليه) لمي .

(٢) اقتصاصه حكايته . رجيع معاد .

(٣) الخطاب لمعاوية وعمر بن الماص . وكنا قد بمنا إلى أهل الحجاز يقولان إنها يطلبان
من علي أن يسلم قتلة عثمان ويخرجهم من جنده ، ثم يكون الأمر بعد ذلك شورى كما جعله
عمر رضي الله عنه .

(٤) الكامل للبهرد ٢ : ١١٨ المبيدي نسبة لعبد القيس واسمه قثم (بضم ثم فتح) بن خبيبة
(بفتح ثم كسر ثم ياء مشددة) .

أرى أمةً شَهَرَتْ سِيفَهَا وقد زِيدَ في سوطها الأَصْبَحِي^(١)
 بِنَجْدِيَّةٍ وَحَرُورِيَّةٍ وأَزْرَقَ يَدْعُو إلى أَزْرَقِي^(٢)
 فَمِلَّتْنَا أَنَا الْمُسْلِمُونَ على دينِ صِدِّيقِنَا وَالنَّبِيِّ
 وَمِنْهُ :

أَشَابَ الصَّغِيرَ وَأَفْنَى الْكَبِيرِ كَرُّ الْغَدَاةِ وَمَرُّ الْعَشِيِّ
 إِذَا لَيْلَةٌ هَرَمَتْ يَوْمَهَا أَتَى بَعْدَ ذَلِكَ يَوْمٌ فَنِي
 نَرُوحُ وَنَقْدُو لِحَاجَاتِنَا وَحَاجَةٌ مِنْ عَاشٍ لَا تَنْقُضِي
 تَمُوتُ مَعَ الْمَرُءِ حَاجَاتُهُ وَتَبْقَى لَهُ حَاجَةٌ مَا بَقِيَ
 وَمِنْهُ شِعْرُ حَنْظَلَةَ الْكَاتِبِ فِي فِتْنَةِ عَثْمَانَ^(٣) :

عَجِبْتُ لِمَا يَخُوضُ النَّاسُ فِيهِ يَرُومُونَ الْخِلَافَةَ أَنْ تَزُولَا
 وَلَوْ زَالَتْ لَزَالَ الْخَيْرُ عَنْهُمْ وَلَا قُوا بَعْدَهَا ذُلًّا ذَلِيلَا
 وَكَانُوا كَالْيَهُودِ أَوْ النَّصَارَى سِوَا كُلِّهِمْ ضَلُّوا السَّبِيلَا
 وَقَدْ غَلَبَ الْحُزْنَ وَالرَّوَاءَ عَلَى هِجَاءِ الشِّيمَةِ ، لِكَثْرَةِ مَنْ قَتَلَ مِنْهُمْ ، وَلَشِدَّةِ

(١) الأصْبَحِي السُّوْطُ نِسْبَةٌ إِلَى ذِي أَصْبَحٍ مِنْ مُلُوكِ الْيَمَنِ ، وَهُوَ الْجَدُّ الْأَعْلَى لِمَالِكِ بْنِ أُنْسٍ الْقَلْبِيِّ ، يُضِي اللَّهُ عَنْهُ .

(٢) النَّجْدِيَّةُ وَالْأَزْرَاقَةُ فِرْقَتَانِ مِنَ الْخَوَارِجِ ، وَالْحَرُورِيَّةُ اسْمٌ لِلْخَوَارِجِ ، سَمَوْا بِذَلِكَ لِانْجِيَاظِهِمْ إِلَى حَرُورَاءَ بَعْدَ صُلَيْفٍ .

(٣) الطَّبَرِيُّ حَوَادِثُ سَنَةِ ٣٥

ما وقع عليهم من ظلم واضطهاد ، مثل شعر مند ابنة زيد بن مخزومة الأنصارية ،
في مقتل حُجْر بن عدي (١) :

تَبَصَّرْ هَل تَرَى حُجْرًا يَسِيرُ	تَرَفَعُ أَيُّهَا الْقَمَرُ الْمُنِيرُ
لِيَقْتُلَهُ كَمَا زَعَمَ الْأَمِيرُ ^(٢)	يَسِيرُ إِلَى مَعَاوِيَةَ بْنِ حَرْبٍ
وَطَابَ لَهَا الْخَوَزَنْقُ وَالسِّدِيرُ	تَجَبَّرَتِ الْجَبَابِرُ بَعْدَ حُجْرٍ
كَانَ لَمْ يَحِيهَا مُزْنٌ مَطِيرُ	وَأَصْبَحَتِ الْبِلَادُ لَهَا مُحُولًا
تَلَقَّتْكَ السَّلَامَةُ وَالسَّرُورُ	أَلَا يَا حُجْرُ حُجْرَ بَنِي عَدِيٍّ
وَشِخَا فِي دِمَشْقَ لَهُ زَيْرُ	أَخَافُ عَلَيْكَ مَا أَرْدَى عَدِيًّا
لَهُ مِنْ شَرٍّ أُمْتُهُ وَزِيرُ ^(٣)	يَرَى قَتْلَ الْخِيَارِ عَلَيْهِ حَقًّا
وَلَمْ يُنَحَرْ كَمَا نَحِرَ الْبَعِيرُ ^(٤)	أَلَا يَا لَيْتَ حُجْرًا مَاتَ مَوْتًا
مِنَ الدُّنْيَا إِلَى هُلْكَ يَصِيرُ	فَإِنْ يَهْلِكُ فَكُلُّ زَعِيمٍ قَوْمُ

ومما يصور هذا الهجاء الحزين ، شعر امرأة من بني عبد المطلب في
قتل سيدنا الحسين رضي الله عنه (٥) :

ماذا تقولون إن قال النبي لكم ماذا فعلتم وأنتم آخرُ الأمم

(١) الطبري حوادث سنة ٥١

(٢ ، ٣) الأمير المشار إليه هنا هو زياد . وكذلك الوزير في البيت التالي .

(٤) يفهم من هذا البيت أن حُجْرًا قتل . بينما يظهر الشاعر خوفه من أن يقتل في البيتين

السابقين . (٥) الطبري سنة ٦٠

بِعِثْرَتِي وَبِأَهْلِي بَعْدَ مُفْتَقِدِي مِنْهُمْ أُسَارَى وَقَتْلَى ضُرْجُوا بَدَمٍ^(١)
 مَا كَانَ هَذَا جَزَائِي إِذْ نَصَحْتُ لَكُمْ أَنْ تَخْلُفُونِي بِسَوْءٍ فِي ذَوِي رَحِمِي

وتمثلت الفدائية والإخلاص للبدأ إلى حد الموت والفناء في شعر الخوارج فكان هجاؤهم السياسي غخطاً بالحماسة ، في الوقت الذي نرى فيه هجاء الشيعة غخطاً بالرثاء . وكان شعورهم صورة صادقة لجرأتهم النادرة ، وتطرفهم الشديد في فهم الدين ، وإيمانهم العميق بهذه الآراء المتطرفة .

يقول قطري بن الفجاءة ، غاطباً أبا خالد القناني - وهو من قَعَد الخوارج^(٢) :

أَبَا خَالِدِ يَا أَنْفَرُ فَلَسْتُ بِخَالِدٍ وَمَا جَعَلَ الرَّحْمَنُ عُذْرًا لِقَاعِدِ
 أَتَزْعِمُ أَنَّ الْخَارِجِيَّ عَلَى الْهَدَى وَأَنْتَ مَقِيمٌ بَيْنَ لَصٍّ وَجَاهِدِ
 وَيَقُولُ عَيْسَى بْنُ فَاتِكٍ (مِنْ بَنِي تَيْمِ اللَّاتِ بْنِ ثَعْلَبَةَ) فِي وَقْعَةِ آسَكٍ ، مَتَهَكِّمًا
 يَحْمِيشُ بَنِي أُمَيَّةٍ^(٣) :

فَلَمَّا أَصْبَحُوا صَلُّوا وَقَامُوا إِلَى الْجُرْدِ الْعِتَاقِ مُسَوِّمِينَ^(٤)

(١) العترة ولد الرجل وذريته وعقبه ، وقيل رطله وعشيرته الأدون .

(٢) الكامل ٣ : ١٠٧ ، والقعد هم الذين يرون رأي الخوارج ولكنهم لا يخرجون معهم للقتال .

(٣) الكامل ٢ : ١٥٧ قال ذلك في أسلم بن زُرْعَةَ (بضم فسكون) قائد عبيد الله بن زياد

لقتال أبي بلال مرداس بن أديّة (بضم ثم فتح ثم ياء مشددة مفتوحة) . وقد كان الفلاني يسخرون منه لفراره من مرداس كلما مر بهم فيصيحون به : أُوَيْلَ بِلَالٍ وَرَاهِكْ ! فكانت شرطة ابن زياد يحمونهم منهم .

(٤) مسومين مملين ، والسومة العلامة يتخذها الفارس في الحرب ليعرف بها من

يعين الناس .

فلما استجمعوا حملوا عليهم فظلّ ذوو الجعائل يُقتلونا^(١)
 بقيّة يومهم حتى أتاها سواد الليل فيه يُراوِغونا
 يقول بصيرهم لما أتاها بأنّ القوم ولّوا هاريننا
 ألفا مؤمن فيما زعمتم ويقتلهم بأسك أربعونا
 كذبتهم ليس ذاك كما زعمتم ولكنّ الخوارج مؤمنونا
 هم الفئة القليلة غير شكّ على الفئة الكثيرة يُنصروننا^(٢)

وقال معاوية بن جُوعين، يحض الناس على الخروج، وكان الخوارج قد اجتمعوا إلى المستورد بن علفقة، عازمين على الخروج سنة ٤٣هـ، بعد أن اجتمع الأمر لمعاوية، ثم بلغهم أن المغيرة بن شعبه يكيد لهم، وأنه قد أخذ العهد على كل قبيلة أن تنفي من كان بينهم من الخوارج^(٣) :

ألا أيها الشارون قدحان لامرئ شري نفسه لله أن يتبرّحلا^(٤)
 اقتم بدار الحاطئين جهالة وكل امرئ منكم يصاد ليقتلا
 فشدوا على القوم العداة فإنما إقامتكم للذبح رأيا مضلا
 ألا فاقصدوا يا قوم للغاية التي إذا ذكرت كانت أبر وأعدلا^(٥)

(١) الجعائل جمع جمالة (كسحابة) وهي ما تجعل للمعارب من أجر. يصف جنود بني أمية بأنهم ماجورون لا يحاربون عن عقيدة .

(٢) يشير إلى قوله تعالى (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله) .

(٣) الطبري سنة ٤٣

(٤) الشراة اسم الخوارج أي الذين باعوا أنفسهم لله . وهو مأخوذ من قوله تعالى (ومن الناس

من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله . والله وموف بالصواب - البقرة ٢٠٧) .

(٥) يقصد بهذه الغاية جهاد أهل الباطل ، فهو عمل أدنى إلى البر والعدل .

فيا ليتني فيكم على ظهر سابحٍ شديدٍ القصيرِ دارِ غيرِ أعزلاً^(١)
ويا ليتني فيكم أعادي عدوكم فيسقيني كأس النيةِ أولاً
يعز عليّ أن تخافوا وتطردوا ولما أجردني المحلّين منصلاً^(٢)
ولما يفرق جمعهم كلُّ ماجدٍ إذا قلتُ قد ولى وأدبراً أقبلاً^(٣)
مُشيحاً بنصل السيفِ في خمسِ الوغى

يرى الصبرَ في بعضِ المَواطِن أمثلاً^(٤)
وعزّ عليّ أن تضاموا وتنفصوا وأصبح ذا بثٍ أسيراً مكبلاً
ولو أنني فيكم وقد قصدوا لكم أثرتُ إذا بين الفريقين قسطلا
فيا ربُّ جَمع قد فلتتُ وغارةٍ شهدتُ وقرنٍ قد تركتُ مجدلاً^(٥)

ومما يصور إخلاصهم العميق لمبادئهم ، وزهدهم في الحياة وزخرفها ، ما
كتب به قطري إلى سبرة بن الجعد الحارجي ، وكان سمير الحجاج ، ولم يكن
يعرف أمره^(٦) :

(١) القصير أسفل الأضلاع أو آخر ضلع في الجنب ، وأصل العنق .

(٢) المحل المنتهك للحرم والذي لا عهد له . يقصد الأمويين .

(٣) يصفه بأنه كان يكر ويفر في قتاله .

(٤) حمس في القتال (كعلم) حساً اشتد وصلب . أشاح في الأمر جد واجتهد .

(٥) القسطل الفبار . فل السيف فتقلل ثله فتثلم وأصبح كليلاً ، وفل القوم هزمهم . جدله
وجندله رماء بالأرض .

(٦) مروج الذهب ٢ : ١٣٨

لَشْتَانِ مَا بَيْنَ ابْنِ جَعْفَرٍ وَبَيْنَنَا
 نَجَاهِدُ فِرْسَانَ الْمُهَلَّبِ كُلَّنَا
 وَرَاحَ يُجْرُ الْحَزْرُ عِنْدَ أَمِيرِهِ
 أَبَا الْجَعْدِ أَيْنَ الْعِلْمِ وَالْحِلْمِ وَالنُّهَى
 أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَوْتَ لَا شَكَّ تَأْزِلُ
 حِفَاةَ عِرَاقٍ وَالتَّرَابُ عَلَيْهِمْ
 فَإِنَّ الَّذِي قَدْ نَلْتَ يَفْنَى وَإِنَّمَا
 فَرَا جَعُ أَبَا جَعْفَرٍ وَلَاتَكَ مُغْضِيَا
 وَتَبْ تَوْبَةً تُهْدِي إِلَيْكَ شَهَادَةً
 وَسِرَّ نَحُونَا تَلْقَى الْجِهَادَ غَنِيمَةً
 هِيَ الْغَايَةُ الْقَصْوَى الرَّغِيبُ ثَوَابُهَا
 إِذَا نَحْنُ رَحْنَانِي الْحَدِيدِ الْمَظَاهِرِ (١)
 صَبُورٌ عَلَى وَقْعِ السُّيُوفِ الْبَوَاتِرِ
 أَمِيرٌ بِتَقْوَى رَبِّهِ غَيْرُ أَمَرٍ
 وَمِيرَاثُ آبَاءِ كِرَامِ الْعُنَاصِرِ
 وَلَا بَدَمِنْ بَعَثِ الْأُولَى فِي الْمَقَابِرِ
 فَمِنْ بَيْنِ ذِي رِبْحٍ وَآخِرِ خَاسِرِ
 حَيَاتِكَ فِي الدُّنْيَا كَوَقْعَةِ طَائِرٍ (٢)
 عَلَى ظُلْمٍ أَعَشَتْ جَمِيعَ النَّوَاطِرِ
 فَإِنَّكَ ذُو ذَنْبٍ وَلَسْتَ بِكَافِرٍ (٣)
 تُفِدُّكَ ابْتِيَاعًا رَاجِحًا غَيْرَ خَاسِرٍ (٤)
 إِذَا نَالَ فِي الدُّنْيَا الْغِنَى كُلُّ تَاجِرٍ

(١) ظاهره عارونه . وظاهره بين توبين طابق بينهما . الحديد المظاهر الذي يظاهر بعضه بعضاً كأنه يلبس دوعين .

(٢) أي أنها زائلة لا تدوم ، فلا بد للطائر أن يقع .

(٣) في هذا البيت إشارة إلى ما يرى للخواارج من تكفير مرتكب الكبائر .

(٤) يقصد أن الذي يبيع حياته يشترى بها الجنة وذلك قوله تعالى (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حَقاً في التوراة والإنجيل والقرآن . ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به . وذلك هو الفوز العظيم - التوبة ١١١) .

ويقرأ سيرة الشعر فيبكي لشدة تأثره ، ويأخذ سلاحه لاحقاً بقطري .
وفي ذلك يقول :

فَمَنْ مُبْلِغُ الْحَبَّاجِ أَنْ سَمِيرَهُ قَلَّا كُلَّ دِينٍ غَيْرَ دِينِ الْخَوَارِجِ
رَأَى النَّاسَ إِلَّا مَنْ رَأَى مِثْلَ رَأْيِهِ مَلَاعِينَ تَرَاكِينِ قَصْدَ الْمَخَارِجِ^(١)
فَأَقْبَلْتُ نَحْوَ اللَّهِ بِاللَّهِ وَاتَّقَا وَمَا كُرْبَتِي غَيْرَ الْإِلَهِ بِفَارِجِ
إِلَى عَصْبَةٍ أَمَّا النَّهَارُ فَلَهُمْ هُمُ الْأُسْدُ أَسَدُ الْغِيلِ عِنْدَ التَّهَائِجِ^(٢)
وَأَمَّا إِذَا مَا اللَّيْلُ جَنَّ فَلَهُمْ قِيَامٌ بِأَنْوَاحِ النِّسَاءِ الْنَوَاشِجِ^(٣)
يُنَادُونَ لِلتَّحْكِيمِ تَاللهِ لَهُمْ رَأَوْا حُكْمَ عَمْرٍو كَالرَّيَّاحِ الْهَوَاشِجِ
وَحَكَمَ ابْنُ قَيْسٍ مِثْلَ ذَلِكَ فَأَعَصَمُوا بِجَبَلٍ شَدِيدِ الْمَتَنِ لَيْسَ بِنَاهِجِ^(٤)

ولدينا بعد هذا هجاء لا يتصل بأصول الحكم ، ولا يصور ميولاً حزبية
معينة ، ولكنه يتصل بالولاء في الأقاليم ، يعارض سياستهم ، وينقد تصرفاتهم .
وهذا اللون من الهجاء السياسي يختلط بالهجاء الاجتماعي وهو من أمتع ألوان

(١) الخارج السبل .

(٢) الغيل (بكسر الفين) الشجر الكثيف الملتف ، وموضع الأسد . التهائج عندما يتهايج
القوم أي يتواثبون للقتال .

(٣) نشج الباكي (كضرب) نشيجاً غص بالبكاء في حلقه من غير انتحاب .

(٤) كان بما أنكر الخوارج على قبوله التحكيم حين ندب أبا موسى بن قيس الأشعري
ونفس معاوية عمرو بن العاص . وقد قالوا له فيما جرى بينه وبينهم من نقاش « لم حكمت الحكيم؟
فإن كنت في شك من خلافتك فغيرك أولى بالشك » وجلتهم المشهورة في ذلك (لا حكم إلا لله) .
نجم الثوب والحبل . (كضرب وقطع) بلي . ويقصد بالحبل المتين الذي اعتصموا به كتاب الله .

الشعر السياسي ، وأكثرها دقة ووضوحاً ، في الكشف عن معايب هذا المجتمع الذي تعقدت فيه الحياة ، وتعارضت فيه الآراء والأهواء . وهو لا يصور معارضة حزبية ، ولكنه يصور سخطاً على النظم الاجتماعية القائمة . فقد تدفقت الأموال على الناس ، وبدأت الفوارق الاجتماعية تتسع بينهم شيئاً فشيئاً ، بعد أن كانوا قريباً من قريب ، فارتفع بعضهم من صفوف العامة إلى طبقة الحكام . وكشفت السلطة عن ضعف ضعاف النفوس ، فقال بعضهم إلى الترف من ناحية ، وأثار هذا الترف حقد بعض السياسيين من ناحية أخرى . كما بدا جفاء الأعراب ونفورهم من السلطة وضيقتهم بقيودها فبدأوا وصلوا من شعر يشكو فيه بعض شعرائهم من عمال الزكاة ، وبما يلحقهم من ظلم صحيح أو مزعوم ، ببالغون في تصويره . وقد نتج عن اتساع الأعمال أن اتخذ كثير من العمال الحجاب ، فصار العربي لا يصل إلى الحاكم إلا بعد استئذان ، وربما دفع عن حاجته فلم يبلغ إليه ؛ فكان ذلك من أثقل الأشياء على نفس العربي ، الذي لم يألّف مظاهر الملك والسلطان ، والذي كان يدخل على الخليفة نفسه قبل ذلك حين يشاء ، ويكلمه في غير كلفة . وربما تأثر بعض الولاة بالمعصية ، فولوا أعمال الدولة قوماً ليسوا من أهل الكفاية . هذا يقود الجيوش وهو جبان لا يصلح لقتال ، وذاك يلي أمور الناس وهو منافق يصطنع الرياء ، يظهر عليهم في ثياب النسك والورع ، فإذا خلا إلى نفسه كان أفسق خلق الله . وأحس الناس ثقل هذه النظم الإدارية الجديدة ، التي جعلتهم طبقتين ، تتميز إحداها من الأخرى تميزاً واضحاً : طبقة الحكام وطبقة المحكومين . ولم يكن للحكام بد - بعد هذه الفتن الطويلة ، التي فقد فيها الناس روح النظام واحترام القانون - من أن يأخذوا الناس بالعقوبات الرادعة ، فاستمرت أفعالهم بالحزم الذي بلغ حد القسوة في بعض الأحيان . واستعدّوا أنواعاً من التعذيب والتنكيل والتشهير ، ليس للناس بها عهد . وكان الأعراب وأصحاب الأغراض والأهواء من مثيري الفتن ومن الفساق والماجنين أكثر الناس ضيقاً بحكم الذين عرفوا بالحزم والاضبط من الولاة والعمال .

انظر إلى هذه الصورة التي يقدمها يحيى بن نوفل الحميري - وكان شاعراً كثير الهجاء لا يكاد يمدح أحداً - يهجو أبان بن الوليد البجلي وأخاه بلالاً . حين ولما خالده القسري بعض الأعمال . كيف يصور ما ينغمس فيه العمال من ترف . وما يحيطون به أنفسهم من مظاهر الجاه . بعد عيش خشن ، ورزق ضيق ضنين (١) :

تقولُ هُشَيْمَةُ فيما تقول	مَلَّتَ الحِياةَ أبا مَعْمَرٍ ؟
وما ليَ أن لا أَمَلُ الحِياةَ	وهذا بلالٌ على النبر !
وهذا أخوه يقودُ الجيوش	عظيم السَّرادق والعسكر !
وأما ابنُ سَلَمَى فشيبهُ الفتاة	رُحُوحٌ بَكورٌ على المِجَمَرِ (٢)
دَبُوبُ العِشاءِ إذا أَطْمَعَتْ	حليلةٌ كلُّ فتى مُغَوَّرِ (٣)
وأما ابنُ أشعث ذوالثُرَّهات	وذو الكذب والزور والمنكر
فلو قيل عَبْدٌ شرته التِّجَارُ	سَيِّئٌ من الروم لم يُنكَر
وهذا ابنُ ما هان بعد الشَّقاء	وبعد الخياطة في كَسَكِرِ (٤)
يروحُ يُسامي ملوكَ العراق	وقد عاش دهرًا ولم يُذكَر

(١) الشعر والشعراء ٢٨٦

(٢) الجمر والجمرة الرعاء الذي يوضع فيه الجمر والبخور . يقول لا م له إلا التطيب بالبخور وهو شأن النساء .

(٣) كل ما طلبته فأمكنك فقد أعورك وأعورك لك . فالقصد بالفنى المور هنا الذى يمكن من بيته وزوجته بنقلته أو غيابه عنها .

(٤) كسكر كورة قصبتها واسط .

يروحُ إذا راح في المُعْسرِين وإن أُيسرَ النَّاسُ لم يُوسر
 وأما المَكْحَلُ وهبُ الهَنَاءِ فلو قُيدَ الدهرَ لم يصبر
 عن الزَّفَنِ والصَّنَجِ والمُسِمِعاتِ وقرعِ القَوَاقِيزِ والمِزْهَرِ^(١)
 ولا عن هَنَاتٍ له لو ظَهَرَ نَ فماتَ عليهِنَّ لم يُقَبَّرِ^(٢)
 وهذا ابنُ زَيْدٍ له جُبَّةٌ تفوحُ من المِسكِ والعَنْبَرِ
 وهذا أَبَانُ بُنَيِّ الوَلِيدِ خطيبٌ إذا قام لم يَحْصُرِ
 أَبْعَدَ الدَّوَاةِ وبعد الطُّرُوسِ وبعد انكبابٍ على الدَّفْتَرِ !
 ولو حَلَّ ضَيْفٌ به لم يَزِدْهُ على الأَيِّضِينَ مع الصَّعْتَرِ^(٣)

وانظر قوله في بلال بن أبي بُرْدَةَ الأشعري، وقد زعم أنه كان مدمناً للشراب
 لا يصبر عنه ليلاً ولا نهاراً^(٤) :

وأما بلالٌ فذاك الذي يَمِيلُ الشرابُ به حيثُ مالا
 يبيتُ يَمُصُّ عتيقَ الشرابِ كَمَصُ الوَلِيدِ يخافُ الفِصَالَا
 وَيُصْبِحُ مضطرباً ناعساً تخالُ من السُّكْرِ فيه احوِلاً لا

(١) الزفن الرقص ، القواقيز جمع قاقوزة وهي إناة من آنية الشرب .

(٢) أى لم يدفن في قبر ، كأنه يقتل أو يجرم ، ولا يدفن مع المسلمين .

(٣) الأبيضان الحُبز والملح . والصعتر ضرب من النبات وهو الذى نسميه الآن « زعتر » .

(٤) العقد الفريد ٨ : ٦٤

ويعشي ضعيفاً كشبي الزئيف تحالُ به حين يعشي شكالا^(١)

وانظر إليه كيف يصور بلالاً هذا ، فيزعم أنه منافق يظهر النسك والورع ويخدع الناس بتلاوة القرآن ، وبهذه العلامة التي اتخذها في جبهته ، كأنها من السجود وإدمان الصلاة^(٢) :

أبلالُ لئي رابني من شأنيكم قولُ تزيينه وفعلُ منكر
مالي أراك إذا أردتَ خيانةً جعل السجودُ بحراً وجهك يظهر
متخشعاً طيناً لكل عزيمة تتلوا القرآن وأنت ذئبٌ أغبر^(٣)
وفيه يقول متشفياً ، وقد أصيب بالجذام :

فأما بلالُ فإنَّ الجذا م جَلَل ما جازَ منه الوَريدا
فأنقع في السمنِ أوصاله كما أنقع الآدُمون الثريدا^(٤)
فأكسدَ سمنَ حجارِ العرا ق فينا وأصبح فينا كسيدا

ثم انظر إلى ما يقول هذا الشاعر الكثير الهجاء ، الذي لا يكاد يمدح أحداً ،

(١) الزئيف الذي ذهب عقله والسكران . والشكال الحبل الذي تشد به قوائم الدابة إذا قيدت .

(٢) الشعر والشعراء ٢٨٧

(٣) الطين « بفتح ثم كسر » الفطن الحاذق العالم بكل شيء .

(٤) آدم الحبر خلطه بطيخ أو حساء أو شيء يسيغه به . يقول إنه نقع يده في السمن كما ينقع الخبز في الثريد .

في سعيد بن راشد . ذلك المتن الخامل ، الذي ارتقى للإمارة . فلبس الخنز
وركب البغال في المواكب ، واتخذ الحُجَّاب :

بكى الخنز من إبْطِي سَعِيدِ بْنِ رَاشِدٍ ومن إسته تبكي بغالُ المواكب
فواعجبا حتى سعيدُ بنُ راشدٍ له حاجِبٌ في الباب من دون حاجبِها
ومن هذا اللون شعر أنس بن أبي أمّاس بن زُنَيْمٍ ، في حادثة بن بدر الفُدايِّ
وقد طلب من عبيد الله بن زياد أن يوليّه . فخيرّه . فزعم الشاعر أنه اختار
(سُرْق) لما وصف له من شرايها ، فولاه إياها (١) :

أحارَ بنَ بدرٍ قد وليتَ إمارةً فكنْ بَرُذًا فيها تَحْنُونُ وتسرق
وبإٍ تميماً بالغنى إن للغنى لساناً به المرءُ الهَيُوبَةُ يَنْطِقُ
فإنَّ جميعَ الناسِ إمامَ كَذِبٍ يقول بما يَهْوَى وإِما مُصَدِّقُ
يقولون أقوالاً ولا يعرفونها وإن قيل هاتوا حَقَّقُوا لم يُحَقِّقُوا
فلا تحقِرَنَّ يا حارِ شيئاً أصبته فحظُّك من ملكِ العِراقِ (سُرْق) (٢)

ومنه شعر عبد الله بن همام السلوي . مهاجم النعمان بن بشير والي الكوفة .
وكان معاوية قد أمر لأهلها بزيادة عشرة دنانير في أعطياتهم . فحبسها النعمان عنهم
ولم ينفذها ، لسابق إخلاصهم لملي (٣) :

(١) الشعر والشعراء ٢٨٤ ، المقد الفريد ٨ : ٥٧

(٢) سرق اسم الولاية التي وليها حارثة . « حار » ترخم حارثة .

(٣) الأغاني ١٤ : ١٢٠

زِيَادَتْنَا نَعْمَانُ لَا تَحْرَمُنَا خَفِ اللَّهَ فِينَا وَالْكِتَابَ الَّذِي تَتْلُو
 فَإِنَّكَ قَدْ حُمِلْتَ فِينَا أَمَانَةً بِمَا عَجَزْتَ عَنْهُ الصَّلَاحَةَ الْبُزْلُ^(١)
 فَإِنَّ يَكُ بَابُ الشَّعْرِ تُحْسِنُ فَتَحَهُ فَلَا يَكُ بَابُ الْخَيْرِ لَيْسَ لَهُ قُفْلُ^(٢)
 فَقَدْ نَلْتَ سُلْطَانًا عَظِيمًا فَلَا يَكُنْ لِفَيْرِكَ جَمَّاتُ النَّدَى وَلَكَ الْبَخْلُ^(٣)
 وَأَنْتَ أَمْرُؤُ حُلُو اللِّسَانِ بَلِيغُهُ فَمَا بِأَلِهِ عِنْدَ الزِّيَادَةِ لَا يَحْلُو
 وَقَبْلَكَ قَدْ كَانُوا عَلَيْنَا أُمَّةٌ يَهْمُهُمْ تَقْوِينَا وَهُمْ عُصْلُ^(٤)
 إِذَا أَنْصَتُوا لِلْقَوْلِ قَالُوا فَأَحْسِنُوا وَلَكِنْ حُسْنَ الْقَوْلِ خَالَفَهُ الْفِعْلُ
 يَذْهَبُونَ دَنِيَاهُمْ وَهُمْ يَرَضَعُونَهَا أَفَأَوَيْقَ حَتَّى مَا يَدِرُّ لَهَا تُعْلُ^(٥)

ومن الشعر الذي يصور سخط الناس . لتأثر الولاة بالعصبية والقرابة في
 اختيار العمال . قول الحارث بن خالد الخزومي . يهجو عبد العزيز أخا خالد
 ابن عبدالله بن أسيد . وقد ولاه قتال الخوارج فانهزم^(٦) :

-
- (١) بمير صلحام (بكسر الصاد) وصلحهم (بفتح الصاد) صلب شديد . البزل جمع . بإزل وهو
 البعير الذي يزل نابه أي ظهره ، وذلك في السنة التاسعة .
 (٢) يعني الشاعر هنا بالقفل المفتاح الذي يفتح به القفل .
 (٣) الجمل الكثير من كل شيء . ومن الماء معظمه وكثرته .
 (٤) عصل جمع أعصل ، وهو الثاب الأعوج ، والسهم الدوج . كانوا أنفة على لغة أكلوني البراغيث .
 (٥) أفأريق جمع فيقة (بكسر الفاء) وهو اللبن يمتنع في الضرع بين الحلبتين ، والنمسل
 (بفتح الناء وضما) زيادة في أطباء الناقة والبقرة والشاة .
 (٦) للكامل للبرد ٢ : ٢١٧ . خالد بن عبدالله بن أسيد أمير أموي ولاه عبد الملك بن
 مروان البصرة ، فمزل المهلب وولى مكانه أخاه عبد العزيز قتال الخوارج فانهزم . فمزل عبد الملك
 خالداً وأخاه عبد العزيز وولى المهلب . والحارث بن خالد الخزومي شاعر غزل ، كان أخوه
 عكرمة بن خالد محدثاً جليلاً . وكان بنو غزوم جميعاً زبيريّة ما عدا الحارث ، فكان منقاداً
 لعبد الملك فولاه مكة .

فرَّ عبدُ العزيز لما رأى الأبطال بالسَّفح نازلوا قَطَرِيًّا^(١)
 عَاهَدَ اللهَ إنْ نجا مِلْمَنًا يَ ليعودَنَّ بعدها حَرَمِيًّا^(٢)
 يسكنُ الخَلَّ والصِّفاحَ فَمَرًّا نَ وسلعًا وثارة نَجْدِيًّا^(٣)
 حيثُ لا يَشهدُ القتالَ ولا يسَ مع يومًا لِكُرٍّ خيلٍ دويا
 وما يصور سخط الناس لعدم توافر الكفايات في العمال . شعر رجل من
 بني عامر بن صعصعة . هجوه عبيد بن أبي ربيعة بن أبي الصلت الثقفي . رسول
 الحجاج إلى المهلب . يقول : تسمع هذا الرجل حين يخطب فلا ترى بأسا .
 فإذا رأيته في القتال ، عجبت لما يتشوق به من حث الناس على القتال^(٤) :

ما زلتَ يا ثقفِي تُخطِبُ بيننا وتغنُّنا بوصيَّةِ الحجاج
 حتى إذا ما الموتُ أقبلَ زاحراً وسما لنا صِرفاً بغيرِ مزاج
 ولَّيتَ يا ثقفِي غيرَ مناظِرٍ تنسابُ بين أحزَّةٍ وفجاج^(٥)
 ليستَ مقارعةُ الكُماةِ لَدَى الوَغَى شُربَ المدامَةِ في إناه زجاج

(١) قطري بن الفجاءة من زعماء الخوارج وشعرائهم المشهورين .

(٢) ملمناء أصلها من المتنايا حذف النون لغرب مخرجها من اللام . حرماً نسبة إلى الحرم .
 أى يقيم هناك ولا يشهد حرباً .

(٣) الخلل موضع ، وأصله الطريق في الرمل . والصفاح ومران وسلع مواضع . نجدية نسبة إلى
 نجد . يعني أنه يتنقل بين هذه الأماكن بعيداً عن خطر الخوارج خوفاً منهم .

(٤) الكامل ٢ : ٢٤١

(٥) أحزّة جمع حزيزة « على وزن قتيل » وهو المكان الغليظ من الأرض .

وقد كثرت شكوى شعراء العراق ، من ظلم العمال في جباية الأموال .
ويبدو لي أن هذه الشكوى تصور جفاء الأعراب ونفورهم من الزكاة ومن
الخضوع للسلطان بأكثر مما تصور ظلم الجباة ، وإن كان وقوع الظلم غير مستبعد
في كل زمان ومكان ، ولا سيما في دولة واسعة الأطراف كالدولة الإسلامية
وقتناك ، مع ما هو معروف من أن العمال الذين كانوا يختارون للعراق كانوا من
أهل الشدة والصرامة لكثرة ما ظهر فيه من فتن واضطرابات .

فالشعر الذي بين أيدينا يلقي التهم جزافا حتى ما يكاد يفادر أحدا . وهو
صورة من حقد قائله وحسدهم في بعض الأحيان ، ومن جفائهم ونفورهم من
الزكاة وتخلصهم منها بكل طريق في أحيان أخرى ، بأكثر مما هو صورة
صحيحة لواقع فاسد يشكون منه .

يقول عبده الله بن همام السلولي لعبد الله بن الزبير في الشكوى من عماله :

يا ابن الزبير-أمير المؤمنين ألم يبلغك ما فعل العمال بالعمل ؟
باعوا التجار طعام الأرض واقتسموا
صُلبَ الخراج شحاحاً قسمة النفل^(١)
وقدموا لك شيخاً كاذباً خذلاً^(٢) مها يقل لك شيخ كاذب يقل^(٣)
وفيك طالب حق ذو مرآنية جلد القوى ليس بالواني ولا الوكيل
اشدد يدك بزید إن ظفرت به
واشف الأرامل من دحروجة الجمل^(٤)

(١) اتسبب الأعراف ٥ : ١٩١ (٢) النفل النسيئة (٣) يقصد مراد بن شراحيل ، كان
أهلبيا طلى التجار في بيع الطعام (٤) دحروجة الجمل هو عامر بن مسعود الذي ولي الكوفة
لابن الزبير لم ير له . ولزيد مولى لعتاب بن ورقاء وكان خاتن دحروجة الجمل .

إِنَّا مُنِينَا بَضْبٍ مِنْ بَنِي خَلْفٍ يَرَى الْحَيَاةَ شَرِبَ الْمَاءَ بِالْعَسَلِ^(١)
 خَذَ الْعَصِيفِيرَ وَانْتَفَرِشَ نَاهِيَهُ حَتَّى يَنْوِيَ بَشْرَ بَعْدِ مُقْتَبَلِ^(٢)
 وَمَا أَمَانَةُ عَتَابٍ بِسَالِمَةٍ لَا غَمَزَ فِيهَا وَلَكِنْ جَعَلَ السُّبُلَ^(٣)
 وَقَيْسُ كِتْدَةً قَدْ طَالَتْ إِمَارَتُهُ بُسْرَةً الْأَرْضِ بَيْنَ السَّهْلِ وَالْجَبَلِ^(٤)
 وَخَذَ حَجِيرًا فَاتَّبَعَهُ مُحَاسِبَةٌ وَمَنْ عَذَرْتَ فَلَا تَعْذِرْ بَنِي قَقْلِ^(٥)
 مَا رَأَيْتُ مِنْهُمْ إِلَّا ارْتِفَاعُهُمْ إِلَى الْخَبِيصِ عَنِ الصَّحْنَةِ وَالْبَصْلِ^(٦)
 وَمَا غَلَامٌ عَلَى أَرْضٍ مَسَالِمَةٍ كَمَنْ غَزَا دُسْتَيْبِيَّ غَيْرَ مُجْتَمِعِلِ^(٧)
 يُجَبِّئِي إِلَيْهِ خَرَاةَ الْأَرْضِ مَتَكْنًا مُسْتَهْزِئًا بِغَنَاءِ الْقَيْنَةِ الْفُضْلِ^(٨)
 وَالْوَالِيُّ الَّذِي مَهْرَانُ أَمْرِهِ فَزَالَ مَهْرَانٌ مَذْمُومًا وَلَمْ يَزُلْ^(٩)
 وَدُونِكَ ابْنُ أَبِي عُشٍّ وَصَاحِبُهُ قَبْلَ السَّبِيْعِ فَقَدْ أَجْرَى عَلَى مَهَلِ^(١٠)

(١) يقصد دحرجة الجمل .

(٢) عبد الله بن أبي مصيفير والي المدائن .

(٣) عتاب بن ورقاء الرياحي أحد المشهورين من أجواد العرب .

(٤) يزيد قيس بن يزيد بن عمرو بن شراحيل الكندي

(٥) حجر بن حجار بن الحر كان على الزواحي . وبنو ققل من تميم بن ثعلبة وكانوا على

صدقات بني بكر .

(٦) المحنة طعام يتخذ من صفار السمك .

(٧) رستني كوة كبيرة في فارس بين الري وهمدان . غير مجتمل أي يفزو في سبيل

الله لا من أجل ما يجعل له من اجر .

(٨) القينة الجارية . الغفل التي تلبس ثيابا تكشف من جسمها

(٩) الوالي هو سعيد بن حرمة الكاهل الوالي . ومهران مولى لزياد ، وهو الذي جعل

الوالي في عداد العمال

(١٠) ابن أبي عش كان واليا على الدينور ، وصاحبه هو عبد الرحمن بن سعيد بن قيس

الهمداني

لَا تَجْمَعْنَ مَالَ بَيْتِ الْمَالِ مَأْكَلَةً
 وَمُنْقِذَ بَنِ طَرِيفٍ مِنْ بَنِي أَسَدٍ
 وَمَا أُخِينَسُ جُفْعِي بِمَا نَعِيهِ
 وَمَا فَرَاتٌ وَإِنْ قِيلَ أَمْرٌ وَرِعٌ
 وَالْحَارِثِيُّ سِرَضَى أَنْ تَقَاسِمَهُ
 وَادْعُ الْأَقَارِعَ فَاقْرَعُهُمْ بِدَاهِيَةٍ
 كَانُوا أَتَوْنَا رَجَالًا لَا رِكَابَ لَهُمْ
 لَنْ يُعْتَبِيوكَ وَلَمَّا يَعْلُ هَامَهُمْ
 إِنْ السَّيَاطُ إِذَا عَضَّتْ غَوَارِبَهُمْ
 لِكُلِّ أَزْرَقٍ مِنْ هَمْدَانَ مَكْتَحِلٍ
 أَنْبِثْتَ عَامِلَهُمْ قَدْ رَاحَ ذَا ثِقَلٍ^(١)
 مِنَ الْمَتَاعِ قِيَامُ اللَّيْلِ بِالطُّوَلِ^(٢)
 إِنْ نَالَ شَيْئًا بِذَلِكَ الْخَائِفُ الْوَجَلَ^(٣)
 إِذَا تَجَاوَزْتَ عَنْ أَعْمَالِهِ الْأَوَّلِ^(٤)
 وَاحِلَ خِيَانَةِ مَسْعُودٍ عَلَى جَمَلٍ^(٥)
 فَاصْبَحُوا الْيَوْمَ أَهْلَ الْخَيْلِ وَالْإِبِلِ
 ضَرْبُ السَّيَاطِ وَشَدُّ بَعْدُ فِي الْحَجَلِ^(٦)
 أَبَدَا وَذَخَائِرُ مِنْ مَالٍ وَمَنْ حُلَّلَ^(٧)

وهذا هو الراعي الشاعر، يشكو الجبابة إلى عبد الملك، فيقول إنهم يأخذون
 فوق ما يوجب القانون، ويتعدون بذلك ما أمرهم الخليفة. فهم يأخذون العِشَارَ

(١) عاملهم هو نعيم بن دجاجة ، وكان على أسفل الغرات .

(٢) أخينس جنى هو زحر بن قيس . وقيل هو محمد بن أبي سبرة . وكان على جوحى .

السبع الطول (بضم ثم فتح) هي من سورة البقرة الى سورة الاحراف ، والسابعة سورة
يونس أو (الانفال وبراءة) .

(٣) هو فرات بن زحر ، قتله المختار يوم السبيع .

(٤) الحارثي هو السري بن وقاص ، وكان على نهاوند .

(٥) مسعود رجل من بني أسد .

(٦) أتهب أرضاء حين عابه . العجل (يفتح العاء وكبرها) الخلخال والقيد .

(٧) الغارب والكاهل مقدم أعلى الظهر مما يلي العنق .

من كرام الإبل . بينما يكتبونها للأمير فصيلاً ، ويَقْلُثُونَ لأنفسهم الزيادة . ويشتطون على الناس في هذه الأحكام الجائرة ، فلا يزالون يحدون العريف بالسياط ، وقد أقاموه في الأغلال ، حتى يقطعوا جلده . ثم يأتيه بصكهم وقد أخذ منه الرعب . فيقصبونه إبله ويدعونه للضياع (يدعو أمير المؤمنين ودونه خرق تجر به الرياح ذبولا) فكانه حمام كسر الرماة جناحه . فهو لا يزال ينوح على قارعة الطريق ، وقد وقع الربيع ، فتقارب سخطوه ، وأخذته الفزع ، إذ رأى الذئب يقترب من محله ، في شراسة النهم الذي لا يبقى على شيء يصادفه . وهؤلاء هم قومه المسلمون الذين لا يمتنعون الزكاة ، والذين يشهدون أن لا إله إلا الله ، يسمون في الصحراء مطرودين ، كأنهم مجرمون أصابوا قتيلاً . يحدون إبلًا عجافاً ، قد تهدمت أسنمتها . فهم يتركونها في تخارم الجبال ، تتساقط ضعفاً وإعياء ، لأنها لا ترمى إلا الفاسد من النبات ، بين يابس ومرت وخيم . وماذا يصنعون وقد أتاهاهم (يحيى) الجاني . فأخذهم بشروطه الظالمة . وكلفهم ما لا يطيقون . فأفقر غنيهم . وأهزل فقيرهم ؟^(١)

أَخْلِيفَةُ الرَّحْمَنِ إِنَّا مَعَشَرُ حُنَفَاءٍ نَسْجُدُ بِكُرَّةٍ وَأَصِيلًا^(٢)
عَرَبٌ نَرَى اللَّهَ فِي أَمْوَالِنَا حَقَّ الزَّكَاةِ مُنْزِلًا تَنْزِيلًا
إِن السَّعَاةَ عَصَوَكَ يَوْمَ أَمْرَتِهِمْ وَأَتَوَادُوا هِيَ لَوْ عَلِمْتَ وَغُولًا^(٣)
إِن الَّذِينَ أَمْرَتِهِمْ أَنْ يَعْدِلُوا لَمْ يَفْعَلُوا مِمَّا أَمَرْتَ فَتِيلًا
أَخَذُوا الْعِشَارَ مِنَ الْكِرَامِ ظُلَامَةً مِنَّا وَيُكْتَبُ لِلْأَمِيرِ أَفِيلًا^(٤)

(١) جمهرة أشعار العرب ٣٥٦ ، خزنة الادب ٢ : ٢٠٦ .

(٢) حنفاء مسلمون ، جمع حنيف .

(٣) النول الهلكة (بالتحريك) والداهية .

(٤) العشار جمع عشاء (مثل فقهاء) ، وهي الناقة التي اتي عليها مشرة شهور لحملها .

الإبل ابن الخاض اذا كان صغيرا قبل ان يفصل من أمه .

أخذوا العريف فقطعوا حيزُومَهُ بالأصْبَحِيَّةَ قائماً مغلولاً^(١)
 حتى إذا لم يتركوا لِعِظَامِهِ لحماً ولا لفؤاده مَعْقُولاً
 جاءوا بصكَّهِمْ وأحْدَبَ أَسَارَتُ مِنْهُ السِّياطُ بِرَاعَةٍ إْجْفِيلاً^(٢)
 نَسِيَّ الأمانَةَ مِنْ مَخافَةِ لُقْحَ شمسٍ تركنَ بَضِيعَهُ مَجْدُولاً^(٣)
 أخذوا حَمُولَتَهُ فأصبح قاعداً لا يستطيع عن الديار حَوِيلًا^(٤)
 يدعو أميرَ المؤمنين ودونه خَرَقُ تَجْرُ بِه الرِّياحُ ذُبُولاً^(٥)
 كَهْدَاهِدٍ كسر الرماةُ جناحه يدعو بقارعةِ الطريقِ هَدِيلًا^(٦)
 وَقَعَ الرَّيِّيعُ وَقَدَّتْ قاربَ خَطْوِهِ ورأى بِعِقْوَتِهِ أَزَلَ نَسُولاً^(٧)
 مُتَوَشِّحَ الأَقْرابِ فِيهِ نَهْمَةٌ نهشَ اليدينِ تخاله مَشْكُولاً^(٨)

(١) العريف رئيس القوم . الحيزوم وسط الصدر ، وما يضم عليه الحزام . جميعها
 حيازيم . الاصبحية السياط واحدها . أصبح نسبة الى ذي أصبح ملك من ملوك حمير لانه
 هو الذي ابتلعها .

(٢) أحْدَب يقصد العريف نفسه وصفه بذلك لان السياط قد أذله ونالت منه . أسار
 الشارب في الإناء سُوراً أي ترك فيه بقية . البراعة القمصية الجوفاء شبه بها قلب العريف
 الفرع . إْجْفِيلاً خائفاً مجفلاً . يقول لم تترك منه السياط الا رجلاً فرما مروما .

(٣) أراد باللح السياط . شمس جمع شمس (بوزن الصفة المشبهة) وهو الشديد .
 البضيع اللحم .

(٤) الحمولة - بفتح الحاء - الأبل وكل ما احتمل عليه القوم من حمار ونحوه ، كانت
 عليه القال او لم تكن . الحويل الانتقال كالحول (بكسر ثم فتح) .

(٥) الخرق (بفتح الخاء) الصحراء الواسعة التي تفرقها الرياح .

(٦) الهداهد الحمام الكثير الهدعدة . الهدبل صوت الحمام .

(٧) المقوة ما حول الدار والحلة . أزل قليل اللحم يعني اللذبة . نسول نساقط
 شعره لجوعه فهو شرس .

(٨) متوشح الأقرباء ، كل هذا وصف للذبة . الأقرباء جمع قرب (يضم فكون)
 وهي الخامرة . نهش قليل اللحم ، يشبه عريف قومه في خوفه من الجبابة بحمام فسمها
 وهي ذئبا شرسا هذه صفاته يقترب من محلته .

أَخْلِيفَةَ الرَّحْمَنِ إِنَّ عَشِيرَتِي أَمْسَى سَوَاءُ مَهُمْ عَزِيزِينَ قُلُوبًا (١)
 قَطَعُوا الْيَامَةَ يُطْرَدُونَ كَانَهُمْ قَوْمٌ أَصَابُوا ظَالِمِينَ قَتِيلًا
 يَحْدُونَ حُدُبًا مَائِلًا أَشْرَافُهَا فِي كُلِّ مَقَرَبَةٍ يَدْعُنَ رَعِيلًا (٢)
 شَهْرِي رَيْبَعٌ مَا تَذَرُقُ لُبُونَهُمْ إِلَّا حُوضًا وَخَةً وَذَبِيلًا (٣)
 وَأَتَاهُمْ (يَحْيَى) فَشَدَّ عَلَيْهِمْ عَقْدًا يَرَاهُ الْمُسْلِمُونَ ثَقِيلًا
 كُتُبًا تَرْكَنُ غَنِيِّهِمْ ذَا عَيْلَةٍ بَعْدَ الْغَنَى وَفَقِيرَهُمْ مَهْزُولًا
 فَتَرَكْتُ قَوْمِي يَقْسِمُونَ أُمُورَهُمْ أَلَيْكَ أَمْ يَتَرَبَّصُونَ قَلِيلًا
 أَنْتَ الْخَلِيفَةُ عَدْلُهُ وَنَوَالُهُ وَإِذَا أُرِدْتَ لَظَالِمٍ تَنْكِيلًا
 فَارْفَعْ مَظَالِمَ عَيْلَتِ أُنْبَاءِنَا عَنَّا وَانْقِذْ شِلُونَا الْمَاكُولَا

وهذا هو الفرزدق ، يشكو إلى سليمان بن عبد الملك من هذا الأمر نفسه ،
 فيقول إن الناس قد نذروا أن يحجوا حفاة ، وأن يصوموا لله ، إن أنقذهم
 بولايتك الخلافة . وما هم أولاء يوفون نذرهم ، بعد أن أهلكهم ظلم من قبلك فلم
 يبق منهم إلا ألسنا وعظاما . كانوا يحبسون الجند في الثغور ، ويؤخرونهم عن
 مواعيدهم في البر والبحر بغير أعطية . وكان الجباة يحاسبون الناس على ما ذهب

(١) سوامهم البهائم التي تستام الكلا أي ترماء . عزيزين جماعات متفرقة ، جمع عزة
 (كمدة) وهي المعصة من الناس . الفلول جمع فل (يفتح الفاء) وهو المهزوم المتفرق .

(٢) يحدون يسوقون . الحدب الإبل المهزولة . أشرافها أسنمتها . وإنما تميل أسنمتها
 لضعفها وقلة شحمها . المقربة الطريق في الجبل . الرميل القطيع .

(٣) اللبون ذات اللبن . الحموض جمع حمض (يفتح الحاء) وهو ما ملح وأمر من
 النبات . الأرض الوخمة التي لا ينجع كلؤها . اللبيل اليابس من النبات .

من مالهـم ، وما هلك من إبلهـم ، حتى أصبح أهل العراق يحمدون الميت ، لنجاته من عذاب الظالمين . ويقول الفرزدق إن الناس قد أنقذوا من هذا الظلم بولاية سليمان للخلافة . مشيراً إلى السجون ، التي كانت تُستخذ لسجن نساء العصاة ، ويمعجب من أمره في ظلم أراميل ليس لهـن جريرة ، وقد حبس عنهن ما يستحقن من عطاء

كـم فيك إن مَلَكَتْ يداك لنا يوماً نواصينا من النذر
من حج حافية وصائفة سَتْنين أم أفيرخ زُعر
لم يَبْقَ منهم غيرُ السنةِ وأعِظْمْ وحواصلِ حُمر^(١)
... وَيُجَمَّرُونَ بغيرِ أعطيةِ في البرِّ من بَعَثُوا وفي البحرِ^(٢)
وَيُكَلِّفُونَ أَباعرا ذَهَبَتْ جِيفاً بَلينَ تقادُمِ العصرِ
حتى غبطننا كلَّ مُحْتَمِلٍ يُنْشَى بأعظمه إلى القبرِ
وتمت الأحياء أنهم تحت التراب وجيء بالحشر
والراقصات بكل مبتهل من فجَّ كلَّ عَمَاقٍ غُبرِ^(٣)
ما قلتُ إلا الحقَّ تعرفه في القول مرَّجلاً وفي الشعرِ

(١) يقول كم فيك من نذر نذرناه ان ملكت يداك نواصينا في يوم من الايام ، والناسية الرأس . من حج حافية ، يعني قد نذر النساء ان يحججن سننتين حفاة صائحات . أم أفيرخ ام اطفال ضعاف لم يبق منهم غير السنة تنطق وعظام برزت من الهزال . زعر جمع ازهر وهو القليل الشمر المتفرقه . صور يؤس القوم في حال اطفالهم الضعاف وحزن امهاتهم عليهم .

(٢) التججير حبس الجيوش في المغازي وتأخيرها عن موعد تسريحها . الامطية جمع عطاء وهو الراب الذي يصرف من بيت المال .

(٣) الراقصات الابل التي ترقص في سيرها . يحلف بالابل التي تحمل الحجاج من مختلف بقاع الارض مبتهلين الى الله . صمايق جمع عميق اي طريق عميق اي بعيد طويل .

ما أصبحت أرضُ العراقِ بها ورقٌ لختبِطٍ ولا قشرٌ^(١)
 أحيت أنفسنا وقد بلغتُ منا الفناء ونحن في دَبرٍ^(٢)
 فلقد عززنا بعد ذلتنا بك بعد ما نابى عن القسر
 أحيت أنفسنا وقد هلكت وجبرت منا واهي الكسر
 بل ما رأيتُ ولا سمعتُ به يوماً كيوم صواحب القصر^(٣)
 يوماً سيؤمِّنُ كلَّ مندفرٍ أو لاحقٍ بأئمةِ الكفر^(٤)
 فاذكرُ أرامل لا عطاء لها ومسجّنين لموضع الأجر^(٥)
 لو يُبتَلَوْنَ بغير سجنهم صبروا ولو حُبِسوا على الجمر

ويصور الفرزدق ظلم الجبابة في موضع آخر من شعره ، يشكّوهم فيه إلى
 الوليد بن عبد الملك ، فيقول إنهم يشقون على الناس ، ويحلدونهم بالسياط حتى
 يلجئوهم إلى الربا الذي يدخلهم جهنم إرضاءً لجشعهم .

أمير المؤمنين وأنت تشفي بعدل يدريك أدواء الصدور

(١) الخبط (بالتحريك) ورق الشجر ينفض بالمخاطب ويجفف ويطحن ، ثم يخلط بدقيق
 أو غيره ويسجن بالماء فتطمسه الأبل . وإنما يفعلون ذلك في أوقات الجذب وانعدام الخضراء .
 والمخبط الذي يفعل ذلك بابل . جر الشامر (قشر) على الإبل لمخبط ، وحقه الرقع .
 (٢) الدبر هنا الهلاك .

(٣) كان الحجاج يأخذ نساء المعاة فيحبسهن في قصور ما بين البصرة إلى قصر انيس .
 (٤) أي أن الميت الذي دفن يرى أنه قد آمن بالموت ، لأن الموت خلصه من أن يمنع به
 مثل الذي ينفله الحجاج بالأحياء . والهابب إلى بلاد الروم يرى أن ذلك قد خلصه من
 ظلم الحجاج كذلك .

(٥) يصف النساء في سجون الحجاج ويذكر الخليفة بهن . يقول له : اذكر ذلك لما
 لك فيه من أجر المنقلد من الظلم .

فكيف يعامله يسعى علينا	يكلفنا الدراهم في البدور ^(١)
وأنى بالدراهم وهي منا	كرافع راحتيه إلى العبور ^(٢)
إذا سُقنا الفرائض لم يردّها	وصدّ عن الشؤيّة والبعير ^(٣)
إذا وَضَعَ السّياط لنا نهاراً	أخذنا بالرّبا سهرق الحرير ^(٤)
فادخلنا جهنم ما أخذنا	من الإرباء من دون الظهور ^(٥)
فلو سمع الخليفة صوت داع	ينادي الله : هل لي من مُجير
وأصوات النساء مُقرّّاتٍ	وصبيان لهن على الحجور ^(٦)
إذا لأجابهن لسانُ داع	لدين الله مِغْضابِ نَصُور
أمين الله يصدّع حين يقضي	بدين محمد وبه أمور

-
- (١) يكلفنا الدراهم في البدور أي يكلفنا المستحيل ، كانه يطلب منا أن نركب إلى القمر فنأتي له بالدراهم .
- (٢) يريد أن الدراهم عزيزة النال . والمبور هي الثمرى المبور ، وهي إحدى الشمرين (بكر الشين) .
- (٣) أي إذا دفعنا إليه ما فرضه الله علينا لم يرض به ، وأبى إلا الزيادة .
- (٤) السرق جمع سرقة (بفتح السين والراء) وهي الشقة من الحرير .
- (٥) يقول ندخل جهنم بسبب الربا . وإنما الجأنا إلى ذلك خوفاً على ظهورنا من السّياط .
- (٦) مقرّّات مقرون بمعنىن إلى بعض في الاصطاد .

الأخطل

أول ما نعرف عن أيام غياث بن غوث الأولى ، وعن أخبار طفولته ، هذه القصة التي تصوره مقيماً مع زوج أبيه ، في حياة لا تخلو من ضيق وحرمان فهي تؤثر أبناءها بما لذ وطاب من طعام ، وقبعت به خلف أعزها يرعاها ، وهو يعتال لنفسه في الوصول إلى ما يشتهي من ألوان الطعام ، فيزعم لزوج أبيه أن بعض جيرانها مريض ، ولا تكاد تمضي حق يهوى إلى ما أخفت عنه من تمر وزبيب ، فلا يُبقي على شيء منه . ثم تعود وقد تنبعت إلى حيلته ، وهم بضربة فيهرب ويقول في ذلك .

ألم على عنبات العجوز وشكوتها من غياث كَمَّ
فطلت تنادي ألا ويلها وتلعن واللعن منها أَمُّ

وهو هنا صبي محروم ، ولكنه متمرد ، لا يرضى بما فرض عليه من هذا الحرمان ، ولا يعدم الحيلة في الوصول إلى ما يحب . وهو في الوقت نفسه حسن الاستعداد للشعر ، وللهجائي منه بنوع خاص . وصورة أخرى لهذا التمرد والطموح ، ولهذه الموهبة الهجائية ، تحفظها لنا عنه كتب الأدب ، فيما تروي من قصته مع كعب بن جُثَيْل ، وكان شاعر تغلب في وقته ، وكان لا يُلم برهط منهم إلا أكرموه وأعطوه . فنزل على رهط الأخطل فأكرموه ، وجمعوا له غنا وحظروا عليها حظيرة ، فجاء الأخطل فأخرجها من الحظيرة وفرقها ، فخرج كعب وشتمه ، واستعان بقوم من تغلب فجمعوها له ، وردوها إلى الحظيرة .

(١) الشكوة (بفتح الشين) وماء من الجلد يتخذ للماء واللبن .

فارتعب الأخطل خفته ففرقها أنيسة ، فغضب كعب وقال : كفوا عني هذا الغلام وإلا مَجُوتُكم . فقال له الأخطل : إن مَجُوتنا مَجُوتناك . فقال كعب ومن مَجُوتي؟ قال : أنا . فقال له أبوه : أَبغِذْ رَمَتِكَ^(١) تريد أن تقاوم ابن جُمَيْل ؟ وضربه . والأخطل هنا غلام مبتدىء في معالجة الشعر ولكنه يطمع أن تكون له فيه مكانة ، ويلتمس السبيل لذلك بهذه التصرفات الزرقة . التي تلفت إليه الأنظار ، وتجعل له بين الناس أهمية خاصة . فهو لا يرضى أن يكون غلاماً ككل الغلمان ، مغموراً خاملاً الذكر . ولكنه يلتمس الشهرة بأن يفعل الفعلة الكبيرة ، التي تغضب الناس وتؤلبهم عليه . ولا يلبث أن ينجح في إثارة هذا الشاعر الكبير . فيقول له :

شاهدَ هذا الوجهُ غِبَّ الجُمَّة

فيجيبه الأخطل :

(ف....) كعبُ بنُ جُمَيْلٍ أُمّه

ثم يقول في كعب وأخيه :

هجاني المتننان ابناً جميل وأبي الناس يقتله الهجاء
ولدت بعد إخوتكم من أَسْتٍ فهلّا جثثُ من حيث جاءوا
ويقول :

سميتَ كعباً بشراً العظامُ وكان أبوك يسمّى الجُعَلُ^(٢)
وإن تحلّك من وائل محلّ القُرَاد من أَسْت الجمل^(٣)

(١) في القاموس المحيط الفدومة اختلاط الكلام . قلت كان الكلمة بما تجمع من حروف متنافرة تعكس هذا التناثر الذي يكون في الكلام المختلط .

(٢) الجمل ضرب من الحشرات التي تقتات بالانذار تشبه الخنفساء . الكعب نظم القدم البازد من جانبيها .

(٣) وائل هو الجد الأكبر الذي يجمع بكراً وتغلب (قبيلة كعب والاخلل) . القراد حشرة صغيرة تلتصق بجلد الجمال .

ويلجئ الهجاء بعد ذلك بينه وبين كعب . فيقرن اسم هذا للفلام الناشئ .
بذلك الشاعر المشهور ويتحدث الناس بأمرهما . ويعرف غياث من ذلك الحين
بلقب الأخطل . لبذاته وسلطة لسانه .

ولا يزال الأخطل يلتمس الشهرة من طريق الهجاء والإفحاش على الناس
حتى يتاح له هجاء الأنصار مستنداً إلى حاية يزيد بن معاوية ، بعد أن عرض
الأمر على كعب بن جعيل ، فتخرج منه ودله على الأخطل . ووافق العرض من
هذا الشاب الطموح المغامر هوى فيرحب به ، على ما فيه من خطورة التعرض
لهذه الطائفة المعروفة بتاريخها القديم في الإسلام ، وسابقتها في تدعيمه وإقراره ،
فيهاجهم أعنف مهاجمة ، بأبياته المشهورة .

لَعَنَ الْإِلَهَ بْنَى الْيَهُودِ عَصَابَةً بِالْجَزَعِ بَيْنَ جُلَاجِلٍ وَصِرَارٍ^(١)
قَوْمٌ إِذَا هَدَرَ الْعَصِيرُ رَأَيْتَهُمْ حَمْرًا عَيُونُهُمْ كَجَمْرِ النَّارِ^(٢)
ذَهَبْتُ قَرِيشُ بِالْمَكَارِمِ وَالْعُلَى وَاللُّؤْمُ تَحْتَ عِمَائِمِ الْأَنْصَارِ
فَذَرُوا الْمَعَالِي لَسْتُ مِنْ أَهْلِهَا وَخُذُوا مَسَاحِيكَمِ بِنِي النَّجَارِ^(٣)
إِنَّ الْفَوَارِسَ يَعْرِفُونَ ظُهُورَكُمْ أَوْلَادَ كُلِّ مَقْبَحٍ أَكْأَرِ^(٤)
وَإِذَا نَسَبْتُ ابْنَ الْفُرَيْعَةِ خَلْتَهُ كَالْجَحْشِ بَيْنَ حَمَارٍ وَحِمَارٍ^(٥)

(١) الجزع منطف الوادي . جلاجل وصرار موضحان .

(٢) العصير عصب العنب او ما يتمر ليخمر . هدر العصير وذلك حين يختمر . أي
أنهم يسرفون في الشراب حتى تحمر عيونهم .

(٣) المساحي جمع مسحة (بكسر الميم) اسم آلة يجرف بها الطين والقشر . سحا الطين
يسحبه ويسحوه جرفته وقشره . وبنو التجار بيت من بيوت الانصار وهم قوم حسان بن
سابت الشاعر .

(٤) اكأر أجبر حراث يحفر الارض .

(٥) ابن الفريمة حسان بن ثابت والفريمة أمه .

ويذيع هذا الشعر . فحدث في أوساط الأنصار ضجة هائلة . وتثور فائرة زعيمهم النعمان بن بشير الأنصاري ، فيقدم على معاوية غاضباً ، مطالباً بتأديب هذا الغلام النصراني ، لا يرضى في ذلك إلا بقطع لسانه . ويغضب معاوية ويهم بالأخطل ، لولا تدخل يزيد في الأمر ، يترضى أباه حتى يرضى .

والراجع أن هذه الحادثة كانت في أواخر أيام معاوية بعد سنة ٥٦ هـ . فالأخطل يصور يزيد في قصيدته التي قالها في هذه المناسبة ولياً للمهد حين يقول :

فأصبحت مولاها من الناس بعده وأحرى قریش أن يُهاب ويُحمدا

وإنما بايع معاوية لابنه يزيد سنة ٥٦ هـ ، قبل وفاته بأربع سنوات . وقد صور الأخطل في هذه القصيدة يد يزيد عنده ، وما تعرض له من شر . وهي قصيدة رائعة ، بل هي في غاية الروعة ، حين تصور ترَضِيَّ يزيد لأبيه ، وما لقي فيه من جهد :

ولاني غداةً استعبرتُ أمَّ مالك لراض من السلطان أن يتهددا
ولولا يزيدُ ابنُ الملوك وسيبه تجللتُ حذباراً من الشر أنكد^(١)
وكم أنقذتني من جُرورِهِ حباًلکم وخرساء لو يُرَمَى بها الفيل بلد^(٢)
ودافع عني يومَ جَلَّقَ غمرَةً وهما ينسني السلافَ الهود^(٣)

(١) الحذبار الناقة الداهية السنام العارية العظام ، يشبه نفسه في حال ورطته براكب ناقة هذه حالها .

(٢) الجرور البئر البعيدة القمر . الخرساء الداهية التي تلهل وتخرس ، مطوف على (جرود) .

(٣) جلق لوطه دملق او موضع قريب منها . غمرة كربة . السلاف الخمر . الهود المسكن ، واصل التهويد النوم .

وبات نَجِيًّا في دمشق حَيَّةً إذا عضَّ لم يَنَمْ السليمَ وأقصدا^(١)
يُخَفِّتُهُ طوراً وطوراً إذا رأى من الوجه إقبالا ألح وأجهدا
أبا خالدٍ دافعتَ عني عزيمةً وأدركتَ لمي قبل أن يتبددا
وأطفأتَ عني نارَ نُعمانَ بعدما أغدَّ لأمرٍ عاجز وتجردا^(٢)
وأشار إلى ذلك في موضع آخر ، من قصيدة مدح فيها يزيد ، وكان لا يزال
ولياً للعهد :

فلولا يزيدُ ابنُ الإمام أصابني قوارعُ يجنيها عليَّ لساني
ولم يأتني في الصحف إلا نذيرُكم ولو شئتُ أرسلتُ بأماني
فأقسمتُ لا آتي نصيبين طائعا ولا السجنَ حتى يمضي الحرمان
ومن ذلك الوقت بدأت صلة الأخطل بيزيد . وزاد في وثوقها توافق طبيعتهما .
فقد كان يزيد شاعراً وكانت خلانقه بدوية ، فاستراح إلى هذا الشاعر البدوي ،
الذي تلوح عليه غايل النباهة ، واتخذهُ صديقاً وندياً . ولكن الأخطل فيما
يبدو ، ظل مكروهاً من معاوية لم يصل إليه ، فنحن لا نجد في ديوانه شعراً في
مدحه ، وكل ما نجد أربع قصائد في مدح يزيد ، اثنتان منها قبيل وفاة
معاوية ، وهما اللتان قدمناهما ، واثنتان بعد وفاته هما :

بانت سعاد ففي العينين تسهيد واستَحَقَّتْ لَبَّهُ فالقلبُ معمود

(١) يقصد بالحية معاوية . السليم الذي لدغته الحية . أقصدت الحية لدغت
فقتلت . نَمى الصيد ينميه أصابه في غير مقتل .
(٢) نعمان هو النعمان بن بشير الأنصاري . الإغداذ سرعة السير . لامر عاجز أي لامر
شديد يعجز صاحبه . تجرد للامر نهض له وجد فيه .

حَلَّتْ ضَيْبَةَ أَمْوَاهِ الْعِدَادِ وَقَدْ كَانَتْ تَحُلُّ وَأَدْنَى دَارَهَا تُكْدُ (١)

وقد مدح في القصيدة الأخيرة يزيد بن معاوية وأخاه عبدالله بن معاوية (٢)

(١) العداد جمع عد (يكرس العين) وهو الماء له مادة في الأرض . كد (بضمين) ماء لبني كلب .

(٢) ذكر الدكتور غازي في كتابه (الاخطل شاعر بني أمية) اني قد أضفت هذه القصيدة الى شعر الاخطل في يزيد ، بينما هي في أخيه عبد الله بن معاوية (هامش ص ٦٨ - الطبعة الاولى) . ثم عاد فذكر انها في يزيد وعبد الله كليهما (ص ٧٢ ، ٧٣) والواقع انها في مدح يزيد ، ولم يذكر فيها عبد الله الا في أبيات عارضة كما لاحظ الدكتور غازي نفسه (ص ٧٤) .

ويقرر الدكتور غازي ان القصيدة قيلت بعد وفاة يزيد ، معتمدا في ذلك على بيت الاخطل :

ويوم شرطة قيس اذا منيت لهم حنت مشاكل من ايقاعكم نكد
بعد ان نسر يوم (شرطة قيس) بأنه (مرج راعط) ، متبعا في ذلك الاب انطون صالحاني في شرحه للديوان . وهو خطأ واضح للأسباب الآتية :
لم أجد فيما قرأت أحدا سمي (مرج راعط) يوم (شرطة قيس) . وينفي هذا الزعم ان الاخطل قد أشار الي حسن بلاه عبد الله بن معاوية يوم شرطة قيس . ومن الحروف ان عبد الله بن معاوية فر بعد الهزيمة في يوم مرج راعط حتى أودعه عبيد الله بن زياد خلفه وحماه (المقد الفريد ٥ : ١٦٠) .

وليس في القصيدة إشارة الى آل مروان أصحاب الفخر بهذا اليوم . ولم يذكر الشاعر يوم شرطة قيس الا ذكرا مابرا ، بينما أطال الوقوف عند (صفين) . ولو كان المقصود بيوم شرطة قيس هو (مرج راعط) لاستحقت هذه الواقعة الفاصلة من الشاعر وقفة أطول من وقفته عند (صفين) ، ولكان الاولى والاحق بالذكر هو عبد الملك بن مروان ، لما هو معروف من حظوة الاخطل عنده ، وهي حظوة بلغ فيها الشاعر قمة مجده السياسي .
لم ان الشاعر ختم قصيدته بيت لا يخاطب به الا خليفة . وذلك قوله :

والمسلمون بخير ما بقيت لهم وليس بعدك خير حين تفتقد
والمخاطب بالبيت هو يزيد بن معاوية حتما وليس أخاه عبد الله بن معاوية ، لان هذا الأخير لم يكن خليفة قط . وغير الخليفة لا يصح ان يقال له ان المسلمين بخير ما مضت لهم ، لان أمر المسلمين لا يناط بخير الخليفة . وهو قاطع في الدلالة على ان القصيدة قيلت في حياة يزيد بن معاوية وهو خليفة .

وعلى ذلك يمتنع أن يكون يوم شرطة قيس هو يوم مرج راعط ، لان يوم مرج راعط كان بعد وفاة يزيد بتسع سنوات . وانما وهم شراح الديوان في ذلك ، لانه نسر الشرط والشرطة بالاشراف ، لم قرا في كتب التاريخ ان عددا كبيرا من اشراف قيس قتل يوم مرج راعط .

وربما استطعنا أن نلحق بهذه المذائع الأربع أبياتا شفع فيها لمبيد الله بن زياد عند يزيد وهو خليفة ، وهي التي يبدأها بقوله :

أبلغ أمير المؤمنين رسالة جزاء بنعمتي قبلها ووسيل

وهي تخلو من مدح يزيد ولكنها تدل على أن الشاعر قد أصبح عنده ذا مكانة تسمح بأن يشفع لعامل من كبار عمال الدولة كمبيد الله بن زياد .

وهو يشير في القصيدة الأولى إلى شبيه حيث يقول :

إما ترّني حناني الشيب من كبر كالنسر أرْجفُ والإنسان مهود
فقد يكونُ الصبى مني بمنزلة يوماً ويقتادني الهيفُ الرّعاديد
يا قلّ خيرُ الغواني كيف رُغن به فشرُّه وشلّ فيهن تصرّيد^(١)
أعرّضن من شمطٍ في الرأس لاح به فهنّ منه إذا أبصرنّه حيدُ

== وقد ظن الدكتور غازي أنني نسيت من بين مذائع الاخطل ليزيد رائيته :

تفسير الرسم من سلمى بأجفار واقفرت من سلمى دمنة الدار

والقصيدة ليست مدحا أصلا . فقد فرغ فيها الشاعر للفرل وللخمر ولوصف الناقة على طريقة الجاهليين في تشبيها يشور الوحش والاستطراء في ذلك . وهي تسمة وأربعون بيتا ، لم يعرض فيها الاخطل للمدح الا في الابيات الاربعة الاخيرة ، ولم يخص فيها بمدوحا بمينه ، ولكنه هم قريشا وبني حرب بالمدح . فكيف يصح عدها من مذائع الاخطل ليزيد . وانما اعتمد الدكتور غازي في دعواه على ما رواه الاب أنطون سالعاني ، وهي دعوى بلا دليل .

ثم ان الدكتور غازي في تربيته التاريخي لمذائع الاخطل في يزيد قد اعتمد على الخصائص الفنية التي تصور نضج الفن الشعري منذ الشاعر . والاعتماد على الخصائص الفنية وحدها في ترتيب القصائد غير وثيق ، لان الشاعر قد يجيد في بعض شعره المبكر ، وقد يخونه التوفيق في بعض قصائده المتأخرة . والاعتماد على التاريخ اوثق .

(١) الوشل القليل من الماء . التصريد السقي دون الري .

ويقول إن يزيد قد عطف عليه في محنة ، عاش فيها طريداً مشرداً بعيداً
عن أهله لجرم ارتكبه :

جزاك ربك عن مُسْتَفْرِدٍ وَحَدِيدٍ نفاه عن أهله جُرمٌ وتشريد
مُسْتَشْرِفٌ قد رماه الناسُ كلُّهمُ كأنه من سَمُومِ الصَّيْفِ سَفُودٌ^(١)

وبشير إلى عطفه هذا في القصيدة الأخرى بقوله :

أنتم تداركتموني بعد ما زِلَقْتُ نعلي وأخرج عن أنيابه الأسدُ^(٢)
ومن مُودَّةٍ أخرى تداركني مثلُ الرُّدَيْنِيِّ لا واهٍ ولا أودُ^(٣)

وللمرة الأولى ، نرى الأخطل في هذه القصيدة شاعراً سياسياً ، يتجاوز
مديح يزيد إلى الدفاع عن الدولة ، ومهاجمة خصومها ، مؤيداً حق الأمويين في
الخلافة ، مقررأ أن حقهم فيه ثابت ، بولايتهم لدم عثمان :

ويومَ صِفَيْنَ والأبصارُ خاشعةٌ أمدهم إذ دعوا من ربهم مَدَدُ
على الأولى قتلوا عثمانَ مظلمةً لم ينهم نَشَدُ عنه وقد نَشِدُوا^(٤)
فَتمَّ قرَّتْ عيونُ الثَّائرينَ به وأدركوا كلَّ تَبَلٍ عنده قَوْدُ^(٥)
فلم تزل فيلقُ خضراءُ تحطِّمُهم تنعى ابنَ عفَّانَ حتى أفرخَ الصَّيْدُ^(٦)

(١) مستشرف (على البناء للمفعول) مظلوم ، من قولهم استشرقه حقه أي ظلمه .
والسفود العديدة التي ينظم فيها اللحم حين يشوى .

(٢) زلقت نعلي ، يشير إلى زلقة بهجاء الانتصار . ويقصد بالأسد معاوية .

(٣) المودنة حفرة الميت . الرديني الرمح شبه يزيد به ، واه ضعيف . أود موج .

(٤) نشدهم عثمان الله أن لا يقتلوه ، فلم ينهم ذلك عن قتله .

(٥) النبيل النار . القود القصاص .

(٦) الصيد الكبير . أفرخ سكن .

ويقول إن نصرهم جاء من عند الله . فانتهاه أمر المسلمين إليهم دليل على تفضيل الله لهم . وهذه فكرة جديدة ، وقف الأخطل جهده على تقريرها بمختلف الصور والوسائل ، كما سنرى :

تَمَّتْ جُودُهُمْ وَاللَّهُ فَضَّلَهُمْ وَجَدْتُ قَوْمَ سِوَاهُمْ خَامِلٌ نَكِدُ
 هم الذين أجابَ الله دعوتهم لما تلاقت نواصي الخيل فاجتلدوا
 ... قومٌ إذا أنعموا كانت فواضلهم سَيِّبًا من الله لا منٌ ولا حسد
 ... ويومَ صفينَ والأبصارُ خاشعةٌ أمدهم إذ دعوا من ربهم مدد

ثم هو يهاجم أعداءهم من القيسية وأصحاب صفين :

ويومَ شرطة قَيْسٍ إِذْ مُنِيتَ لَهُمْ حَنْتَ مَثَاكِيلُ من إيقاعكم نُكْدُ^(١)
 ظلوا وظل سحابُ الموتِ يطرهم حتى تَوَجَّهَ منهم عارضُ برد^(٢)
 والمشرقيةُ أشباهُ البروقِ لها في كل جمجمةٍ أو بيضةٍ خُددٌ^(٣)

ويختم القصيدة بهذا البيت القوي يخاطب به يزيد :

والمسلمون بخير ما بقيتَ لهم وليس بعدك خيرٌ حين تُفْتَقَدُ.

(١) مناه الله يمينه قلعه أو ابتلاه . يقول : قدرك الله لامدائك في ذلك اليوم ، إذ أوقعت بهم فالتكت الامهات وابكتها طي قتلاها . التاكيد المرأة التي لا يعيش لها ولد .

(٢) العارض السحاب المترس في الالق . البرد الذي يطر بردا .

(٣) البيضة الخردة . خدد يقصد بها الجراح . والخدة في الأصل الحفرة المستطيلة في الأرض ، شبه الجرح بها .

من ذلك الوقت ، لم يعد الأخطل صديقاً ليزيد فحسب ، ولكنه أصبح شاعراً أمرياً ، أعد نفسه للدفاع عن سياسة هذه الدولة ، ومهاجمة أعدائها ، فقال عندهم حظوة رفعت من شأنه في قبيلته ، حتى احتل منها مكانة الزعامة ، وحتى كانت بكر بن وائل إذا تشاجرت رضىت به حكماً ، فكان يدخل المسجد فيقدمون إليه ^(١) . وعظم جاهه حتى اتخذ دار ضيافة . قال أبو الفرج : كان للأخطل دار ضيافة . فمر به عكرمة الفياض وهو لا يعرفه ، فقبل له . هذا رجل شريف قد نزل بنا . فلما أمسى بعث إليه فتعشى معه ثم قال له : أنصيب من الشراب شيئاً ؟ قال : نعم . وإذا عنده قيلتان خلفه ، وبينه وبينها ستر ، وإذا الأخطل أشهب اللحية له صغيرتان ، فغمز الستر بقضيب في يده ، وقال : غنياني بأردية الشمر ، فغنتاه بقول عمرو بن شاس :

وربيض تَطَلَّى بالعير كأنما يطآن وإن أعنقن في جدٍ وحلا
لهونا بها يوماً ويوماً بشاربٍ إذا قلت مغلوباً وجدتُ له عقلاً ^(٢)
ولم يصرفه مكانه من الأمويين عن رعاية قبيلته ، وتلبع شؤونها ، ومهاجمة أعدائها :

وقد علمت أفناء تغلب أنني نضارٌ ولم أنبت بقرقرٍ أثلاً ^(٣)
وأني يوماً لا مضيعٌ ذمارها ولا مُفْلِيّ حاج هجاً تغلباً بطلا
بل لقد استغل مكانته هذه عند الأمويين ، في إصلاح أمر قومه ، كلما

(١) الاماني ٨ : ٢٠٢

(٢) الاماني ٨ : ٢١٨

(٣) أثناء تغلب قبائلها . النصار سحر ينبت في الجبل فيكون خشبه صلباً . القرقرة الارض المطننة اللينة يكون خشبها هشاً ضعيفاً . الال شجر ضعيف الود .

وجد لذلك سبيلًا . وكان مثال الزعيم الفوي ، الذي يحرص على وحدة القبيلة واجتماع كلمتها . فهو إذا وقع بينهم خلاف ، قد دخل مصلحاً ، وسمى في حقن الدماء خوفاً من أن يقع بأسهم بينهم ، فتذهب ريجهم ، وتهن قوتهم ، ويطمع فيهم عدوهم . فكان يحتمل الحالات عن الجناة ، ويدى القتل ، ساعياً بين وجهاء القبيلة وأثريائها ، يستعينهم على ما احتل من غرامات ، فيمدح من يعينه منهم مشيداً بوفائه للقبيلة وبذله في سبيلها ، ويهجو بخلاءهم ، الذين يتمتعون عن المساهمة بأموالهم في الإصلاح . قال صاحب الأغاني : أتى الأخطل الكوفة فأتى الفضبان بن القبعثري الشيباني ، فآله في حَمالة . قال : إن شئت أعطيتك ألفين . وإن شئت أعطيتك درهمين . قال : وما بال ألفين وما بال الدرهمين قال : إن أعطيتك ألفين لم يعطكها إلا قليل ، وإن أعطيتك درهمين لم يبق في الكوفة بكري إلا أعطاك درهمين ، وكتبنا إلى إخواننا بالبصرة ، فلم يبق بكري إلا أعطاك درهمين ، فخفت عليهم المؤونة ، وكثر لك النيل . قال : فهذه إذن . قال : نقسمها لك على أن ترد علينا ...^(١) ويروي الأصفهاني في بقية الخبر ، أن الأخطل قدم على أبي سُوَيْد بن مَنجُوف السُدُوسي بالبصرة ، فلم يعطه شيئاً ، وحض قومه على الامتناع ، مذكراً بإمام بما كان بين قلب وبكر من قديم العدا . فهجاهم الأخطل بقوله :

فإن تبخل سدوس بدرهميها فإن الريح طيبةٌ قبُول^(٢)
توأكلتني بو العَلات منهم وغالت مالكا ويزيد غول^(٣)
قريةً وائل هلكا جميعاً كان الأرض بعدهما محول^(٤)

(١) الأغاني ٨ : ٣١٠

(٢) القبول ربح الصبا . يعني أن يخل سدوس لم يضره شيئاً ، فالامور تجري على ما يحب .

(٣) تواكل القوم اكل بعضهم على بعض . بنو العلات الاخوات لامهات شتى .

(٤) القرية فعل الأبل لانه مقترع للفحلة أي مختار . يعني بقريتي وائل وبكر وفطلب .

وهجاءُ سُوَيْد بن منجوف بقوله :

وما جَذَعُ سُوَيْدٌ خَرَّبَ السُّوسُ أَصْلَهُ لَمَّا حَمَلَتْهُ وائِلٌ بِمُطِيقِ
تُطِيفُ سُدُوسٌ حَوْلَهُ وَكَانَهَا عِصِيٌّ أَشَاءُ لُوحَتْ بِجَرِيقِ^(١)
جَادُ الصَّفَا مَا إِنْ يَبِيضُ بِقَطْرَةٍ وَلَوْ كَانَ ذَا زَرَاعٍ وَرَقِيقِ^(٢)
فَإِنْ نَعَفَ عَنْ حُرَّانِ بَكْرَيْنِ وَائِلٌ فَمَا إِنْ لَنَا سِودَانِهِمْ بِصَدِيقِ

ووفد الأخطل الكوفة ، فأتى حَوْشَب بن رُوَيْسَ الشيباني ، وقال : إني
تحملت حمالتين ، لأحقن بهما دماء قومي ، فنهزه . فأتى سيار بن البزيفة ، فاعتذر
إليه . فأتى عِكْرِمَةَ الفياض ، وكان كاتباً لبِشْر بن مران ، فسأله وأخبره بما
رد عليه الرجلان ، فقال : أما إني لا أنهرك ولا أعتذر إليك ، ولكنني أعطيتك
إحداهما عيناً والأخرى عَرَضاً^(٣) وفي ذلك يقول الأخطل :

إِنْ ابْنُ رَبِيعٍ كَفَانِي سِيئُهُ ضَعْنَ العدو وَنَبْوَةَ الْبَخَالِ
أَغْلَيْتَ حِينَ تَوَاكَلْتَنِي وَائِلٌ إِنْ الْمَكَارِمُ عِنْدَ ذَاكَ غَوَالِي
وَلَقَدْ شَفِيتَ مَلِيلَتِي مِنْ مَعَشَرٍ نَزَلُوا بِعِقْوَةِ حِيَّةٍ قَتَالِ^(٤)
بَعُدَتْ قُعُورٌ دِلَالُهُمْ فَرَأَيْتُهُمْ عِنْدَ الْحِمَالَةِ مَغْلَقِي الْأَقْفَالِ
وَلَقَدْ مَنَنْتَ عَلَى رِبِيعَةٍ كُلِّهَا وَكَفَيْتَ كُلَّ مُوَكِلٍ خَذَالِ

(١) الإشاء النخل . لوحات اسودت ، وصفهم بالسواد والنحول .

(٢) الجماد الناقة التي لا لبن لها والجماد أيضا السنة المجدية ، الصفا الحجازية

يعني انه بخيل كالصخرة لا يندى .

(٣) الاغاني ٨ : ٣١٩ . الذين النقد الحاضر . وألعرض ما ليس نقدا .

(٤) الليلة الحمى الباطنة والحر الكامن في العظم ، استماره لرغبة الانتقام . العقوة

الساحة والمباءة والمحلة .

كَزَمَ الْيَدِينَ عَنِ الْعَطِيَّةِ مَسْكٍ لَيْسَتْ تَبِيضُ صَفَاتُهُ بِيَلَالٍ^(١)
 مِثْلُ ابْنِ بَزْغَةٍ أَوْ كَأَخْرِ مِثْلِهِ أَوَّلَى لَكَ ابْنُ مُسَيْمَةِ الْأَجْمَلِ^(٢)
 إِنْ اللَّثِيمِ إِذَا سَأَلْتَ بَهْرَتَهُ وَتَرَى الْكَرِيمَ يَرَّاحُ كَالْمُحْتَالِ^(٣)
 وَإِذَا تَبَوَّعَ لِلْحَمَالَةِ لَمْ يَكُنْ عَنْهَا يُمْنَبِّهِرُ وَلَا سَعَالِ^(٤)
 وَإِذَا الْمُتُونُ تَوَوَّكَتْ أَعْنَاقُهَا فَاحِلٌ هُنَاكَ عَلَى فَتَى حَمَالِ^(٥)
 فَهُوَ الْجَوَادُ لِمَنْ تَعْرِضُ سَيِّبَتُهُ وَابْنُ الْجَوَادِ وَحَامِلُ الْأَثْقَالِ^(٦)

ويشير الأخطل في موضع آخر من شعره إلى هذه الحالات ، مثبياً على من
 يفى للقبيلة ، فيستجيب لدعائها وقت الشدة ، معرضاً بمن يقعد عن المشاركة
 فيما يلزمها ، حيث يقول :

سَعَى لِي قَوْمِي سَعَى قَوْمِ أَعَزَّةٍ فَاصْبَحَتْ أَسْمُو لِلْعُلَى وَالْمَكَارِمِ
 تَمَنَّاؤُنَا لِنَبْلِي أَنْ تَطِيشَ رِيَاشَهَا وَمَا أَنَا عَنْهُمْ فِي النَّصَالِ بِنَائِمِ
 وَمَا أَنَا إِنْ جَارٌ دَعَانِي إِلَى الَّتِي تَحْمَلُ أَصْحَابُ الْأُمُورِ الْعِظَائِمِ
 لِيُسَمِّعَنِي وَاللَّيْلُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ عَنِ الْجَارِ بِالْجَانِي وَلَا التَّنَاوِمِ

(١) الكرم الضيق الكف القصير الأصابع كنى بذلك من بخله . الصفا الحجر . تبى
 صفاته تندى . بلال وبلل واحد .

(٢) ابن البريقة يعني به سيار بن المنذر ويقصد بالأخر حوشب بن رويم اللذين ورد
 ذكرهما في القصة السابقة . ابن مسيمة الأجمال يميّره بأن أمه كانت ترمي الإبل كالأمه .

(٣) يبره كلفه فوق طاقته . راح للمعروف يراح راحة أخذه له خفة وأريحية .

(٤) تبوع للحمالة مد باعه لها .

(٥) تَوَوَّكَتْ أَتَكَلَ كُلُّ وَاحِدٍ عَلَى صَاحِبِهِ . أَعْنَاقُهَا جَمَاعَتُهَا .

(٦) تَعْرِضُ السَّيْبُ وَالسَّيْبُ تَعْدَى لَهُ وَطْلَهُ . وَالسَّيْبُ الْعِظَاءُ .

ألم تر أني قد وديتُ ابنَ مِرْفُقٍ ولم تُودَ قَتْلَى عبدِ شمسٍ وهاشمٍ^(١)
 جزى الله فيها الأعورَينَ مذمةً . وعبدَ ثَفَرَ الثورِ المتضاجمِ^(٢)
 فاعبوا وما المولى بمن قلَّ رِفْدُهُ إذا أجهفتْ بالناسِ إحدى العقائمِ^(٣)
 وما الجارُ بالراعِيك ما دمتَ سالماً ويزُحَلُ عندَ المضِيعِ المتفاقمِ

هذه المنزلة الكبيرة التي احتلها الأخطل عند قبيلته من جهة وعند البيت الحاكم من جهة أخرى ، قد ربطت بين التغلبيين والأمويين ، وكان لها أثر عظيم في توجيه سياسة القبيلة ، وتعليق مصالحها بقيام البيت الأموي . وقد ظهر أثر ذلك واضحاً في أيام الفتنة التي تلت موت يزيد بن معاوية ، فقد شذت تغلب على قبائل العراق ، التي كانت يداً واحدة على الأمويين ، وقد بُعِثت من جديد تلك الحزازات القديمة بين الشام والعراق ، فوقفت موقفاً ظاهره الحباد ، وباطنه الولاء للأمويين . كانت النصرانية غالبية على تغلب ، فلم يكن يقبل منهم رأي في خلافة المسلمين ، ولم يكن من شأنهم أن يخوضوا فيما يخوض فيه الناس من حروب ، في سبيل إقرار هذا الخليفة أو ذاك . فاعتزلوا أول الأمر إلا قليلاً من رجالهم المسلمين ، كانوا يفرون مع عير وزُفَر على كلب واليمنية ويدلون^(٤) ، ولكن القبيلة في معظمها ظلت على حيادها الشاذ ، وسط هذه الكتلة الزبيرية ، التي تحيط بها من كل مكان ، تترقب الظروف ، وتشارك الأمويين بمواطنها ، ولكنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً . ولم يكن بد من أن ينتهي موقفها بالحرب ، فالقيسية

(١) ولم تود قتلَى عبد شمس وهاشم هؤلاء رجال من قومه ذمهم لأنهم لم يميؤوا لسي حالته . لم تود قتلهم أي لم يؤخذ بشأهم .

(٢) الثفر للسباع بمنزلة الحيلة للناقة وهو لرجلها . وقد يستمر من السباع فيجمل للأنسان . الثوردة يقصد بها أنثى الثور أو البقرة . المتضاجم المائل .

(٣) المولى هنا ابن العم المخلص لقبيلته . الرغد العطاء . العقائم الشدائد .

(٤) ابن الأثير : ٤ : ٣ .

لا يَنْقُطُ عَنِ التَّحَرُّشِ بِهِمْ ، لَمَّا هُوَ مَعْرُوفٌ مِنْ مِيلِهِمُ الْأُمَوِيُّ ، فَهَمُ يَسْتَأْوُونَ
جَوَارِهِمْ ، وَيَسْتَخْرُونَ مَشَائِجَهُمْ مِنَ النَّصَارَى ، وَيُغَيِّرُونَ عَلَى إِبْلِهِمْ وَمَاشِيَتِهِمْ .
كُلُّ ذَلِكَ وَالتَّغْلِييُونَ يُؤْثِرُونَ السَّلْمَ ، لِكثَرَةِ عَدُوْمِ حَوْلِهِمْ . فَهَمُ يَشْتَكُونَ إِلَى
زَعِيمِهِمْ 'عُمَيْرِ بْنِ الْحُبَّابِ' ، فَلَا يَنْهَرُهُمْ وَلَا يَكْفُهُمْ ، فَيَتِمَادُونَ فِي الْاِعْتِدَاءِ ، حَتَّى
قَارَ التَّغْلِييُونَ مَسْتَقْتَلِينَ ، تَتَقَدَّمُهُمْ أَعْلَامُ النَّصْرَانِيَّةِ ، قَدْ رَسَمَ عَلَيْهَا
الصَّلِيبَ ^(١) ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الْأَخْطَلُ :

لَمَّا رَأَوْنَا وَالصَّلِيبَ طَالِعًا وَمَارَ سَرَجِيْسَ وَسَمًا نَاقِعًا
وَأَبْصَرُوا رَايَاتِنَا لَوَامِعًا كَالطَّيْرِ إِذْ تَسْتَوِرُ الشَّرَائِعَا
وَالْبَيْضَ فِي أَكْفُنَا قَوَاطِعَا خَلَّوْا لَنَا رَاذَانَ وَالْمَزَارِعَا ^(٢)

وَتَتَابَعَتِ الْوَقَائِعُ بَيْنَ تَغْلِبَ وَبَيْنَ الْقَيْسِيَّةِ ، الَّذِينَ كَانَ يَتَزَعَّمُهُمُ الْجَحَافُ بْنُ
حَكِيمٍ وَعُمَيْرُ بْنُ الْحُبَّابِ السُّلَمِيَّانِ وَزُفَرُ بْنُ الْحَارِثِ الْكِلَابِيِّ . وَوَقَفَ الْأَخْطَلُ
الْمَوْقِفَ الَّذِي يَنْبَغِي لِمِثْلِهِ ، يَسْجُلُ انْتِصَارَاتِ قَوْمِهِ ، وَيَهَاجِمُ الْقَيْسِيَّةَ وَشُعْرَاءَهُمْ ،

(١) ذهب الدكتور غازي في كتابه (الاخطل شاعر بني أمية) الى ان تغلب انضمت في
أول امرها الى القيسية ، حفاظا على ما سماه عصبية نزار . وكل ما قدمه في ذلك من
ادلة غير مقنع . بل هو يدل على العكس في بعض الاحيان . فنص ابن الاثير الذي يشير
الى ان القيسية كانوا يستأوون جوارى بني تغلب - أي انهم كانوا يجيرون نساءهم على
ايوائهم - ويستخرون مشايخهم ، يعني انه لم يكن بينهم من التفاهم ما يجعلهم يؤوونهم بدافع
العصبية النزارية المزعومة . أما اشتراك بني تغلب مع القيسية في قتال
بني كلب فقير صحيح . وكل الذي ذكره ابن الاثير هو ان (قوما من
تغلب) كانوا يتبعون القيسية بوصفهم أدلاء يرشدوهم الى الطريق بحكم خبرتهم بمسالك
أرضهم . ولا يخفى ان اشتراك تغلب في مقالة كلب يناقض ما هو ثابت من عصبيتهم
الأموية . والشعر الذي أورده للأخطل يشير فيه الى عصبية نزار لا يدل على أكثر من
مسألة الاخطل لزفر بن الحارث انقاء شره .

(٢) الشريعة مورد الماء . وراذان هو الثرثار ، نهر او واد كبير في منازل تغلب بين
مستجار وتكريت ، كانت فيه وقعة مشهورة بين تغلب وقيس .

كالبغلة الجعدي ، ونُبْقِيع بن صفار الحارثي ، ونعيم بن أبي بن مقبل . وكان من أعنف ما هجّاه به :

ألا يا أسلمي يا هندُ هندَ بني بدر وإن كان حيًّا نأعدِّي آخرَ الدهر

وهو يتبع فيها قبائل قيس بأعنف الهجاء وأفحشه ، ويفتخر بقتل ابن الحُبَاب ، معتدًّا بذلك عند الأمويين . والقصيدة تمتاز بقوة التصوير الهجائي ، الذي ينزل إلى الفحش البذيء . في بعض الأحيان . وبالقسوة الوحشية في تصوير مناظر الحرب البشعة ، وطول النفس ، مع الاحتفاظ بالمستوى الشعري الممتاز حتى البيت الأخير منها . انظر إلى ما في شعره من عنف حين يخاطب القيسية :

لقد حملت قيسَ بنَ عيلان حربنا على يابس السِّيساء مُحدّوِّب الظَّهر^(١)
.. رَكُوبٌ على السَّوآت قد خرَّم أمته مقارعة الأعداء والنَّخسُ في الدُّبر^(٢)

وانظر إلى بني محارب في جلبتهم وضوضائهم ، كأنهم الضفادع التي لا تنقطع عن النقيق ، تتجاوب أصواتها ، فتجني على نفسها ، لأنها تدل حية البحر على موضعها :

تَنِقُّ بلا شيء شيوخُ محارب وما خلَّتها كانت تریشُ ولا تَبْرِی
ضفادعُ في ظلماء ليل تجاوبتُ فدل عليها صوتها حيَّة البحر
ثم انظر إلى هذه الصورة البشعة ، التي يخوض فيها حين يخاطب الشاعر

(١) السيساء العمود الفقري الذي ينتظم فقار الظهر في الحيوان . صور ما يحتملون من الحرب بما يحتمل الراكب على دابة هجفاء محدودة الظهر بارزة فقاره .
(٢) الحديث هنا عن ابن بدر الذي وصف هربه من المعركة في أبيات سابقة .

القيسي "تَفَيْعَ بنَ صَفَّارِ المَهاربي، وإلى استخفافه به وبشعره ، الذي لا يثبت
لشعر الأخطل ، فكانه إفاك فرعون وسعرتة ، أمام حية موسى ، لا يلبث
أن يتضاءل ويذول :

وكان ابن صَفَّار هجين محارب كقتبس مني شهاباً على ذعر
وقد وسمت عينيه إذ طرقت به من الورق دَفْراً المَقْدُون والنحر^(١)
إذا انفرجت عنه الأشاعر رَدَّه عن القصد بَظُرُ مثْلُ أرنبه النسر
تخلُّ ابنَ صَفَّار فلا تَرُمُ العلي ولا تذكُرْنَ حَيَّات قومك في الشعر
فقد نهضت للتغلبين حية كحية موسى يوم أيد بالنصر

وانظر إلى هذا الشاعر القيسي الآخر ، نعم بن أبي بن مقبل العامري ، وإلى
رملته بني العجلان ، 'يسودم قومهم وهم من الأم الناس . وتأمل هذه الصورة
الساخرة ، التي يصور فيها هؤلاء الذين يترعرعون الناس ، يبخلون على غلامهم
بالزاد ، حتى يكاد يقتلهم الجوع ، ولا يزال غلامهم يبكي من شدة جوعه ، وقد
تعمَّس وجهه ، وراح في بكائه بذلك عينيه بيديه ، كأنه الحفاش ، حتى تمس
الوليدة كثرة صياحه ، فتلقي به في زاوية مظلمة من أركان البيت ، مصمة أذنيها
عن صراخه . وانظر إلى رثاثة نسايم وقاءتهن ، يتكفن من أعمال الرعي وحمل
المتاع ، قد لصقت الأوضار يحلودهن ، كأنما طليت سواد القِدر . وتآكلت
كمويهن من طول الرعي . ويبدت أعجازهن من حمل القرب ومراكب النساء :

(١) طرقت المرأة والقطاة إذا مر خروج الولد والبيضة . رجل ورق وامرأة ورق
حيسان . دفراء المقدنين : الدفرتن الرائحة ، المقدان ما خلف اللذين . وهذا البيت
والبيت الذي يليه وصف لشعر ولادة تفيح بن صفار وهو تصوير بشع يقتشر منه البدن .
وهذه البشاعة والوحشية والتصوير الكالح الفظ من خصائص الاخطل كما سنرى .

إِذَا التَّمَسَّ الْأَقْوَامُ فِي النَّاسِ ذِكْرَهُمْ فذِكْرُ بَنِي الْعَجْلَانِ مِنْ أَقْبَحِ الذِّكْرِ
 وَقَدْ سَرَنِي مِنْ قَيْسِ عَيْلَانَ أَنَّنِي رَأَيْتُ بَنِي الْعَجْلَانِ سَادُوا ابْنِي بَدْرَ
 وَقَدْ غَبَرَ الْعَجْلَانُ حِينًا إِذَا بَكَى عَلَى الزَّادِ أَلْقَتْهُ الْوَلِيدَةُ فِي الْكِسْرِ
 فَيُصْبِحُ كَالْخَفَاشِ يَدْلُكُ عَيْنَهُ فَقُبَّحَ مِنْ وَجْهِ لَثِيمٍ وَمِنْ حَجَرٍ
 وَكُنْتُمْ بَنِي الْعَجْلَانِ أَقْصَرَ أَيْدِيَا وَالْأَمَّ مِنْ أَنْ تَبْلُغُوا عَالِيَ الْأَمْرِ
 بَنِي كُلِّ دَسْمَاءٍ الْإِهَابِ كَانَمَا كَسَاهَا بَنُو الْعَجْلَانِ مِنْ حُمَمِ الْقَدْرِ
 تَرَى كَعْبَهَا قَدْ زَالَ مِنْ طَوْلِ رَعِييَهَا وَقَاحَ الذَّنَابِيِّ بِالسُّوَيْيَةِ وَالزَّرْفَرِ^(١)

وانظر إلى هذه الصورة البشعة ، التي يصور فيها امرأة من نساء قيس ،
 قد أثنختها الجراح ، فخرت صريمة على الأرض ، قد تدلى منها جنينها ، ملففاً
 في هذه اللفائف التي تكون على الجنين في البطن ، والطير تحوم من حولها تضرب
 عينيها وتعبت بأحشائها ، وهي تلفظ آخر أنفاسها :

وَكَمْ مِنْ جَنِينٍ بَاتَ يَنْزِعُ نَفْسَهُ لِقَيْسِيَّةٍ قَدْ هَكَّهَا السِّيفُ بِالْخَضِرِ
 سُلَيْمِيَّةٍ سُدَّاءَ أَوْ عَامِرِيَّةٍ تَجُرُّ سَلَاهَا حِينَ تَنْهَضُ بِالصَّدْرِ^(٢)
 بِهَا رَمَقٌ فَالطَّيْرُ تَبْقُرُ بَطْنَهَا وَتَضْرِبُ عَيْنَهَا قَوَادِمُ مَنْ نَشَرَ

(١) الذَّنَابِيُّ يعني به هنا العجز . قَاحٌ مِنَ الْقَيْحِ . السُّوَيْيَةُ كَسَاءٌ مَحْشُوٌّ بِشَمَامٍ (يَغْسَمُ
 النَّاءُ) يَوْضَعُ لَعْتَ الرَّاكِبِ وَهُوَ مَرْكَبٌ خَشَنٌ مِنَ مَرَائِبِ الْأَمَاءِ . الزَّرْفَرُ (بَكْرُ السَّوَايِ)
 الْحَمَلُ وَالْقَرِيَّةُ وَجِهَازُ الْمَسَافِرِ يَقُولُ أَنَّهُمْ مِنَ الْأَمَاءِ يَشْتَغِلُونَ بِالرَّمْيِ حَتَّى حَفِيَتْ كُمُوبُهُمْ ،
 وَيَرْكَبُونَ مَرَائِبَ الْأَمَاءِ وَيَحْمِلُونَ الْأَحْمَالَ حَتَّى دَمِيَتْ أَصْجَارُهُمْ .

(٢) السُّلَى الْكَيْسُ الَّذِي يَكُونُ الْجَنِينُ فِي دَاخِلِهِ .

وانظر إلى هذه الصورة الدقيقة الرائعة ، التي يصور فيها هذا السيد القيسي الذي أخذته الرماح من كل مكان ، حتى ألجأته إلى الهرب . فهو يستحث فرسه على العدو ، وقد تحلب من أعطافها الماء . كأن في بطنها ومجرى حزامها قرَّباً تَسْحُ الماء . ترمي برجليها موسعة الوثب . ولا تكاد تمس الأرض . كأنها تسبح في الفضاء ، أو تعوم في بحر من الغبار المتكاثف ، الذي يثيره من حولها هذا الزحام المضطرب العنيف . والرماح تنوشه من كل جانب ، تكاد تناله ولما تنله ، وقد انخلع قلبه من الذعر ، فراح يلهب ظهر الفرس في عدو جنوني . فكأنه عقاب يسرع إلى وكیره ، وقد أقبل عليه ظلام الليل . وظل في شدة فزعـه وذهوله ، يُفدِّيها بنفسه وأمه ، قائلاً : فدِّي لك أُمي إن دأبت إلى العصر . والله لو أدركته الرماح ، لتركته جثة مهملة في الصحراء يتوسد كفه ولا يضمه قبر ، فهو نهب الضباع وكوامر الوحوش .

ونجى ابن بدر ركضه من رماحنا بنضاحة الأعطاف ملهبة الحضر^(١)
 إذا قلت نالته العوالي تقاذفت به سوحق الرجلين سابحة الصدر
 كأنها والآل ينجاب عنها إذا هبطا وعثا يعومان في غمر^(٢)
 كأن بطبييتها ومجرى حزامها أداوى تسح الماء من حور و فر^(٣)

(١) نضاحة الاعطاف يعني فرسا تنضج اعطافها بالمرق لثدة ما اجهدها الجري ، الحضر العدو . ملهبة الحضر الهيت ليستخرج أقصى ما عندها من العدو . سوحق الرجلين طوليتهما . سابحة الصدر كان صدرها سابح في الفضاء لمرمتها فهي لا تكاد تمس الأرض .
 (٢) كأنها يعني ابن بدر وفرسه . الآل السراب . ينجاب ينكشف . الوعث الأرض السهلة الرخوة تضيق فيها الاقدام . الغمر الماء الكثير يشبهه حين يحيطه الغبار الذي يثور حوله وحول فرسه بالذي يسبح في ماء .

(٣) الأطباء : اللداء واحدا طبي (بضم الطاء وسكون الاء) . الحور جلد مدبوغ . وفر فخام . يصف المرق الذي يتحلب من بين لثديها ومن موضع حوامها بالماء المتدفق من قرب فخام . الإداوة إزاء صغير من جلد يتخذ للقاء

فَظَلَّ يُفَدِّيَهَا وَظَلَّتْ كَأَنهَا عُقَابٌ دَعَاها جُنْحُ لَيْلٍ إِلَى وَكْرٍ^(١)
 وَظَلَّ يَجِيشُ الْمَاءَ مِنْ مُتَفَصِّدٍ عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ هَزَائِمِهِ يَجْرِي^(٢)
 يُسِيرُ إِلَيْهَا وَالرَّمَاحُ تَتَوُشُّه فِدَى لَكَ أُمِّي إِنْ دَابَّتْ إِلَى الْعَصْرِ
 وَبِاللَّهِ لَوْ أَدْرَكَتْهُ لَاضْطَرَّرَ نَه إِلَى صَعْبَةِ الْأَرْجَاءِ مَظْلَمَةِ الْقَمَرِ^(٣)
 فَوَسَدَ فِيهَا كَفَّهُ أَوْ لَحَجَلَتْ ضِبَاعُ الصَّحَارَى حَوْلَهُ غَيْرَ ذِي قَبْرِ

وهو في آخر القصيدة يتجه إلى الخليفة فيقول : إننا نستغني بك عن عداك ،
 فما بنا من حاجة إلى صلاح قيس وأنت أمير المؤمنين . لقد بايعت قيس ، وفزعت
 إليك تطلب العذر عما قدمت ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك عن إسلام أو حب ،
 وإنما دفعهم إليه الذل كارهين . ويفتخر بعد ذلك بموقف قبيلته من الدولة
 وعدائها لمصعب بن الزبير ، ومحاربتهم جنده من القيسية ، وقتلهم رأسهم الذي
 دفعهم إلى الفتنة ، عمير بن الحُبَاب :

وَأَنْتَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا بَنَا إِلَى صَلَاحِ قَيْسٍ يَا ابْنَ مَرْوَانَ مِنْ فَقْرٍ
 فَإِنْ تَكُ قَيْسُ يَا ابْنَ مَرْوَانَ بَايَعْتَ فَقَدْ وَهَلْتَ قَيْسُ إِلَيْكَ مِنَ الْعُذْرِ^(٤)

(١) يندبها يقول لها (جملت فداك) . دعاها جنح ليل ، أي خافت دخول الظلام فجدت
 في الطيران عائدة الى وكرها . يشبه فرسه في سرعة عدوها بهذا العقاب .

(٢) يجيش يفيض . متفصد متشق . اهترمت السحابة بالماء وتهزمت تشققت مع
 صوت .. الهزائم الخروق والشقوق . يقول : ظل الفرس يرشح مرقا .

(٣) صعبة الأرجاء مظلمة القمر ، ذلك هو القبر أو الحفرة الضيقة التي يوارى فيها .
 أي : لو أدركته الرماح لقتلته ، فدفعني في حفرة مظلمة ، وقد اتخذ كفه وسادا ، أو ترك
 في الصحراء طعاما للضباع .

(٤) الوهل الفرع . أي ان قيسا فرمت اليك تطلب عدوا مما قدمت .

على غير إسلام ولا عن بصيرة ولكنهم سيقوا إليك على صغر^(١)
ولما تبينا ضلالة مُصْعَبٍ فتحنا لأهل الشام باباً من النصر
فقد أصبحتُ مني هوازنُ كلها كواهي السَّلامى زيدو قرأ على وقر^(٢)
مَمُونًا بِعِزِّ نَيْنٍ أَشَمٍّ وعارض لنمنع ما بين العراق إلى البشر^(٣)
فأصبح ما بين العراق وَمَنْبِجٍ لِتَغْلِبَ تَرْدِي بِالرُّدَيْنِيَّةِ السُّمَرِ
إليك أميرَ المؤمنين نَسِيرُهَا تَخْبُ المطايا بالعَرَائِنِ من بَكْرٍ
برأسِ امرئٍ دَلَّى سَليماً وعامراً وأورد قيساً لُجَّ ذِي حَدَبٍ غَمَرُ^(٤)
فأمرَينَ خَساً ثم أصبحن غُدوةً يُخَبِّرُنَ أَخْبَاراً أَلَذَّ من الخمرِ

ومما يصور قسوة الأخطال الوحشية في الهجاء ، وبشاعة تصويره لمناظر القتال ، هذه الأبيات التي يصف فيها جثة عمير بن الحباب ، وقد تركت في الصحراء عارية من الأكفان ، تنبعث منها الروائح العفنة ، فتدل الضباع على موضعها ، ومن حولها جثث مبعثرة على جوانب الوادي ، قد انتفخت بطونها ، وخرجت أحشاؤها :

أَمْعَشَرَ قَيْسَ لَمْ يَمْتَعْ أَخُوكم عَمِيرٌ بَاكِفَانٌ وَلَا بَطْهَوْرٌ

(١) الصغر الدلة والهوان .

(٢) السَّلامى مقام خف البعير . القر الصدع ، يشبه هوازن في تفرقها بعد هزيمتها بمقام خف البعير وقد تضلعت من ادمان السير .

(٣) المرتين مظم الأنف يريد بالمرائين الإشراف . المارء . الجمع الكثير وأصله السحاب . البشر ماء لبني تغلب .

(٤) أورد قيساً لُجَّ ذِي حَدَبٍ غَمَرُ ، أي أوردتها بحراً من المصائب . ذو الحدب البحر ، والحدب الموج . الغمر الكثير الماء .

تدلُّ عليه الضبعُ رِيحٌ تَضَوَّعتْ بلا تَفَحٍ كافور ولا بعبير
وقتلَى بني رِغْلٍ كأن بطونَهَا على جَلْهَةٍ الوادي بطونٌ حمير^(١)

ومن قصائده التي تمتاز بالفحش ، وبالاتماد على الصور الهجائية ، قصيدته في هجاء النابغة الجعدي أحد شعراء قيس :

لقد جارَى أبو ليلَى بِقَحْمٍ وَمَتَكَيْتْ عَلَى التَّقْرِيبِ وَإِنْ^(٢)
فَنِ إِفْعَاشِهِ فِيهَا قَوْلُهُ .

خَنَافُسٌ أَدْبَجَتْ لِمَبِيتِ سُووٍ وَرِثْنِ فِرَاشِ زَانِيَةٍ وَزَانٍ
وَمَا أُمُّ رِبُوتَ عَلَى يَدَيْهَا بطَاهِرَةُ الثِّيابِ وَلَا أَحْصَانِ
كَأَنَّ عِجَانَهَا لَحْيَا جَزُورٍ تَحَسَّرَ عَنْهَا وَضُرُّ الْجِرَانِ^(٣)

وقد عرف الأمويون لتغلب وشاعرها إخلاصهم للدولة في محنتها وقتالهم في سبيلها ، فأعظموا مكانهم ، وقربوا الأخطل ، حتى بلغ في بلاط عبد الملك قمة مجده السياسي ، فكان شاعر الدولة المقدم . ولقد بلغ من جرأته على الخليفة ، أنه كان في شعره يمين عليه سابق صنع له ، ولا ينقطع عن الإدلال بموقف قبيلته في تيه وعجب ؛ وكان عبد الملك ، مع ما هو معروف من قوته وهيئته ، يحتمل

(١) جلها الوادي جانباه . دمل بطن من بهنة (بضم الباء) من سليم (بمجيئة التصغير)

(٢) أبو ليلَى : كنية نابغة بني جمدة . القم الفرس الكبير السن الموزول الهرم .
التقريب ضرب من العدو . المتكيت والمتكس الضميف . بغيره كبر سنه ومجزه من المفسى
في مساجلته الشعر .

(٣) العجان ما بين القبل والدبر ، اللحي مَنبت اللحية من الإنسان وغيره . الجزود
النافقة المدبوحة . الوضر وسخ الدسم واللبن . جران البعير مقدم عنقه .

منه كل ذلك . بل لقد استطاع أن يقول له في إحدى مدائحہ ، إن قبيلته
أقرت ملك الأمويين :

وقد نصرت أمير المؤمنين بنا لما أذاك ببطن الغوطة الخبر^(١)
واستطاع أن يذهب في الجراءة إلى أبعد من ذلك ، حين نقض الجحاف
عهده ، فأوقع بتغلب في البِشْر . فهو يتهم الخليفة بالتقصير في حماية قومه ،
ويجعله مسؤولاً عن قتل منهم ، فيطالبه بأن يفرم عن القيسية دماءهم ، قائلا
إن الحالة مما تثقل قدم القوم أثقل . وهو يهدد الخليفة بالخروج معتداً بقوة قومه :

لقد أوقع الجحاف بالبِشْر وقعةً إلى الله منها أُلشَتكى والموئل^(٢)
فسائل بني مروان ما بال ذمة وحبل ضعيف ما يزال يوصل^(٣)
بنزوة لص بعد ما مر مُصعبُ بأشعث لا يُفلى ولا هو يُغسل^(٤)
أأمرك الجحاف ثم أمرته بجيرانكم وسط البيوت تُقتل؟^(٥)
لقد كان للجيران ما لو دعوتهم به عاقل الأروى أتنكم تنزل^(٦)
فإن لا تُغيرها قريش بملكها يكن عن قريش مستأز ومزحل^(٧)

(١) الغوطة غوطة دمشق .

(٢) حبل ضعيف ، يقصد العهد الذي بين قومه وبين الأمويين ، يصفه بالضعف لأن
الخليفة لم يستطع أن يحمي قومه من الجحاف السلمي حين أوقع بهم .

(٣) يقصد باللعن الجحاف . يقول له فعلتم هذا بعد أن قتلنا لكم مصعب بن الزبير .

(٤) يتهم بالأمويين يقول هل استأذنتكم الجحاف في قتل جيرانكم الذين يحتمون بكم
فأذنتم لهم .

(٥) الأروى جمع كثرة للأروية وهي أنثى الومل . والمائل المتنح في الجبال العالية .
يقول لقد كان للجيران عليكم عهد ينزل الأروى المنتعم بأهالي الجبال .

(٦) مستأز من مأز الرجل وأماز واستأز انتقل من مكان إلى مكان متنحياً . زحل
تباعه . وفي رواية أخرى (ومزحل) .

وَنَعْرُزُ أَنَاكَ عَرَّةً يَكْرَهُونَهَا وَنَحْيَى كَرَاماً أَوْ نَمُوتُ فَنَقْتُلُ^(١)
وإن تحملوا عنهم فما من حَمَالَةٍ وإن ثقلت إلادِمُ القومِ أَثْقَلُ^(٢)
وإن تَعْرِضُوا فيها لنا الحقَّ لم نكن عن الحقِّ عِمِياناً بل الحقَّ نسال
وقد نَزَلَ الشَّغَرَ الخوفَ وَيُتَقَى بنا البأسُ واليومُ الأغرُّ المحجَّل

كان الأخطل لسان الحكومة الذي يعبر عن رأيها واتجاهاتها . فهو يصور بغض الأمويين لهذا الحزب القيسي ، الذي ظل مكروهاً من عبد الملك ، لا يُقَرَّبُ به ولا يثق به . فلا تكاد تخلو قصيدة في مدح عبد الملك من هجائهم ، والتحدث عن نفاقهم ، ونبش قديم كيدهم للدولة وانحرافهم عنها . يقول في قصيدته :

لعمري لقد أسريت لأليل عاجزٍ بساهمة الخدين طاوية القُرب^(٣)
... عَتَبْتُمْ عَلَيْنَا قيس عيلان كلِّكم وأيُّ عدوٍّ لم نُبَيْتْهُ على عَتَب
لقد علمت تلك القبائل أننا مصاليتُ جذاً مومن آخِيَةِ الشَّغَبِ^(٤)
فإن تَكُ حَرْبُ ابْنِي نَزَارَتُوا ضَعَت فقد عَذَرْتَنَا فِي كلابٍ وفي كعب
وفي الحُقْبِ من أفناء قيسٍ كأنهم بمنعرجِ الثَّرثارِ خُشْبٌ على خُشْبِ^(٥)

(١) مره بشر لطفه به . والعمر (بفتح العين) في أصل معناه هو الجرب (بفتحتين) .

(٢) الحماله الدية والغرامة .

(٣) يرى سير الليل . الساهم الشاحب الضامر . القرب الغاصرة .

(٤) المملات الشجاع . الجدم القطع . الاخية خشبة تدفن في الارض يشد فيها جبل تربط به الدابة . الشغب تهيج الشر .

(٥) العقب جمع عقب وهو العمار الوحشي الأبيض في حقيقه ، والحقن (بفتح الحاء) الخمر . أفناء قيس اخلاطهم . الثرثار وأذ ظليم بالجزيرة وهو في البرية بين سنجار وتكريت تسكنه غلب ، وبه كانت وقائع مشهورة بينهم وبين قيس ميلان في أيام الفتنة الثانية .

وهنَّ أذقنَ الموتَ جزءَ بنَ ظالمٍ بماضيةِ بينَ الشراسيفِ والقُصْبِ^(١)
 فظَلَّتْ بنو الصمماءِ تاويَ فلولُهم إلى كلِّ دسما الذراعينَ والعَقْبِ^(٢)
 وقد كانَ يوما راهطه من ضلالكم فناءَ لأقوامٍ وخطباً من الخطبِ
 تُسامونَ أهلَ الحقِّ بأبنَى محاربٍ ورهطِ بني العَجَلانِ حُسْبُك من رُكْبِ^(٣)
 قرومُ أبي العاصي غداةَ تَحَمَّطتْ دمشقُ بأشباهِ المهتأةِ الجُربِ^(٤)
 يقودونَ موجاً من أميةٍ لم يرثْ ديارَ سليمى بالحجاز ولا الهضْبِ
 ملوكُ وحكامُ وأصحابُ نَجْدَةٍ إذا شوغبوا كانوا عليها أو لي شَغْبِ

ويعرض بزعيمهم زفر بن الحارث في قصيدة يمدح بها بشر بن مروان فيغتمها بقوله :

فلا تجعَلَنِي يا ابنَ مروانَ كأمريءٍ غلتُ في هوى آل الزبير مرَّاجِلُهُ
 يُبَايعُ بالكفِّ التي قد عرَفَتَهَا وفي قلبه نأموُسُه وغوائلُه
 وقد اتخذ هجاءَه للقيسية صورةَ جديدةٍ في النقائض التي اتصَلتَ بينه وبين

(١) الشراسيف أطراف الأضلاع من أسفل الجنب . القصب الممران . جزء بن ظالم الحارث بن ظالم الذي قتل ابن النعمان وكان من فتاك العرب المشهورين ، والاخلط يفتخر هنا بقتلهم هذا البطل .

(٢) بنو الصمماء أخوة عمير بن الحباب نزلهم بذلك . والصمماء الصغيرة الأذن . دسما اللرامين من الوسخ والافتادار .

(٣) أهل الحق يعني بني أمية . محارب وبنو العجلان من قبائل قيس ميلان .

(٤) القروم جمع قرم وهو السيد على التشبيه بفحل الإبل . تخطت تكبر وغضب . المهتأة الإبل المظلية بالقطران وذلك حين تداوى من الجرب . والعرب تصف الجيش بالسواد لكثرة ما عليه من الدروع والحديد .

جرير ، وكان عمادها هجاء الأخطل لهذا الحزب الزبيري المنحرف عن الأمويين ، وانتصار جرير له وهجو تغلب وشاعرها النصراني .

ومن أروع ما يصور الهجاء السياسي الممتاز نقيضة الأخطل المشهورة :

خَفَّ الْقَطِينُ فَرَا حَوْأَ مِنْكَ أَوْ بَكَرُوا وَأَزْعَجْتَهُمْ نَوَى فِي صَرْفِهَا غَيْرٌ^(١)
وهو يمزج المدح فيها بالهجاء . يرفع من قدر الأمويين ، معرضاً بأعدائهم من
القيسية ، متشتمناً بما لحقهم من ذل وانكسار ، مباهياً بشاركة قبيلته في إقرار
الخلافة . وأين يذهب هؤلاء الحمقى من عبد الملك ، وهو أعلى الناس همة ، وأقوام
مُتَّة ، وأصبرهم على قتال :

لَا يَطْعَمُ النَّوْمَ إِلَّا رَيْثَ بَيْعَتِهِ هُمُ الْمُلُوكِ وَجَدُ هَابِهِ الْحَجَرِ
مَفْتَرِشٌ كَافْتَرِاشِ اللَّيْثِ كَلَّكَلَهُ لَوْعَةٍ كَانَتْ فِيهَا لَهُ جَزَرٌ^(٢)
حتى تكون له بِالطَّفِّ مَلْحَمَةٌ وَبِالثَّوِيَّةِ لَمْ يُنْبِضْ بِهَا وَتَرٌ^(٣)
وتستبين لأقوامٍ ضلالتهم وَيَسْتَقِيمُ الَّذِي فِي خَدِهِ صَعَرٌ
يَعْلُو الْقَنَاطِرَ بَيْنِيهَا وَيَهْدُمُهَا مُسَوِّمٌ فَوْقَهُ الرَّايَاتُ وَالْقَتَرُ^(٤)
حتى استقلَّ بِأَثْقَالِ الْعِرَاقِ وَقَدْ كَانَتْ لَهُ نِقْمَةٌ فِيهِمْ وَمُدَّخَرٌ^(٥)

(١) خف القوم ارتحلوا سرعين . راحوا من الرواح وهو ضد البكور . ازعجتهم نوى
أقلقتهم . غير الدهر وصروفه حوادثه .

(٢) الجزر كل شيء مباح للذبح .

(٣) الطف أرض من ضاحية الكوفة كان فيها مقتل الحسين رضي الله عنه . الثوية
موضع قرب الكوفة . لم ينبض بها وتر لأن الجيشين ملتحمان فليس بينهم إلا الضرب والطمس .
وانما يترامى الجيشان بالنبل إذا كانا بعيدين قبل أن يلتحما .

(٤) مسوم معلم بعلامة يعرف بها . وكان الفرسان المشهورون يعلمون أنفسهم . وقت
القتال ليعرفوا من سائر الناس . القتر غبار المعركة .

(٥) نقمة فيهم ومدخر : سبقت اليهم نقمته ولا يزال يدخر لهم الوانا من النكال .

وماذا يعيبون على بني أمية أو ينقمون منهم وهم :

في نَبْعَةٍ من قريشٍ يَعَصِبُونَ بها ما إنْ يُوَازَى بأعلى نبتِها الشَّجَرُ
عَلَتْ هَضَاباً وَحَلَّوْا في أُرُومِهَا أهلُ الرِّيَاءِ وأهلُ الفَخْرِ إنْ فَخَرُوا
حُشِدُوا على الحقِّ عَيَّافُوا الخَنَا أنْفَ وإنْ أَلَمْتُ بهم مَكْرُوهَةٌ صَبَرُوا
وما الذي غرهم من بني أمية حتى ركبوا رؤوسهم ، وهم أوسع الناس حيلة ،
وأشدهم بطشاً :

لا يَسْتَقِيلُ ذُوو الأَضْغَانِ حَرَبَهُمْ ولا يُبَيِّنُ في عِيدَانِهِمْ خَوْرُ
وإنْ تَدَجَّتْ على الآفَاقِ مُظْلِمَةٌ كانَ لَهُمْ مَخْرَجٌ مِنْهَا وَمُعْتَصَرٌ^(١)
شَمْسُ العَدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقَادَ لَهُمْ وَأَعْظَمُ النَّاسِ أَحْلَاماً إِذَا قَدَرُوا^(٢)

وهل يستحق هؤلاء المارقون الذين أنزلهم السيف على حكمه ، فأعطوا عن
يدٍ وهم صاغرون ، إلا الذل والهوان ؟ وكيف يأمن الخليفة لزعيمهم وهو عدوه
الذي استباح دم جنده وأوليائه ، وإنه ليخفي في نفسه الغل الدفين والحقد
الكمين :

بني أمية إني ناصحٌ لكم فلا يبيتنَّ فيكم آمناً زُفَرٌ^(٣)

(١) تدجّت اظلمت . مظلمة كارثة أو مصيبة . معتصر ملجأ ومعتل .

(٢) رجل شמוש عر في مدواته ، والشماس الإباء ، والفرس الشموس الذي يستعصي على راحبه .

(٣) هو زفر بن الحارث الكلبي من زعماء القيسية الذين حاربوا الأمويين ، وكان قد
هرب ثم آمنه عبد الملك ، وهو القائل :

فقد نبت المرمى على دمن الثرى وبقى حزازات النفوس كما هيا

وَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنْ شَاءَ هَذِهِ وَمَا تَغِيَّبَ مِنْ أَخْلَاقِهِ دَعَرُ
 إِنْ الضَّغِينَةَ تَلْقَاهَا وَإِنْ قَدُمْتَ كَالْعَرِّ يَكْمُنُ حِينًا ثُمَّ يَنْتَشِرُ^(١)

أَتَقْرَبُونَ مِنْكُمْ هَذَا الرَّجُلَ ، وَسَيْفُهُ يَقْطُرُ مِنْ دِمَاءِ قَوْمِي ، الَّذِينَ بَذَلُوا
 أَنْفُسَهُمْ فِي إِقْرَارِ مُلْكِكُمْ ؟ أَلَمْ أَتَاخَلْ دُونَكُمْ أَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ ؟

حَتَّى اسْتَكَانُوا وَهُمْ مَنِيٌّ عَلَى مَضَضٍ وَالْقَوْلُ يَنْفُذُ مَا لَا تَنْفُذُ إِلَّا بَرٌّ
 وَقَيْسَ عَيْلَانَ حَتَّى أَقْبَلُوا رَقَصًا فَبَايَعُوكَ جَهَارًا بَعْدَ مَا كَفَرُوا
 ضَجُّوا مِنَ الْحَرْبِ إِذْ عَصَّتْ غَوَارِبُهُمْ وَقَيْسُ عَيْلَانَ مِنْ أَخْلَاقِهَا الضَّجَرُ
 فَلَا هَدَى اللَّهُ قَيْسًا مِنْ ضَلَالَتِهَا وَلَا لَعَا لِبَنِي ذَكْوَانَ إِذْ عَثَرُوا^(٢)

وَيَنْدَفِعُ الْأَخْطَلُ فِي الْفَخْرِ بِقَوْمِهِ ، وَنَصَرَهُمْ عَبْدُ الْمَلِكِ ، وَقَتْلَهُمْ عِمْرُ بْنُ
 الْحُبَابِ رَأْسُ سُلَيْمٍ الَّذِي دَلَاهُمْ إِلَى الْفِتْنَةِ ، وَقَادَهُمْ إِلَى الْحَتِّ وَالْهَلَاكِ . وَتَسْتَبِيرُهُ
 ذِكْرُ الدِّمِّ وَمَنَاطِرُ الْقِتَالِ ، فَيَبْلُغُ مِنْهُ الْغَضَبُ وَالْحِمَاسُ حِدَ الْوَحْشِيَّةِ وَالْفُلْظَةِ
 الْقَاسِيَةِ ، حِينَ يَصِفُ جِثَّتَهُ مَطْرُوحَةً فِي مِيدَانِ الْقِتَالِ ، وَقَدْ حُزَّتْ رَأْسُهَا
 وَحُمِلَتْ بَعِيدًا عَنْهَا إِلَى الْخَلِيفَةِ ، بِقَدَمِهَا لَهُ حَامِلُهَا مَعْرُوفًا بِصَاحِبِهَا ، وَقَدْ
 صَحَّتْ مِنْهَا الْأَذَانُ ، وَخَرَسَ اللِّسَانُ ، وَمَزَقَ السَّيْفُ خَيْشُومَهَا . وَتَمَرَّ رَأْسُ
 ابْنِ الْحُبَابِ وَهِيَ فِي الطَّرِيقِ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بِذَلِكَ الْحَيِّ مِنْ (غَسَّانِ) ، الَّذِي
 كَانَ يَسْتَخْفِ بِهَمْ عُمَيْرٌ وَيَصْغَمُ بِأَنَّهُمْ رِعَاةٌ ، فَيَنْظُرُونَ لِرَأْسِهِ سَاخِرِينَ وَيَقُولُونَ :
 كَيْفَ رَأَيْتَ بَلَاءَ الرِّعَاةِ ؟ وَهَذَا هُوَ الْحُرْثُ بْنُ أَبِي عَوْفٍ لَعِبَتْ بِهِ السُّيُوفُ حَتَّى
 تَرَكْتَهُ جَزَرَ الْعُقْبَانِ وَالْحِدَا ، تَحُومُ حَوْلَ جِثَّتِهِ ، وَتَقْتَنَازِعُ لَحْمَهُ :

(١) المر الجرب ، يقول ان الحقد يظل كامنا في النفس كالجرب يسكن فيظن انه قد انصرف ولكنه لا يلبث ان ينتشر .

(٢) لا لما يعنى لا ارتفعوا ، يقال لا لما للفلان اي لا اتاهه الله .

وقد نصرت أمير المؤمنين بنا لما أتاك بيطن الفوطة الحبر
يعرفونك رأس ابن الحباب وقد أضحى ولل سيف في خيشومه أثر
لا يسمع الصوت مستكّام سامعه وليس ينطق حتى ينطق الحجر
أمت إلى جانب الحشاك جيفته ورأسه دونه اليمحوم والصور^(١)
يساله الصبر من غسان إذ حضروا والحزن كيف قرأك الغلّة الجش^(٢)
والحرث بن أبي عوف لعين به حتى تعاهره العقبان والسبر^(٣)

انظر إلى ما يشتمل عليه هذا الهجاء من غضب وحشي ينزع من قلبه كل
رحمة ، وإلى ما يخوض فيه من تفصيل تقشعر منه الأبدان ، وإلى هذه الألفاظ
القاسية التي يستعملها في وصف جشته حين يسميها (جيفة) وأنفه حين يسميه
(خيشوما) .

هذه الفلطة القاسية هي طابع الأخطل الذي تنقسم به كل أهاجيه ، وهذه
الألفاظ البدوية الحشنة ، بما فيها من ضخامة تصك الأسماع ، هي أنسب الأثواب
لهذه الفلطة البالغة . لم يكن الأخطل متهمكماً ساخراً كجبرير ، ولم يوهب هذ

(١) الحشاك واد بارض الجزيرة بين دجلة والفرات كانت فيه وقعة بين قيس وتغلب
وفي هذه الواقعة قتل عمير بن الحباب من زعماء قيس . واليمحوم موضع بالشام والصور
قرية على شاطئ الخابور .

(٢) الصبر والحزن حيان من غسان . الجش الرعاة الذين يبعدون بابلهم من العمران .
كان عمير يسخر من بني تغلب ويقول (انما هم جش) والاخطل يسخر به هنا ويقول انهم
قد حملوا رأسه لهؤلاء الاقوام من بني غسان فسأله متهمكين : كيف رايت قرى هؤلاء
الفلمان من الرعاة ؟ وانما قروه الموت .

(٣) الحارث بن أبي موف من رجال بني عامر بن صعصعة (من قيس عيلان) . السبر
طائر شبيه بالصقر . تماورة العقبان والسبر تداولته .

الذكاء الذي يلهم النكتة الباردة ، والصورة التي تستفز للضحك ، فهو غاضب دائماً حين يهجو ، يذهب الغضب بكل ما في مزاجه من دعابة . وقد تجدد في هجائه كثيراً من الصور القوية ، ولكنها صبور كالحلة دائماً يفشيها عبوس مظلم واجم . فهو رجل غليظ قاس لا تعرف الرقة إلى قلبه سبيلاً . ولم يكن من محض الصدفة والاتفاق أن يخلو ديوان هذا الشاعر الكبير من الرثاء ، فالواقع أن هذا الرجل لم يكن يستطيع الحزن ، ولم تكن مصيبة إنسان مهما عظمت لتحرك قلبه أو تثير عطفه ، بل لقد كانت المناظر المثيرة للحزن ، لا تثير في نفسه إلا الوحشية الفظة ، والثورة الهاجئة .

كان الأخطل ، كما تقدم ، لسان الأمويين الذي يعبر عن ميولهم واتجاهاتهم في مدائحهم وفي أهاجيه على السواء . فهو يثني على ولائهم المعروفين بالشدة التي تتجاوز حدود العدالة ، مبرراً مسلكهم ، مؤيداً سياستهم ، وكأنه بذلك يحجب على ما يوجه إليهم من نقد ، وما يرمون به من ظلم واستبداد . فهو يخاطب عبد الملك مؤيداً الحجاج فيما ينتهج من عنف صارم ، يؤدب به هؤلاء المنافقين من أهل العراق ، الذين عرفوا ببلهم عن الدولة وبغضهم لها . فهو ضابط للخراج ، مظفر في الحروب ، لا يزال يسوق إلى الخليفة السبايا والغنائم ، ضارب على أيدي العابثين بالقانون من الخوارج :

فعليك بالحجاج لا تعدلُ به أحداً إذا نزلتُ عليك أمور
ولقد علمتَ وأنتَ أعلمنا به أن ابنَ يوسفَ حازمٌ منصور
وأخو الصفاء فما تزالُ غنيمةُ منه يجيءُ بها إليكَ بَشِير
وترى الرواسمَ يختلِفُنَ وفوقها ورقُ العراقِ سبائكُ وحرير^(١)

(١) الرواسم الأبل . الورق الفضة . وبنات فارس مالهن مهور لانهن سبايا . يملونهم يملون الأبل .

وبنات فارس كل يوم تصطفى يعلونهن وما لهن مهور
 ...واقعد علمت بلاقه في معشر تغلي شناة صدورهم وتفور
 والقوم زأرهم وأعلى صوتهم تحت السيوف غماغم وهريز^(١)
 طلبوا الأزارق بالكتائب إذ هوت

بشبيب غائلة النفوس غدور^(٢)
 يرجو البقية بعدما حدقت به فرط المنية يحصب وحجور^(٣)
 فاباح جمعهم حميداً وانثنى وله لوقعة آخري زئير

ومدح الأخطل عبّاد بن زياد وأخاه مسلم بن زياد فينسبها لأبي سفيان ،
 تؤكد أنهما فعل معاوية من إلحاق زياد ، وإقراراً له في الأذهان والآذان . وكان
 الناس لا يكادون يقولون إلا (زياد بن أبيه) أو (زياد بن سمية) . يقول في
 مدح عبّاد :

إليك أبا حربٍ تدافعن بعدما وصلن لشمسٍ مطلعاً بغروب
 ثم يكرر ذلك بعد أبيات :

ولولا أبو حربٍ وفضل نواله علينا أتانا دهرنا بخطوب

(١) الزئير : صوت الأسد شبه به اصوات المحاربين . الضغمة : الكلام الخفي .
 يقول اقصى ما ترتفع به حناجر المحاربين أن يصفموا لشدة انشغالهم بالقتال ولجفاف
 حلقهم . هر الكلب هريزاً صات دون النباح .

(٢) الأزارقة من فرق الخوارج ومن أشدها تطرفاً . شبيب من زعمائهم كانت له حروب
 كثيرة مع الحجاج حتى مات غرقاً عند جسر دجيل سنة ٧٧ .

(٣) يحصب وحجور من قبائل اليمن ، الأولى من حمير والأخرى من همدان . فرط
 المنية ما سبق اليه منها .

ويقول في أخيه مُسْلِم بن زياد :

نَفْسِي فِدَاؤُهُ أَيْ حَرْبِ غَدَاةٍ غَدَا مَخَالِطُ الْجَنِّ أَوْ مُسْتَوْحِشٌ قَرَقُ

وكان أكثر ما عني الأخطل بتقريره حق الأمويين في الخلافة . فهو يؤكد في كل موضع من شعره أن الله اختارهم للخلافة ، فهم أصاح الناس لها . يقول في عبد الملك ، من قصيدة مدحه بها :

وَقَدْ جَعَلَ اللهُ الْخِلَافَةَ فِيكُمْ لَا يَبِضُّ لِعَارِي الْخَوَانِ وَلَا جَذْبُ^(١)

.. أَهْلُوا مِنَ الشَّهْرِ الْحَرَامِ فَاصْبَحُوا مَوَالِي مَلِكٍ لَا طَرِيفَ وَلَا غَضَبَ

وَلَمْ تَرَ عَيْنِي مِثْلَ يَوْمٍ رَأَيْتُهُ أَتَاكَ بِلَا طَعْنِ الرِّمَاحِ وَلَا الضَّرْبِ

وَلَكِنْ رَأَاكَ اللهُ مَوْضِعَ حَقِّهِ عَلَى رَغْمِ أَعْدَائِهِ وَصَدَادَةٍ كُذِّبَ

ويقول في مدح بشر بن مروان :

أَنْتُمْ خِيَارُ قَرِيشٍ عِنْدَ نَسَبَتِهِمْ وَأَهْلُ بَطْحَائِهَا الْأَثْرُونِ وَالْفَرَاعِ

أَعْطَاكُمْ اللهُ مَا أَنْتُمْ أَحَقُّ بِهِ إِذَا الْمُلُوكُ عَلَى أُمَثَالِهِ اقْتَرَعُوا

وهو يؤكد فضلهم على الناس ، بما لهم من حسب عريق في الجاهلية ، وبخلافة عثمان في الإسلام . فلكم ثابت بحسبهم وقديم فضلهم (ليس بطريف ولا غضب) وليس أعداؤهم من بني الزبير وأنصارهم القيسية إلا خراباً وقطاع طرق ، عاقبهم الله على بغيهم بيد الأمويين :

(١) هذا البيت من سقطات الأخطل التي لاه فيها قدماء النقاد فقالوا (لو مدح بهذا البيت حرسيا لعبد (للك ما أنصفه) فقليل جدا على الخليفة أن يوصف خوانه بأنه ليس حارسيا ولا جذبا .

فَاللهُ لَمْ يَرْضَ عَنْ آلِ الزَّيْزِرِ وَلَا
 عَنْ قَيْسِ عَيْلَانَ حَيَّاطًا لَمَّا خَرُّوا^(١)
 يُعَاظِمُونَ أَبَا الْعَاصِي وَهُمْ نَفَرٌ^(٢)
 بِيضٌ مُصَالِيَةٌ أَبْنَاءُ الْمُلُوكِ فَلَنْ
 كَانُوا مُوَالِيًا حَقٌّ يَطْلُبُونَ بِهِ
 إِنَّ يَكُ لِلْحَقِّ أَسْبَابٌ يُمَدُّ بِهَا^(٣)
 هُمْ سَعَوْا بِابْنِ عَفَانَ الْإِمَامِ وَهُمْ
 حَرْبًا أَصَابَ بَنِي الْعَوَّامِ جَانِبُهَا
 حَتَّى تَنَاهَتْ إِلَى مِصْرَ جَاجَهُمْ^(٤)
 فِي هَامَةٍ مِنْ قَرِيضٍ دُونَهَا شَذَبٌ^(٥)
 يُدْرِكُ مَا قَدَّمُوا عَجْمٌ وَلَا عَرَبٌ
 فَادْرَكُوهُ وَمَا مَلُّوا وَلَا لَغَبُوا
 فِي أَكْفِهِمُ الْأَرْسَانُ وَالسَّبَبُ
 بَعْدَ الشَّمْسِ مَرَوْهَا ثَمَّ احْتَلَبُوا^(٦)
 بُعْدًا لِمَنْ أَكَلَتْهُ النَّارُ وَالْحَطَبُ
 تَعْدُو بِهَا الْبُرْدُ مَنْصُوبًا بِهَا الْخَشَبُ^(٧)

وهو يؤكد هذا المعنى في مواضع أخر حين يقول من قصيدة يمدح بها
 عبدالله بن معاوية :

قَوْمٌ إِذَا بَسَطَ إِلَهُ رَبِّيَعَهُمْ دَارَتْ رِجَاهُ بِمُسْبِيلٍ دَرَارٍ
 وَإِذَا أُرِيدَ بِهِمْ عَقُوبَةٌ فَاجِرٌ مَطَرَتْ صَوَاعِقُهُمْ عَلَيْهِ بَنَارٍ

(١) الخارب السارق وقاطع الطريق .

(٢) الشذب : ما يقطع مما تفرق من اغصان الشجرة ، واحدها شذبة (بفتحتين)

(٣) سَعَوْا بِابْنِ عَفَانَ أَي سَعَوْا لِادْرَاكِ نَارِهِ . مَرَوْهَا ثَمَّ احْتَلَبُوا . شَبَّهَ الْحَرْبَ بِنَاقَةِ
 صَمْبَةِ الْخَلْقِ تَمْتَنِعُ عَلَى الْحَالِبِ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ . وَالْمَرِي مَسْحُ الْفَرْعِ لِيَدْرِ . يَشْبَهُ لِذَلِيلِهِمُ
 الْحَرْبَ بِالْحَالِبِ الْمُنْتَاعِ الَّذِي يَمْسَحُ فَرْعَ النَّاقَةِ الْفَائِزَةِ حَتَّى تَلْبِسَ لَهُ وَتَسْمَحَ بِاللَّبَنِ .

(٤) لَمَّا قَتَلَ مَعْصُوبُ بْنُ الزَّيْزِرِ بَعَثَ عَبْدِ الْمَلِكِ بَرَأْسَهُ إِلَى أَخِيهِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مَرْوَانَ
 مِصْرَ . الْبُرْدُ مَخْفَفُ بَرْدٍ (بِضْمَتَيْنِ) جَمْعُ بَرِيدٍ .

ثم يقول :

لما تُبْحِثَتِ الضغائن بينهم أفْضَى وسارَ بِجَحْفَلٍ جرَّار
وأهلٌ إذ غَنَظَ العدوُّ بفيلق تحت الأشاء عريضة الآثار ^(١)
حتى رأوه بجانب مَسْكَنٍ مُعَلِّمًا والحيلُ جاذيةٌ على الاقتار ^(٢)
ولقد تناوَلَتِ العُقُورَ بضربةٍ وبني أبي بكر ذوي الأصهار ^(٣)
ورجالُ عبد القيس تحتُ نُحُورِها كانوا لها جَزْرًا من الأجزاء
وعلى خِزَاعَةٍ والسُّكُونُ تعطفَت وأصاهمُ طُفْرٌ من الأظفار ^(٤)
والخيلُ تمشِقُ عنهمُ أسلابهم في كل معترَكٍ وكلِّ مُغَارٍ ^(٥)
حتى إذا علمَ الإله نكاله وتصاغروا للحرب أيَّ صغار
حقن الدماءَ وردَّ أَلْفَتَهُمُ لهم وجزأهمُ بالعرف والإنكار
ويقول في مدحِ بشر بن مروان :

إمامٌ يقود الخيلَ حتى كأنها صُدُورُ القَنَا معوَّجُها وقويمها

(١) غنظ (كتمر وضرب) اشرف على الهلكة ، وغنظه الامر جهده . الأشاء النخل شبه القنا بها .

(٢) الجاذي الثابت القائم . الاقتار اطراف الحوافر . مسكن موضع على نهر دجيل قريب من دير الجالليق كانت به وقعة بين عبد الملك ومصعب .

(٣) العقور قبائل من تغلب وبنو أبي بكر هم أبو بكر بن كلاب . الأصهار القرابة .

(٤) ميد القيس قبائل من ربيعة . وخزاعة والسكون من قبائل اليمن : خزاعة مسن الأزد والسكون من كندة .

(٥) مشق ثوبه شقه ومرغه . المغار الإغارة .

إلى الحرب حتى تخضع الحربُ بعدما
تخمطُ مَرَحَها وتخمى قُروُمها^(١)
... بكم أدرك الله البرية بعدما سعى لصلها فيها وهبَّ غشومها

وفكرة الأخطل هنا بسيطة قريبة . فالقوي الغالب هو صاحب الحق دائماً ، لأن الله لا ينصر الظالمين ، ولا يعين المفسدين . وليست الحروب إلا محنة واختباراً ، يُظهر الله خلالها صاحب الحق ، ويعاقب الظالمين بيديه . وهو بهذا متأثر بالفكرة الجاهلية التي قررناها ، من أن القوة وحدها هي الفضيلة ، وأن كل ما نالته يد القوي فهو حق له . وقد كان الأمويون أنفسهم يحبون أن يمدحوا على هذا النحو الذي يصورهم أقوياء ، ولم يكونوا يرون بأساً في أن يقول عنهم الشعراء إنهم أخذوا الملك بالسيف . وكان الشعراء يحبرون في ذلك على ما يحب الأمويون ، حتى جاء الأخطل فاستحدث فكرة هذا الحق الإلهي ، ولكنه ألبسها ثوباً جاهلياً . روى صاحب الأغاني أن عبد الملك أنشد قول كثير فيه :

فما تركوها عنوةً عن مودةٍ ولكن بحدّ الكُشْرِ في استقالها
فأعجب به . فقال له الأخطل : ما قلته لك والله يا أمير المؤمنين أحسن منه . قال : وما قلت ؟ قال قلت :

أهلوا من الشهر الحرام فأصبحوا مَوَالِيَّ مُلْكٍ لا طريف ولا غصب
جعلته لك حقاً وجملك أخذته غصباً . قال : صدقت .

والواقع أن الأخطل كان بدوياً يعيش على هذه المثل الجاهلية ولا يرى

(١) تخمط : تهيج وتهذر ، أصلها تخمط حدثت إحدى التائين للتخفيف . الرحى الحرب ، اسم مكان من رحى الرحى يرحبها رحباً إذا دارها . القروم جمع قرم (بفتح فسكون) وهو السيد . تخمى تغضب .

غيرها ، نجد ذلك واضحاً في حياته وتفكيره وفي فنه على السواء . فهو رجل لا يؤمن إلا بالقوة . وقارىء شعره في الفخر لا يراه إلا جاهلياً بمعنى في الجاهلية . يقول :

نصبنا لكم رأساً فلم تكلِّموا به ونحن ضربنا رأسكم فتصدَّعا
ونحن قسمنا الأرض نصفين: نصفها لنا ونُرامي أن تكون لنا معا
بتسعين ألفاً تأله العينُ وسطه متى تره عينا الطُرامة تدَّمعاً^(١)
إذا ما أكلنا الأرض رعيّاً تطلَّعت بنا الخيلُ حتى تستبيح الممنَّعا

وهو لا يرى في الجود فضيلة الإيثار والعطف على البائس المحروم ، ولكنه يراه مظهراً من مظاهر القوة ، لأن الكريم يجود مما اجتمع له من السيى والمغانم بقوته :

إليك أمير المؤمنين رَحَّلْتُهَا على الطائر الميمون والمئزر الرَّحْب^(٢)
إلى مؤمنٍ تجلوص حيفةُ وجهه بلابل تغشى من همومٍ ومن كَرْب^(٣)
مناخُ ذوي الحاجاتِ يستمطرونه عطاء كريم من أسارى ومن نهبٍ^(٤)
ترى الخلقَ الماذيَّ تجري فضوله على مستخفٍ بالنوائب والحرب^(٥)

(١) تأله فعار . ابن الطرامة شاعر من كلب اسمه حسان بن الطرامة .

(٢) على الطائر الميمون أي على الحظ المبارك .

(٣) يقول أن كل كرب يزول ، وكل ضائقة تفرج بوجهه ومبركته وبينه .

(٤) النهب الغنيمة أي أنه يعطى مما يفتن في الحروب .

(٥) الخلق يعنى به خلق الدروع . الماذي الدرع اللينة . فضوله ما فضل منه وزاد . أي أن الدرع سافرة تغطي سائر الجسد .

وهو يذهب في الالة مذهب الجاهليين ، الذين يرون الهجوم عليها واغتصابها
ألقى بالحق والجريء الفاتك :

بَانَ الشَّبابُ وَرَبَّمَا عَلَّتْهُ بِالْغَانِيَاتِ وَالشَّرَابِ الْأَصْهَبُ^(١)
وَلَقَدْ شَرِبْتُ الْخَمْرَ فِي حَانُوتِهَا وَلَعَبْتُ بِالْقَيْنَاتِ كُلَّ الْمَلْعَبِ
وَلَقَدْ أَوْكَلْتُ بِالْمَدَجِّجِ تُتَقَّى بِالسَّيْفِ عُرَّتُهُ كَعَرَّةِ أَجْرِبِ^(٢)
ويقول :

أَلَا يَا أَسْلَمَى يَا أُمَّ بَشْرٍ عَلَى الْهَجَرِ وَمِنْ عَهْدِكَ الْمَاضِي لَهُ قَدَمُ الدَّهْرِ
لِيَالِي نَلْهُو بِالشَّبَابِ الَّذِي خَلَا بِمُرْتَجَّةِ الْأُرْدَافِ طَيِّبَةِ النَّشْرِ
ويقول - وهو يشبهه النساء بالوحش النافر -

وَلَقَدْ أَصِيدُ الْوَحْشَ فِي أَوْطَانِهَا فَيَذِلُّ بَعْدَ شِمَاسِهِ الْيَعْفُورُ^(٣)
ومما يصور حبه للبادية ، وكرهه للندن وما فيها ، قوله في مقدمة قصيدة
يمدح بها بشر بن مروان :

سَقَى اللَّهُ مِنْهُ دَارَ سَلْمَى بَرِّيَّةً عَلَى أَنْ سَلِمَى لَيْسَ يُشْفَى سَقِيمُهَا^(٤)
مِنَ الْعَرَبِيَّاتِ الْبَوَادِي وَلَمْ تَكُنْ تُلَوِّحُهَا حُمَى دِمَشْقٍ وَمُومَهَا^(٥)

(١) علته شغلته والهينة .

(٢) المدجج الداخل في السلاح . عرته شرته ، وأصل العرة الجرب أو قرحتة .

(٣) الشماس الآباء والامتناع . اليعفور الطي .

(٤) رية سفة لموصوف محذوف أي بسحابة رية غزيرة الماء .

(٥) لوحته النار والسموم غيرته وسفمت وجهه . اليوم مرض الجدري .

وفن الأخطل بعد ذلك مرآة صادقة لهذه البداوة في صورته وتشبيهاته .
وفي أسلوبه وألفاظه . فهو يشبه النساء بابل قد أوعثها السير في أرض سهلة ،
تغيب أقدامها في رمالها :

يمشِين مَشْيَ الْجَمَالِ الْأُدْمِ يُوعِثُهَا أَعْرَافُ دَكْدَاكَةِ مُنْهَالَةِ الْكُثْبِ^(١)

ويشبه مشيهن في موضع آخر ، بمشي الإبل البيض ، يهدر الفحل وراءهن
فيبتغثرن :

يمشِين مَشْيَ الْهَجَانِ الْأُدْمِ رَوَّحَهَا عِنْدَ الْأَصِيلِ هَدِيرُ الْمُصْعَبِ الْقَطِيمِ^(٢)

ويشبه دنان الخمر بابل جربي قد طليت قطراناً :

وَلَقَدْ تَبَاكَرْنِي عَلَى لَدَاتِهَا صِهَاءٌ عَارِيَةٌ الْقَذَى خُرْطُومُ^(٣)

مِنْ عَاتِقِ حَدَبَتْ عَلَيْهِ دَنَانُهُ وَكَأَنَّهَا جَرَبِي مِنْ عَصِيمِ^(٤)

ويشبه هدير الخمر في الدنان بهدير الجمال :

(١) الهجان الإبل الكرام . يوعثها يجعلها تمشي في الوعث وهو المكان السهل تغيب فيه
الأقدام . أعراف الرمل والجبل ظهره وأماله . الدكدك اللين من الأرض ، والكثب جمع
كثيب وهو التل من الرمل سمي بذلك لأنه انكثب أي اجتمع في مكان واحد .
(٢) الأدم من الإبل البيض . المصعب الفحل المصعب . القطم الهائج ، شبه مشيهن
بذلك لأن الجبل إذا هدر عليهن تبتغثرن .

(٣) الصهواء الخمر وذلك لونها ، والصبية حمرة في سواد عارية القذى ظاهر قذاها لصفائها .
الخُرْطُوم ما سال من الخمر قبل أن يصر وهو أجود . وفي رواية أخرى (عالية القذى) أي أنها
لصفائها يبدو القذى حين يكون في قمرها كأنه في سطحها .

(٤) العاتق الخالص اللون ، متق الشيء والخمر (كنصر) كرم وحسن فهو عاتق
ومتق . المصيم القطران . الدن وعاء كبير من فخار تخزن فيه الخمر ويطلى بالقطران
لئلا يفسده .

عَزَّ الشَّرَابُ فَأَقْبَلْتُ مَشْرُوبَةً هَدَرَ الدَّانُ بِهَا هَدِيرَ الْأَفْحَلِ

ويشبهه القِلَال الصغار يحانب الدن الكبير ، بصغار الإبل حول الفعل ،
تسمح به وتشمه بين رجله :

وَتَرَى الْقِلَالَ بِجَانِيهِ كَانَهَا قُلْصُ يُسْفَنُ فُرُوجَ قَرْمٍ مُرْسَلٍ^(١)

ويشبه نفسه حين يشرب الخمر صرفاً فهي قوية شديدة ، بناقة لَبَسُوا لها
جلد حُوار ، فهي إذا نظرت من بعيد حسبتة ابنها ، فإذا دنت منه فشمتة أنكرتة :

كَأَنِّي كَرَرْتُ الْكَاسَ سَاعَةً كَرُّهَا عَلَى نَاصِصٍ شَمَّتْ حُوَاراً مُلْبَسًا^(٢)

ويشبه رجلاً من بكر اسمه الحُرَّاق ، في غيظه وشدة غضبه ، بالفعل الذي
حُبِسَ عن ضراب الإبل فهو يحرق نابه ويهدر لاوياً رأسه :

وَزَلَّ الْحُرَّاقُ وَهُوَ يَحْرِقُ نَابَهُ بِمَا قَدَرَأَى مِنْ قُوَّةٍ وَعَتَّادٍ^(٣)

هَدِيرَ الْمَعْنَى أَلْفَحَ الشَّوْلَ غَيْرُهُ فَظَلَّ يُلَوِّي رَأْسَهُ بِقَتَادٍ^(٤)

(١) القِلَال آنية الفخار الصغيرة . قُلْصُ جمع قُلُوص وهي الناقة الفتية . القرم الفعل .

(٢) الناصص الناقة التي يؤخذ فصيلها فتمنع اللبن ولا تسمح به ، فيحشون لها جلد
حوار بالطين أو القطن ويوضع بجانبها لتسمح باللبن ، فإذا شمته بأنفها عرفت أنه ليس
ابنها . والشاعر هنا يشبه نفسه حين يشرب الخمر صرفاً فيقطب جبينه للدمع وشدة حرارتها
بهذه الناقة حين تشم جلد الحوار المحشو فتلوي رأسها نازرة .

(٣) حرق نابه (من باب نصر وضرب) سحقه حتى يسمح له صريف .

(٤) الشول جمع شائل وهي الناقة التي تشول بدنها أي ترفمه طلباً للقاح . المعنى
(على البناء للمجهول) الفعل المحبوس من ضراب الإبل . بقتاد يمتن وقد شد إلى قتاد .
وهو شجر صلب ذو شوك .

ويشبه القيسية « فيا ذاقوا من نكال الحرب بالذي حمل على ناقة عجزوز »
قد تساقط عنها وبرها وبرزت عظامها :

صُكُّوا على شاربٍ صعبٍ مراكبها حصاءً ليس لها هُلبٌ ولا وبرٌ^(١)
ويشبه الحقد بالجرب الذي يزول عن ظاهر الجلد ولكنه يكن تحته وينتشر
بعد حين :

إن الضغينة تلقاها وإن قدّمتْ كالعرّ يكمنُ حيناً ثم ينتشر
فلو أن جملاً نطق فقال شعراً ما اجتمع له من التشبيهات والصور أكثر مما
اجتمع للأخطل في شعره من ذكر الإبل .

والأخطل بعد هذا يتخذ مثله الفنية من فحول الجاهليين ؛ فينشئ بعض
قصائده على نهجهم مثل قصيدته :

بانت سعادُ فقي العينين مُملولٌ من حبها وصحيحُ الجسمُ مخبولٌ^(٢)
فهو يعارض بها قصيدة كعب بن زهير المشهورة في مدح النبي ﷺ ، ويتأثر
فيها ببعض ألفاظ الأعشى في مطولته (ودع هريرة) . يقول فيها :

غراء فرعاء مصقولٌ عوارضها كأنها أحورُ العينين مكحول
وهو مأخوذ من بيت الأعشى :

(١) صكوا على شارب أي حملوا على خلة مبيبة ، شبهها بالناقة الشارب وهي
الكبيرة المسنة . الحصاء التي لا وبر لها . الهلب شعر اللنب .
(٢) المملول (بضم الميم) المكحال الذي يكتحل به . أراد أنه مكتحل بالسهر .

غراء فرعاء مصقولٌ عوارُضها
تمشي الهويّتي كما يمشي الوجي الوحل^(١)

وهو في قصيدته :

ألم تعرض فتسال آل هو وأروى والمدلة والربابا
متأثر بقصيدة الأعشى :

عرفت اليوم من تيا مقاما بجو أو عرفت لها خياما
في مثل قوله :

وقد قالت مدلة إن قلتني أراك كبرت والصدغن شابا
فإن يك ريتني قد بان مني فقد أروى به الرسل اللهابا
فهو مأخوذ من قول الأعشى :

وقد قالت قتيلة إذ رأيتني وقد لا تعدم الحسناء ذاما
أراك كبرت واستحدثت خلقا وودعت الكواعب والمداما
فإن تك ليقتي يا قتل أضحت كان على مفاريها ثغاما

(١) غراء بيناء . فرعاء طويلة الفرع وهو الشعر . العوارض الاسنان . الوجي الذي يشتكي حافره ليكون مشبه متاثلا . الوحل الذي يمشي في الوحل . وهو تشبيه خشن لانه يشبه صاحبه التهمة في سيرها بدابة تشكو حافرها وتمشي في الوحل .

وأَقْصَرَ باطلي وصحوتُ حتى كان لم أجره في دَدَنٍ غلاماً^(١)
 فإن دوائرَ الأيامِ يُفْنِي تتبعُ وقعها الذِّكْرَ الحساما

وهو يعتمد كذلك في قصيدة (عفا واسط) على كثير من صور الأعشى .
 ثم هو بعد ذلك يكثر من وصف الناقة والصحرَاء في مدائحه ، ويسلك في ذلك
 مسلك الجاهليين ، الذين يشبهونها بحمار الوحش أو الثور ، وينصرفون عن
 الناقة إلى هذا الثور ، أو ذاك الحمار ، ليصوروا نشاطه في الصحراء ، وما
 يلقي من عنت الصائد ، وقسوة الريح والمطر . وينتهون آخر الأمر إلى القول
 بأن ناقته تشبه هذا الموصوف ، في نشاطها وقدرتها على تخطي العقبات ، وفيما
 نالها من إعياء بسبب الرحلة إلى المدوح . هذه الصورة تتكرر في الشعر الجاهلي ،
 ويتداولها الشعراء على نحو مثابه ، بتفاصيلها وأجزائها ، ليس فيها تجوير أو
 تغيير . وكذلك هي في شعر الأخطل بأجزائها ودقائقها^(٢) .

وتأثره بالأعشى في الحمر خاصة مشهور لا يحتاج إلى التنبيه عليه . وبكفي
 أن أقدم له مثلين أو ثلاثة :

الأعشى : تحسبُ الزَّقَّ لَدَيْهَا مُسْنَدًا حبشياً نام غُدًّا فانبطح
 الأخطل : أناخوافجر واشاصياتِ كأنها رجالٌ من السودان لم يتسر بلوا^(٣)

(١) الددَن اللُّهُو واللُّب . أقصر باطلي ارمويت من حيث الشباب حين كبرت .

(٢) راجع في تشبيهها بثور الوحش الديوان من ١١٢، ٨٦ ، ١٣٨ ، ٢٢٠ ، ٢٦٠ وفي
 تشبيهها بحمار الوحش من ١٤٨، ٦٠ ، ١٤٨ ، ٢٣٥ ، ٢٥٢ .

(٣) الزق جلد (قرية) يحفظ فيه الماء والخمر يتخذ في الاسفار خاصة . يشبه
 الأعشى الزق في أسوداده برجل حبشي قد رقد على الأرض عارياً . ويشبهه الأخطل برجل
 عارٍ من السودان . الشاصية هي الزق .

الاعشى : من خر غانة قد أقي لِحْتَامِهَا حولُ تُسَلُّ غِمامَةُ الزكوم
 الأخطل : وإذا تعاورت الأكَفُ زَجَا جَها نَفَحَتْ فِشْمَ رِياحِها المَزكوم^(١)
 الأعشى : لا يستفيقون منها وهي راهنة إلابْهَاتٍ وَإِنْ عَلُوا وَإِنْ نَهَلُوا
 الأخطل : فما لَبَّثْنَا نَشْوَةً لَحِقَتْ بِنَا تَوابعُها مِمَّا نُعَلُّ وَتُنْهَلُ^(٢)

.

لم يدم للأخطل هذا النفوذ في بلاط الأمويين . فقد كثرت حوله الوشائيات في أواخر أيام عبد الملك ، وأخذ النصارى يفقدون ما كانوا يستمتعون به من حرية ، فترعزت منزلته ، وتقلص سلطانه ، حتى أصبح يلجأ إلى الوليد ولي العهد ، يطلب إليه التوسط فيما ناب قومه من غرامات ثقيلة وضرائب فادحة لا يطيقونها :

وحاجِلَةُ العيون طوى قواها شهابُ الصيف والسفرُ الشديد^(٣)
 طلبن ابن الإمام فتى قريش بِحِمَصٍ وَحِمَصٍ غائِرةٌ بعيد
 ناك إلى الرياء فحولُ صدقٍ وَجَدْتُ قَصْرَتُ عَنْهُ الجُود^(٤)

(١) تسل غمامة الزكوم ، وشم رباحها المَزكوم هو تصوير لقوة رائحة الخمر التي تقتحم أنف المَزكوم ، وحاسة الشم تكون عنده ضعيفة .

(٢) يقول الأعشى أنهم يوالون الشراب ولا يتوقفون عنه إلا ربمما يقول أحدهم للساقي « هات ! » ويقول الأخطل ان نشوة الكأس السابق لا تلبث ان تسلمهم الى اللاحق . لكثرة ما يشربون المرة بعد المرة . الملل الشربة الثانية . والنهل الشربة الاولى .

(٣) حاجلة العيون غائرتها .

(٤) الرياء يقصد به هنا فعل الخير . نماء نصه ورفعه . فحول صدق يقصد بهم

أجداده .

وزندك من زناد وإرياتِ إذا لم يُحمد الزندُ الصلُود
وإنّا معشرُ نابتُ علينا غراماتُ ومضِلّةُ كؤود
وعضُ الدهرِ والأيامِ حتى تغيّرَ بعدك الشعرُ الجديد

بدأ نجم عدي بن الرقاع في الصعود ، حتى أصبح الشاعر المقدم عند الوليد بن عبد الملك . وانكش الأخطل على خوف ووجل ، مهدّداً لا يطمع إلا في السلامة والعافية ، لا يكاد يقدم على الخليفة ، إلا في هذه المواسم التي يجتمع فيها الشعراء لمدحه كل عام ، يؤكد ولاءه للأمويين ، ويعدد سابق فضلهم عليه ، معتذراً عن بعده بما يخاف من وشاية الواشين ، التي كادت - لولا فضل الوليد - تودي به ، وتورده موارد الهلكة :

بني أمية قد أجدتُ فواصلكم	منكم جيادي ومنكم قبلها نَعَمي
فهي إذا ذُكرتُ عندي وإن قدُمتُ	يوماً كخط كتاب الكفّ بالقلم
فإن حلقتُ لقد أصبحتُ شاكرها	لا أحلفُ اليومَ من هاتا على أيّم ^(١)
لولا بلاؤكم في غير واحدةٍ	إذا لقيتُ مقامَ الخائف الرّزم ^(٢)
أسمعتكم يوم أدعُو في مُودّةٍ	لولاكم شاع لحمي عندها ودمي ^(٣)
لولا تناوُلكم إياي ما علقتُ	كفي بأرجائها القصوى ولا قدمي
وقد علمتُ وإن أصبحتُ نائيكم	نصحي قديماً وفعلي غيرَ متهم
لقب خشيتُ وشاة الناس عندكم	ولا صحيحَ على الأعداء والكَلِم

(١) الأثم (مثل طرب وفرح) الكاذب . يقول لا أحلف كاذباً .

(٢) الرزم المنقطع الدليل قليل الرهط .

(٣) المودة (كمظنة) الهلكة والمفازة وحفرة الميت .

ويقول من قصيدة أخرى يمدح فيها الوليد :

وقد علّمتُ أُمّةُ أنِ ضَغني إليها والعُدّةُ لها هَرير
وأني ما حييتُ على هواها وأني بالغيّبر لها نَصُور
وما يبقى على الأيام إلا بناتُ الدهرِ والكَلِمُ العَقُورُ^(١)
فَمَنْ يَكُ قاطِعاً قَرَنًا فلاني لفضلِ بني أبي العاصي شُكُور
ثم يقول :

ومظِلّةٌ تضيقُ بها ذراعي ويتركني بها الحديبُ النُصُور
كفَوْنِها ولم يَتَوَاكَلوها بخلُقٍ لا أَلَفُ ولا عَشُورُ^(٢)
ولولا أنتم كَرِهَتْ مَعَدُ عِضّاضِي حين لاح بي القَتيرُ^(٣)
ولكنني أَهَابُ وأرتجيمُ ويأتيني عن الأسد الزئير
ويقول من قصيدة أخرى يشير فيها إلى إنقاذ الوليد إياه من هذه الهنة التي
كادت تودي بحياته :

إن الوليد أمينَ الله أتقذني وكان حصناً إلى مَنجاته هربي
أَتَيْتُهُ وهمومي غيرُ نائمةٍ أخالِ الحَذَارَ طَرِيدَ القتلِ والهربِ

(١) الكلم العقور يعني شعر الهجاء الذي يجرح المهجو . بنات الدهر مصائبه .

(٢) الألف الضيق الخلق المبي بالأمور . العشور الكثير السقوط . تواكلوها وكلها
بمعظم لبعض .

(٣) القَتير الشيب ، وأصله ودوس مسابير الدرع .

فَأَمَّنَ النَّفْسَ مَا تَخْشَى وَمَوَّلَهَا قَدَّمَ الْمَوَاهِبَ مِنْ أَنْوَاعِ الرُّغْبِ^(١)
وَوَثَّيْتَ الْوَلَطَءَ مِنِّي عِنْدَ مُضِلِّعَةٍ حَتَّى تَخْطِئْتُهَا مَسْتَرْخِيًا لَبِيبِي^(٢)

وبئس هذه النهاية المهزنة ، تطوى حينئذ هذا الشاعر الكبير ، الذي أفنى عمره ، وبذل شمره ، في تثبيت ملك الأمويين ، والدفاع عن سياستهم ، وهجاء أعدائهم ، فخلق في سماء الشهرة حق بلغ أقصى ما يطمع فيه شاعر من نفوذ ، ثم هبط من حالق ، فمات في السنوات الأولى من خلافة الوليد مجفواً خاملاً ، يشكو متذلاً ، بعد أن كان يهدير بالفخر مزهواً فغوراً .

(١) قدام له من المال (كنصر) وقسم له اذا اعطاه واكثر . النوء المطر استصاره للمطاه
يقال طلب نوءه اي عطاه . الرغب الكثيرة الواسعة .

(٢) اللبب ما يشد في صدر الدابة او الناقة، يكون للرحل والرج يمنهما من التأخر .
مسترخيا لبى يقصد به نابتا جناحي مطمئنا .

الهجاء الشخصي

هذا الفن الذي عرفناه ضئيلاً قليلاً في العصر الجاهلي، قد نضج وتقدم في القرن الأول، حتى أصبح من أظهر فنون الشعر وأجلها خطراً. وكان المراق بنوع خاص موطناً لهذا الفن، فلا نكاد نعرف شاعراً من شعرائه لم يأخذ منه بنصيب. وما أكثر ما يحمد قارئ الأغاني هذه العبارة في تراجم شعراء العراق في هذا القرن (وكان هجاء خبيث اللسان) يقول في عينة بن مرداس الملقب بابن فسوة : هجاء خبيث اللسان بذيء ، كان فاحشاً كثير الشر وكان لا يزال يأتي أمراء البصرة فيمدحهم فيعطونه ويخافون لسانه ^(١) . ويقول في الوليد بن حنيفة الملقب بابن حزاب : شاعر بدوي حضر وسكن البصرة ، وكان شاعراً راجزاً فصيحاً خبيث اللسان هجاء ^(٢) . ويقول في عبد الله بن الزبير الأسدي : شاعر كوفي المنشأ والمولد وهو أحد المهجائين للناس المرهوب شرهم ^(٣) . ويقول في الحكم بن عبدل : شاعر مجيد مقدم في طبقة هجاء خبيث اللسان ، ومنزله ومنشأه الكوفة ^(٤) . وأمثال هؤلاء الشعراء كثير لا نحب أن نطيل باستقصائهم وتبصيرهم .

وكان الأشراف والوجهاء أكثر الناس تعرضاً لشر الشعراء ، الذين اصطنعوا أسلوب الحطيئة في التكسب بالهجاء . فقد وجدوا أن أكثر الناس لا ينتفع بهم

(٢) الاغاني ١٩ : ١٥٢

(١) الاغاني ١٩ : ١٤٣

(٤) الاغاني ٢ : ٤٠٤

(٣) الاغاني ١٣ : ٣٣

إلا على الرهبة ، ولا يبالون الشاعر وإن كان مجيداً إذا لم يخافوا شره . ووجدوا أن الذين يتقونهم على عرضهم ، أكثر من الذين يرغبون إليهم في تشريفهم بمدحهم . فهم إذا هجوا رجلاً فضحوه ، خاف غيره مثل فعلهم به ، فاتقاهم بالمال والعطاء . وهذا هو المهلّب ، يعنف ابنه حين تعرض لبعض هؤلاء الهجائين خوفاً من شره . أكل المغيرة بن حنّاء يوماً مع المفضل بن المهلب فعرّض بآفته - وكان المغيرة أبرص - فقام مغضباً . وبلغ المهلب ما جرى فشم ابنه وقال : أردت أن يتمنّع هذا أعراضنا ؟ ما حلك على أن أسمعته ما كره بعد مؤاكلتك إياه ؟ أما إن كنت تعافه فاجتنبه . ثم بعث إليه بعشرة آلاف درهم واستصَفحه عن ابنه^(١) . وتعرض حبيب بن المهلب لزياد الأعجم وقد شرب فعربد عليه ، وأمر بشق قباء ديباج كان عليه . فقال زياد :

لعمرك ما الـديباجُ خرّقتَ وحده ولكنّا خرقت جلد المهلب

فبعث المهلب إلى ابنه حبيب فأحضره وقال له : صدق زياد . ما خرقت إلا جلدي ، تبعت عليّ هذا هجوني . ثم بعث إليه فأحضره واستل سخيّمته من صدره ، وأمر له بال صدقة^(٢) . وبلغ من خوف الناس من شر هؤلاء الهجائين ، أن الحكم بن عبدل كان يكتب على عصاه ، ويبعث بها إلى الولاة والحكام ، فلا يرد طلبه ، حتى قال فيه يحيى بن نوفل :

عصى حَكَمٍ في الدار أولُ داخل ونحن على الأبواب نقصّي ونحجّب
وكانت عصى موسى لفرعون آية وهذي لعمُرُ الله أدهى وأعجب
تطاع فلا تعصى ويُحذر سخطها ويُرغب في المرضاه منها ويرهب

(١) الاغانى ١١ : ١٦٦

(٢) الاغانى ١٤ : ١٠٣

وقدم الفرزدق المدينة وعليها عمر بن عبد العزيز . فقبل لعمر : إن الفرزدق قد قدم فيسأل الرجل ، فإن لم يرضه هجاء ، وإن أرضاه جهد نفسه . وقومك والأنصار مجهودون يتجهلون . فبحث إليه من المتيق فأماه - وكان به نازلاً - فأعطاه ألف درهم ، وقال إنك قدمت على قريش وقد جهدت ، فلا تسألن أحداً^(١).

ومن بين هؤلاء الهجائيين المحترفين ، طبقة عرفت بالتهتك والهجون وحضور النكتة ، مثل الحكم بن عبدك والأقيشر . وكانت هذه الجماعة أكثر الهجائيين رهبة في صدور الناس ، لأنهم لا يتورعون عن شيء ، ولا يبالون ما يقولون . فهم يخوضون في أفحش السباب وأكثره بذاءة مفصلين في ذلك أقذع تفصيل وأقذره . وهجاؤهم مع ذلك أشبه بالنادرة الطريفة ، التي تصادف من النفس ارتياحاً وتشوقاً لسامعها ، وتعلقاً بحفظها وروايتها في الأسمار . ثم هو يتميز بسهولة الألفاظ ، وخفة الأوزان ، التي تعين على ذبوعه وانتشاره . ومن هنا كانت خطورته ، وشدة خوف الناس منه . أتى الحكم ابن عبدل الأسدي بحمد بن حسان ابن سعد التميمي - وكان على خراج الكوفة - فكلمه في رجل من العرب أن يضع عنه ثلاثين درهماً من خراجهم ، فقال : أماتني الله إن كنت أقدر أن أضع من خراج أمير المؤمنين شيئاً . فانصرف عنه وهجاء بقصيدة طويلة بدأها بقوله :

رأيتُ محمداً شرهاً ظلوماً وكنت أراه ذا ورع وقصد

يقول أماتني ربي خداعاً أمات الله حسان بن سعد

ولم يزل ابن عبدل يطيل فيها ويضيف إليها حتى مات . واشتهرت أبياتها وداعت بين الناس ، حتى إن كان المكاري ليسوق بفله أو حماره فيقول : عَدَّ . أمات الله حسان بن سعد . فإذا سمع ذلك أبوه قال : بل أمات الله ابني محمداً ،

فهو عرضني لهذا البلاء في ثلاثين درهماً^(١)

وبما يصور روح الفحش الغالبة على شعرهم، هذه الأبيات التي هجا بها الأقيشر امرأة من العبيّادين محتالة اسمها أم حنين . فقد قصد يوماً إلى بيت الحمار الذي كان يأتيه فلم يصادفه ، فجعل ينتظره . فزعمت له امرأة من العباديين اسمها أم حنين أنها زوج الحمار ، فأخذت منه درهمين فهربت بهما . فراح يهجوها أفحش هجاء وأقذره . وكان مما قال فيها :

عاهدتُ زوجها وقد قال إني	سوف أغدو لحاجتي ولديني
فدعت كالحصان أبيض جلدًا	وافر الد... مرسل الخصيتين
قال ما أجرُ ذا هديتِ فقالت	سوف أعطيك أجره مرتين
فابدأ الآن بالسفاح فلما	سافحته أرضته بالآخرين
تلّها للجبين ثم امتطأها	عالم الد... أفحجُ الحاليتين
بينما ذاك منها وهي تحوي	ظهره بالبنان والمعصمين
جاءها زوجها وقد شام فيها	ذا انتصابٍ موثّق الأخدعين
فتأسى وقال ويلٌ طويل	لحنين من عار أم حنين

فجاء حنين الحمار فقال: يا هذا ما أردتَ بهجاني وهجاء أُمي؟ قال: أخذت مني درهمين ولم تمنّني شيئاً. قال - والله ما تعرفك أُمي ولا أخذت منك شيئاً فانظر أُمي فإن كانت هي صاحبك غرمتُ لك الدرهمين . قال : لا والله

ما أعرف غير أم حنين . ما قالت لي إلا ذلك . ولا أهجو إلا أم حنين وابنها
فإن كانت أمك فإياها أعني . وإن كانت أم حنين أخرى فإياها أعني . قال : إذا
لا يفرق الناس بينها . قال : فما عليّ إذا ؟ أترى درهمي يضيعان ؟ فقال له :
هلم إذا أغرمتهما لك وأقم ما تحتاج إليه ، ولا بارك الله لك ^(١) .

هذا الفحص الذي يمنع اليوم من إذاعة مثل هذا الشعر وتداوله ، هو نفسه
الذي كان يدعو في تلك الأيام إلى ذوبه وتناقله ، فقد كان ملائماً لأذواق
البدو من الأعراب ، التي يضحكها ذلك التفصيل الحشن اللفظ ، الذي يسمى
الأشياء بأسمائها ولا يكتفي بالتلميح .

وما يصور الدعابة الغالبة على هجائهم ، هذه الأبيات التي يقولها ابن عبدل
في امرأة من همدان تزوجها ثم كره صاحبها . وهي شبيهة بأبيات الأقيسر
السابقة في أم حنين . فكلها يذهب في هجائه مذهب القصة ، ويسوقه في
صورة حوار .

أَعَاذَلْتِي مِنْ لَوْمٍ دَعَانِي	أَقْلًا اللَوْمَ إِنْ لَمْ تَعْذِرَانِي
فَإِنِّي قَدْ دُلَلْتُ عَلَى عَجُوزٍ	مَبْرَقَةٍ مَخْضَبَةِ الْبَنَانِ
تَغَضَّنَ جِلْدُهَا وَاحْضَرَّ إِلَّا	إِذَا مَا ضُرِّجَتْ بِالزَّعْفَرَانِ
فَلَمَّا أَنْ دَخَلْتُ وَحَادَثْتَنِي	أَظْلَتْنِي يَوْمَ أَرْنَوَانَ ^(٢)
تَحَدَّثْنِي عَنِ الْأَزْمَانِ حَتَّى	سَمِعْتُ نِدَاءَ حُرٍّ بِالْأَذَانِ
فَقَالَتْ قَدْ نَكَبْتُ اثْنَيْ شَتَى	فَلَمَّا صَاحِبَانِي طَلَّقَانِي

(١) الاغانى ١١ : ٢٦١

(٢) ارنوان صعب .

وأربعةً نكحتهم فماتوا فليت عَريفَ حَيٍّ قد نعانى
وقالت ما تِلَادُكَ قلت مالى حارٌ ظالعٌ ومَزَادَاتان
وَبُورِيٌّ وأربعة زُيُوفُ وثوباً مُفْلِسٍ متخرقان^(١)
وقطمةُ جُلَّةٍ لا تَمُرُ فيها ودَنَّا عُمومةٍ متقابلان^(٢)
فقالَت قد رَضِيتُ فَسَمُّ أَلْفَا لِيَسْمَعَ ما تَقُولُ الشاهدان
ومالِكٍ عِنْدنا أَلْفٌ عَتِيد ولا تَسعُ تُعَدُّ ولا ثَمَان
ولا سَبْعٌ ولا سِتٌّ وَلَكِنْ لَكُمْ عِنْدِي الطَوِيلُ مِنَ الْهُوانِ^(٣)
وقد كانت دعابتهم هذه من أثقل الأشياء على الولاة والأشراف ، وأكثرها
إزعاجاً لهم . ولى الشرطة رجل أعرج ، ثم ولى الإمارة آخر أعرج وخرج ابن
عبدل - وكان أعرج - فلفي سائلاً أعرج ، وقد تعرض للأمير يسأله . فقال :

أَلْقِ الْعَصَا وَدَعِ التَّخَامُعَ وَالتَّمَسْ عملاً فُهْذِي دَوْلَةَ الْعُرْجَانِ
لَأَمِيرِنَا وَأَمِيرِ شَرِطَتِنَا مَعَا يَا قَوْمَنَا لَكِلَيْهِمَا رِجْلَانِ
فَإِذَا يَكُونُ أَمِيرُنَا وَوَزِيرُنَا وَأَنَا فَإِنَّ الرَّابِعَ الشَّيْطَانِ
فَبَعَثَ الْأَمِيرُ إِلَيْهِ بِمِائَتِي دَرَاهِمٍ وَسَأَلَهُ أَنْ يَكْفِيَ عَنْهُ .

وقد نشأ على يد هذه الطائفة من مجان المجانين نوع من الهجاء القصير اللاذع
الذي لا يتجاوز البيتين أو الثلاثة . وهو هجاء خفيف الروح ، سهل الألفاظ ،

(١) البوري الحمير المنسوج من القصب . أربعة زيوف يقصد أربعة دراهم زائفة .

(٢) الجلَّة القفَّة الكبيرة تنخل للتمر . العمومة (بضم العين) دويبة تسبح في الماء .
ولعله يقصد أنه لا يملك غير دينين ليس فيهما إلا ماء آسن تسبح فيها الديدان .

(٣) الألفاظ ٢ : ٤١٩

يعتمد على الصورة الهزلية المضحكة ، كان قصره أو كدّ لنوعه وخطورته ،
 وثقل وقعه على المهجو . قيل للفرزدق : ما اختيارك للقصار ؟ قال : لأنّي رأيتها
 أثبت في الصدور ، وفي المحافل أجوّل . وقيل للحطيئة : ما بال قصارك
 أكثر من طوالك ؟ قال : لأنها في الأذان أولج ، وفي أفواه الناس أعلق .
 وهذا النوع من الهجاء القصير ، شبيه بما كان يعرف عند اليونان واللاتين
 بال (epigram) .

خطب رجل من تميم امرأة من بني أسد ، ولم يزل يسأل عن حبها وأهانتها .
 حتى سأل الأقيشر . فقال فيه :

حضر موت فَنَشَتْ أَحْسَابُنَا وإلينا حضر موت تنسب
 أخوة القرد وهم أعمامه برئت منكم إلى الله العرب

وتولى الكوفة رجل من تميم ، فانكسر المنبر من تحته ، فقال :

أبني تميم ما لمنبر مُلْكِكُمْ ما يستقر قَرَارُهُ يتمرمر
 إن المنابر أنكرت أستاذكم فادعوا خَزَائِمَةَ يستقر المنبر

وكان لابن عبدل جارية سوداء ، وكانت يميل إليها فولدت له ابناً أسود ،
 فقال فيه :

يَارُبَّ خَالٍ لَكَ مَسُودٌ الْقَفَا لا يشتكي من رجله مسٌّ الحفا
 كَانَ عَيْنِيهِ إِذَا تَشَوَّفَا عينا غرابٍ فوق نيقٍ أشرفا

وخطب امرأة يقال لها أم رياح فلم تتزوجه ، ففضعها بقوله :

ولا خير في الفتیان بعد ابن عبدل۔ ولا في الزواني بعد أم ریح

فـ ... بحمد الله ماض مجرب؁ وأم ریح عرضة لنکاحي

فتعاماها الناس؁ فما تزوجت حتى أسمت .

ودخل ابن عبدل على عمر بن يزيد الأسدي وهو يأكل بطيخا - وكان بخيلا -
فسلم فلم يرد عليه السلام؁ ولم يدعه إلى الطعام؁ فقال فيه :

في عمر بن يزيد خَلَّتَا دَنَسٌ۔ بخل وجبن ولولا (...) سادا

جثناه يا كل بطيخا على طبق فما دعانا أبو حفص ولا كادا .

ويقول الفرزدق في هجاء رجل ينهمه بالبخل اسمه عقبة بن جيار :

لو أنِ قَدْرًا بَكَتْ من طول ما حَبِيسَتْ

عن الحُفُوفِ بَكَتْ قَدْرُ ابنِ جِيَّارٍ^(١)

ما مَسَّهَا دَسَمٌ مذُفُضٌ معدُّهَا

ولا رَأَتْ بعد عهدِ القَيْنِ من نارٍ^(٢)

وبرز في هذا المصراع آخر من ألوان الهجاء الشخصي عرف بالنقائص^(٣)

(١) الحفوف قلة الدسم

(٢) القين العداوة

(٣) روى ابن اسحق في السيرة كثيرا من النقائص . وقد حذف منها ابن هشام شيئا كثيرا عندما نقح السيرة . وطلق على كثير منها بأنه غير صحيح النسبة لقائله . وذكر ابن هشام في مقدمته ان ابن اسحق لم يكن له علم بالشعر . ولذلك غرشنا صفحا من كل ما جاء في السيرة من نقائص .

وتبادل فيه شعراء ذلك القرن السباب ، على نحو لم يعرف من قبل . وكان محور هذا الفن ومداره شعراء العصر الثلاثة المقدمون : جرير والفرزدق والأخطل . ودخل بينهم عدد كبير من الشعراء ، أحصى منهم صاحب الأغاني تسعة عشر شاعراً معروفاً من عصرهم ، في معرض قصة ساقها في لقاء جرير للحجاج ، وسؤاله إياه عن خبر الشعراء الذين هجأهم^(١) . وانشغل الناس بأمرهم والتحزب لهم ، والسؤال عما أحدثوا من هجاء ، وما أجاب به كل منهم ، يتقصد هجاء خصمه ويرد عليه ، حتى لقد اختلف الناس في عسكر المهلب وهم يقاتلون الخوارج على أيهم أشعر ، فألوا فيه بعض جند الخوارج الأزارقة ، حين أبى المهلب أن يقول فيهم شيئاً خوفاً من شرهم^(٢) . وكان الفرزدق وجرير يأتیان القبائل في مساجدهم فينشدهم من شعرهما . وكان أحدهما إذا سمع أن خصمه قد أتى قبيلة في مسجدها فأنشدها من شعره أسرع للانشاد في المسجد نفسه . وربما تعصبت القبيلة لصاحبه فمنعته الإنشاد ، كما فعل بنو الهُجيم ، حين أذنو للفرزدق أن ينشد في مسجدهم ، ومنعوا جريراً أن يفعل مثله حين علم بخبره^(٣) . وصار المهجاء 'جل' هم هؤلاء الشعراء ، حتى كان أحدهم يمدح الخليفة من الخلفاء ، أو الوالي من الولاة ، فلا يخلو مدحه من هجاء خصمه والتعريض به ، وحق أضاف جرير إلى قصيدته المشهورة في رثاء زوجته (لولا الحياة لهاجني استمبار) هجاءً صاحبه الفرزدق والأخطل . ولم يسلم من الانشغال بأمرهم وتلبع نقائضهم الخلفاء والأمراء . بعث بشر بن مروان برسول إلى جرير ، يسأله أن يجيب عن شعر سُرّاقة البارق ، الذي يفضل فيه الفرزدق ، فلم يبرح الرسول حتى أخذ قصيدة جرير ، فقرئت في العراق ، وأفحيم 'سُرّاقة' فلم ينطق بعدها بشيء من مناقضاته^(٤) .

وكان إقبال الناس على شعرهم ، واهتمامهم بهجائهم . داعية لإغراء معظم

(٢) الأغاني ٨ : ٤٢

(٤) الأغاني ٨ : ٦٨

(١) الأغاني ٨ : ١٥

(٣) الأغاني ٨ : ٥٢

شمرء عصرهم أن ينهجوا نهجهم. فجعوا من قُطنة يهاجي جميل بن مَعْمَر^(١).
 وتيم بن أبيّ بن مُقبِل يهاجي النجاشي. والنجاشي يهاجي عبد الرحمن بن
 حسان بن ثابت^(٢). وعبد الرحمن بن حسان يهاجي عبد الرحمن بن الحَكَم^(٣).
 وشبيب بن البرصاء يهاجي عَقِيل بن عُلفَة^(٤). وأبو جِلْدَة يهاجي زياداً
 الأعجم^(٥). وزباد الأعجم يهاجي المُفيرة بن حَبْناء^(٦). والمُفيرة بن حَبْناء
 يهاجي أخاه صخر بن حَبْناء^(٧). وصخر الفَيّ يهاجي أبا المثلث^(٨). وأبو النجم
 يراجز المَجَّاج^(٩).

اشتعل العراق بالهجاء وبالمناقضات حتى تجاوزته إلى الأقطار الأخرى ،
 فكان جرير والفرزدق يلهبان هذا الفن وينشطانه حيثما ذهبا ، حتى لقد قدم
 الوليد المدينة وبها جرير وعمر بن لَجَأ يتهاجيان ، فأمر بهما فضربا وأقيا على
 البُلُس^(١٠) . وكان جلدهما بسبب قصيدة جرير التي يبدأها بقوله :

يا تيم تيم عدي لا أبا لكم لا يوقعنكم في سوءٍ عمر
 وكان أفحش ما قاله جرير فيها :

تقول والعبدُ مسكينٌ يُجرُّرها أرفقُ فديتك أنت الناكح الذكر

ولم تكن العداوة وحدها هي الدافع إلى الهجاء والمناقضة في كل الأحيان .
 فقد كان جزء كبير من هذه المناقضات يعتمد على المهاراة الفنية ، ويهدف إلى

(١) الاغانى ١٩ : ١١٢ (٢) ابن سلام ٥٦

(٣) الاغانى ١١ : ١٥٠ (٤) الاغانى ١١ : ٩٣

(٥) الشعر والشعراء ٢ : ٧١١ (الطلي حصر ١٣٦٩) (٦) الاغانى ١١ : ١٦٢

(٧) الاغانى ١١ : ١٦٨ (٨) الاغانى ٢٠ : ٢٩٨

(٩) الاغانى ٢٠ : ٢٠ (١٠) الشعر والشعراء ٢٣٣

(١٠) البلس غرائر كبار يجعل فيها التبن ويشهر عليها من ينكل به ، وينادي عليه .

السبق والتفوق من الناحية الشعرية الخالصة . وقد كان الفرزدق وجريـر على ما بينهما من خصومات مريرة ، يقبـادلان فيها أشنع الهجاء وأفحش السباب ، يلتقيان عند الأمراء والخلفاء ، ويترافقان في الرحلة ، فلا يكون بينهما إلا ما يكون بين الصديقين . وربما خرجا مرتدفين على ناقة واحدة ، كما يحدثنا ابن خلـكان ، في بعض رحلاتها إلى هشام بن عبد الملك ، وهو يومئذ بالرصافة ^(١) بل لقد شفع جريـر في الفرزدق عند هشام ، حين كتب إلى خالد القسريّ عامله في العراق ، يأمره بحبسه لتعريضه به في قوله :

يُقَلَّبُ عَيْنًا لَمْ تَكُنْ خَلِيفَةً مَشْوَهَةً حَوْلَاءِ بَادِرٍ عَيُوبِهَا

دخل جريـر يومذاك على هشام فقال : يا أمير المؤمنين إنك تريد أن تبسط يدك على بادي مضر وحاضرها . فأطلق لها شاعرها وسيدها الفرزدق . فقال له هشام : أو ما يسرك أن أخزاء الله ؟ قال : ما أريد أن يخزيه الله إلا على يدي . فأمر هشام بإطلاقه ^(٢) . وتبادل جريـر والأخطل الهجاء وليس يعرف أحد منها صاحبه ، حتى التقيا عند عبد الملك بن مروان ^(٣) . ولقي ابن ميادة ابن هرمة فقال له : والله لقد كنت أحب أن ألقاك ، لا بد أن نتهاجى ، وقد فعل ذلك الناس قبلنا ^(٤) . فالتهاجى والتناقض هنا مباراة أدبية ، وليس تاجما عن عداوة ولا هو موجبا لها ، إلا بمقدار ما يكون بين متنافسين على السبق . وربما استطعنا أن نتصوره إذا قرناه بما نعرف في الأندية الشعبية من تباري رجلين في النكتة بما يمبر عنه المصريون (بالدخول في آفة) . وتزداد هذه الحقيقة وضوحا كلما أمعن القارئ في دراسة شعر النقااض . فالشعراء يكثرون من الفخر بقوة شعرهم ، ويتفوقهم الغني الذي لا يحارص ، وبشدة وقع شعرهم على أعدائهم وخصومهم ، وما يتاح لهذا الشعر من ذبوع يذهب به إلى أقاصي الأرض .

(١) ابن خلـكان ٣ : ١٥١ . ط . محمد فريد رفاعي (٢) المقد الفريد ٦ : ١٧٣ .

(٤) الألفاني ٤ : ٣٦٩

(٣) الألفاني ٧ : ٦٩

يقول جرير في مجاء النشيمري :

أعد الله للشعراء مني صواعق يخضعون لها الرقابا
أنا البازي المطل على ثمير أتحّت من السماء لها انصابا
إذا علقت غخاله بقرن أصاب القلب أو هتك الحجابا

ويقول :

رجوتم يا بني وقبان موتي وأرجو أن تطول لكم حياتي
إذا اجتمعوا عليّ فخلّ عنهم وعن بازٍ يصكّ حباريات
ويقول البعيث :

وعاوى عوى من غير شيء رميته بقافية أنفاذها تقطر الدما
ولائي لقوالٌ لكل غريبة ورودٍ إذا الساري بليل ترغا
أخرج بأفواه الرواة كأنها قرى هندواني إذا هزّ صما
ويقول الفرزدق :

إن القصائد قد جدّ عن مجاشعاً بالسم يلحم نسجها ويُنار
ولقوا عواصي قد عيّيت بنقضها ولقد نُقضت فما بك استمرار
قد كان قومك يحسبونك شاعراً حتى غرقت وضمك التيار
ويقول الفرزدق لجرير :

لن تدركوا كرمي بلوم أيكم وأوابدي بتنحل الأشعار

ويقول له :

إن كان قد أعياك نقضُ قصائدي فانظر جريرُ إذا تَلَّاقَى المَجْمَعُ

ويقول معيراً إياه ضعف شعره زاعماً أنه سباب ليس من الفن في شيء :

أَتَطْلُبُ يَا حَرَّ بْنَ كَلْبٍ بَعَاتِكَ اللَّهَامِمْ الرِّغَابَا
وَتَعْدِلُ دَارِماً يَبْنِي كَلْبٌ وَتَعْدِلُ بِالْمُقَقَّةِ السِّيَابَا

ويقول :

غَلَبْتُكَ بِالْمُقَقِّيِّ وَالْمُعْنَى وَبَيْتَ الْمُحْتَبِي وَالْخَافَقَاتِ

وهو يقصد بذلك قصائده التي يقول في إحداها :

وَلَسْتُ وَإِنْ فَكَاتَ عَيْنُكَ وَاجِداً أَباً عَنْ كَلْبٍ أَوْ أَبَا مِثْلَ نَهْشَلٍ

ويقول في أخرى :

وَإِنَّكَ إِذْ تَسْمَى لِتَدْرِكَ دَارِماً لَأَنْتَ الْمُعْنَى يَا جَرِيرُ الْمَكْلَفِ

ويقول في ثالثة :

بَيْتاً زَرَارَةً مُحْتَبٍ بِفَنَائِهِ وَمَجَاشِعُ وَأَبُو الْفَوَارِسِ نَهْشَلٍ

ويقول في رابعة :

وَأَيْنَ تُقَضِّي الْمَالِكَانَ أُمُورَهَا بِحَقٍّ وَأَيْنَ الْخَافَقَاتُ اللَّوَامِعُ^(١)

(١) المالكان هما : مالك بن زيد بن عميم ، ومالك بن حنظلة بن مالك بن زيد بن عميم

ويبدو من هذا البيت أن الفرزدق كان يسمي قصائده ، كما يبدو ذلك أيضاً من بيته في نقيضته المشهورة (إن الذي سلك السماء) حيث يسميها الفيصل :

إن التي فُقمْتُ بها أبصاركم وهي التي دمغت أباك الفَيْصَلُ

وكان جرير والفرزدق يتواقفان بالمرَبَد ، وينشد كل منهما نقيضته بإزاء صاحبه (١) .

وربما أوحى الظروف والموقف لأحدهما بشعر مرتجل لم يكن قد فكر فيه من قبل ، كما نعرف من نقيضة جرير :

أقلَى اللوم عاذل والعتابا وقولي إنْ أَصَبْتُ لَقَدْ أَصَابَا

وما كان من تغطية الفرزدق لرأسه ، حين بلغ جرير قوله (ترى بَرَصاً بأسفل إِسْكَتَيْنِهَا) ، متوقفاً أن الشطر الآخر من البيت لا بد أن يصيبه . فلم يلبث جرير أن قال : (كَعَمْنَقَفَةِ الفرزدق حين شابا) .

وكان الشعراء المتناقضون يتربص بعضهم ببعض ، فلا يكاد أحدهم يصيب من صاحبه سقطة ، حتى يسجلها عليه ، ويشنع بها مبالغاً في تصويرها . يشكو الأخطل من إيقاع الجحاف بقومه حين يقول :

لقد أوقع الجحاف بالبدِشْرِ وقعةً إلى الله منها المشتكى والمعول
فيقول له جرير :

بكى دَوْبَلٌ لا يُرْقَىء الله دمعَه ألا انما يبكي من الذل دوبل

(١) نقائض جرير والفرزدق ٢ : ٢٧

ويفحش الفرزدق في بعض شعره وهو مقيم بالحجاز ، فينبه عمر بن عبد العزيز
والي الحجاز وقتذاك ، فيقول جرير :

نفاك الأغرُّ ابنُ عبد العزيز وحقك تُنفَى من المجد

ويهب بعض السادة جارية لجرير ، ختمَلَّ عيشَه الحشن ، ويقول فيها جرير :

تكلفني معيشة آل زيد ومن لي بالمرِّقِّ والصِّباب^(١)

وقالت : لا تضمُّ كضم زيد وما ضمي وليس معي شبابي !

فلا يلبث الفرزدق أن يعبره بقوله :

فإن تفرُّككَ عِلْجةُ آل زيد ويعوزك المرقق والصِّباب^(٢)

فقدما كان عيش أبيك مرّاً يعيش بما تعيش به الكلاب

وكانت مهارة الهجاء تتركز في أدراكه لوجه النقص البارز في خصمه ،
وقدرته على الافتنان والتصرف في استخراج مختلف الصور وألوان الدعابة
الساخرة منه . فهجاء جرير للأخطل يدور في معظمه حول نصرانيته . فكل
صوره من الحمر والصليب والجزية المفروضة على أهل الذمة .

يقول له :

قبح الإله مَن الصليبُ إلهه واللابسين برانس الرهبان

والتابعين جريجسا وبنيّه والتاركين مساجد الرحمن

(١) المرقق نوع من الفطائر . الصناب لون من الطعام يتخذ من الخردل والزبيب .

(٢) فركت المرأة زوجها (من باب نصر وطرب) كرهته . الملح من ليس مربيا .

والذابحين إذا تقارب فصَحُّهم شَهَبَ الجلود خسيصةَ الأثمان
 من كل ساجي الطرف أعصَلَ نأْبُه في كل قائمة له ظِلْفَان
 تغشى ملائكةُ الإله قبورنا والتغليُّ جنازةُ الشيطان
 يُعطي كتابَ حسابِه بشِماله وكتابُنا باكفنا الأيمان
 ويقول له :

الضاربون على النصارى جزية وهدى لمن تبع الكتاب ونورا
 إِنَّا نَسَوْدُ في الحياة حياتنا ويسود من دخل القبور قبورا
 الله فضلنا وأخزى تغلبا لن تستطيع لما قضى تغييرا
 الباعثين برغم آنفٍ تغلب في كل منزلة عليك أميرا
 أقبال الصليب ومارس رجس تَقَمِّي شهباء ذات كُتائبٍ جهورا^(١)
 أمُّ الأخيطل بالرحوب إذا انتشت عَلِقَتْ بِشِقْشِقَةِ العِجان هديرا
 لَقِحَتْ لِأَشْهَبِ في الكُناسة داجِنا خنزيرةُ فتوالدا خنزيرا^(٢)
 وَلَدَ الأخيطل أمه مخمورة قبحا لذلك شاربا مخمورا
 ويقول له :

(١) مار سرجس قديس نصراني كانت تغلب تتخلده شعارا لها في الحروب . كتيبة شهباء
 بيضاء لكثرة ما عليها من حديد . جمهور مجتمة متماسكة .
 (٢) يتهمها بأنها قد انت بالاختل من خنزير لا من أبيه . اشهب في الكناسة داجنا
 يعني خنزيرا .

رُوَيْدَ كُمْ مَسَحَ الصَّليبَ إِذَا دَنَا هَلالُ الْجَزَى واستعجلوا بالدرهم^(١)

وهجاء جرير للفرزدق يدور حول ما يزعم من أن أجداده كانوا يحترفون الحدادة . فكل صورة من النار والحديد والشرر والدخان والكبر وأدوات الحدادة والرقيق الذين يتخذونهم لهذه الصناعة وما يتهم به نساءهم من ميل لهؤلاء العبيد :

فانفخ بكيرك يا فرزدق إنني	في باذخٍ لحل بيتك عالي
يارُبَّ معضلةٍ دفعنا بعد ما	عَيَّ القُيُونُ بحيلةٍ المحتال
مابالُ أملك إذ تَسَرَّبَلُ درعها	ومن الحديد مُفاضةٌ سِرْبالي
حَمَّمتَ وجهك فوق كيرك قائماً	وسقيت أملك فضلةَ الجُرَيَّال ^(٢)
فانفخ بكيرك يا فرزدق وانتظر	في كَرِّ نَباءٍ هديةَ القُفَّال ^(٣)

ويقول :

حدراء أنكرت القيون وريحهم	والحرُّ يمنع ضيمه الإنكارُ
لما رأت صدأ الحديد يجلده	فاللون أَوْرَقُ والبنانِ قِصار
قال الفرزدق : رقيعي أكيارنا	قالت : وكيف ترَقُّعُ الأكيار
رُقِّعَ متاعك إن جدي خالدٌ	والقَيْنُ جدُّك لم تَلِدْكَ نزار

(١) الجزى جمع جزية وهي الضرائب التي كان يؤديها أهل الكتاب (اليهود والنصارى) للدولة .

(٢) الجريال الخمر .

(٣) كرباء قرية من قرى الاهواز . القفال العائدون ، من قفل (كنصر وضرب) فهو قافل وجمع

ويقول :

فَدِينُكَ يَا فَرَزْدَقُ دِينُ كَلْبِي تَزُورُ الْقَيْنَ حَجًّا وَاعْتَارًا^(١)

فَظِلُّ الْقَيْنِ بَعْدَ نِكَاحِ لَيْلِي يُطَيِّرُ عَنْ سِبَالِكُمُ الشَّرَارَا^(٢)

وهجاء الفرزدق لجرير يدور حول فقرم واصطناعهم الحمر في تنقلهم وهو دليل الذلة ، لأن السادة يركبون الخيل والإبل . وهو يتأدى في ذلك إلى أغرب ألوان الخيال وأفحشه ، فيتصور رجالهم وقد هجروا مضاجعهم إلى الأتُن ، ويتخيل ما يكون من غيرة نساءهم من هذه الأتُن التي تنافسهن على أزواجهن .

يقول له :

يَا ابْنَ الْمَرَاغَةِ كَيْفَ تَطْلُبُ دَارِمَا وَأَبُوكَ بَيْنَ حِمَارَةٍ وَحِمَارِ

هَلَا غَدَاةَ حَبَسَتْهُمُ أَعْيَارُكُمْ يَجْدُودُ وَالْخَيْلَانِ فِي إِعْصَارِ^(٣)

وَالْحَوْفَزَانُ مَسُومٌ أَفْرَاسَهُ وَالْمَحْصَنَاتُ حَوَاسِرُ الْأَبْصَارِ

يَدْعُونَ زَيْدَ مَنَاةَ إِذْ وَلَّيْتُمْ لَا يَتَّقِينَ عَلَى قَفَا بُخْمَارِ

قَبِحَ إِلَهِ بَنِي كَلِيبٍ إِنَّهُمْ لَا يَغْدُرُونَ وَلَا يَفُونُ لَجَارِ^(٤)

(١) إلى أم الفرزدق . يتهما بالمبيد الذين كان يتخذهم جد الفرزدق للحدادة . ويقول له انك تشبهها .

(٢) السبال شعر الشاربين واللحية .

(٣) جدود يوم كان بين الحوفزان (وهو من بكر بن وائل) وبين بني يربوع (قوم جرير) . وحديثه مفصل في النقائض ج ٢ ص ٣٢ - ٣٥ .

(٤) أي أنهم لضعفهم لا يستطيعون الغدر . وهم في الوقت نفسه لا يفون ، لأن عدم غدرهم ناشئ عن الضعف وليس عما طبعوا عليه من الوفاء .

يَسْتَيْقِظُونَ إِلَىٰ نُهَاقِ حِمَارِهِمْ وَتَنَامُ أَعْيُنُهُمْ عَنِ الْأَوْتَارِ^(١)
تَلْقَىٰ فَوَارِسَنَا إِذَا رَبَّقْتُمْ مُتَلَبِّبِينَ لِكُلِّ يَوْمٍ عَوَارِ^(٢)
ويقول له :

لِعَمْرِي لَقَدْ قَالَتْ أُمَامَةُ إِذْ رَأَتْ جَرِيرًا بَذَاتِ الرِّقَتَيْنِ تَشْتَعَا^(٣)
أُمُكْتَفِلٌ بِالرَّقْمِ إِذْ أَنْتَ وَاقِفٌ أَتَانِكَ أُمٌ مَّاذَا تَرِيدُ لِتَصْنَعَا^(٤)
رَأَيْتُكَ تَغْشَىٰ كَاذَتَيْهَا وَلَمْ تَكُنْ لَتَرْكَبْ إِلَّا ذَا السُّحُوجِ الْمَوْقَعَا
دَعَيْتُ يَا عَبِيدَ بَنِ الْحَرَامِ أَلَا تَرَىٰ مَكَانَ الَّذِي أَخْزَىٰ أَبَاكَ وَجَدْعَا
أَأَعْيَا عَلَيْكَ النَّاسُ حَتَّىٰ جَعَلْتُ لِي خَلِيلًا يِعَادِينِي وَأَتُنَّةَ مَعَا

وهجاء المغيرة بن حنبله لزياد الأعجم يدور حول فارسيتها ، فهو عالج
مستضعف مجهول النسب ألكن لا يقيم لهجته . وليس بناته إلا ولاند لم
يجر عليهن موسى في ختان^(٥)

(١) يجب لهم كيف يوقظهم نهاق الحمير ، ثم لا يوقظهم دم قتلاهم الذي يصرخ طلبا للثأر .
الأوتار جمع وتر (بكسر فسكون) وهو الثأر .

(٢) الربق (بكسر الراء) جبل فيه عدة مري يشد به البهم . فكل مروة ربقة . وربيق
(بالشديد) جعل الرأس في الربقة . يقول ان نوم جرير رعاة لا يصلحون للقتال . العوار
(بفتح العين) العيب . أي لكل يوم قتال يكشف من ميوب القتالين ويفضح كل جبان .

(٣) أمامة زوجة جرير . ذات الرقمتين اتانه . والرقمتان ما اكتنف دبر الحمار من
جانبيه . تشنع هم بأمر شنيع قبيح .

(٤) اكتفل الدابة ركب كفلها وهو مؤخرها ، الكاذبان أعلى الفخذين . ذو السحوج الوقع
الانان يريد آثار الدبر في ظهورها .

(٥) الأمانى ١١ : ١٦٦

يقول له :

أَزِيدُ إِنَّكَ وَالَّذِي أَنَا عَبْدُهُ ما دون آدم من أبٍ لك يُعَلِّمُ
فَالْحَقُّ بَارِضُكَ يَا زِيَادُ وَلَا تَرَمِ ما لا تُطِيقُ وَأَنْتَ عِلْجٌ أَعْجَمُ
أُظَنِّتَ لَوْمَكَ يَا زِيَادُ يَسْدُهُ قوس ستزتَ به قفاك وأسهم
عِلْجٌ تَعْصِبُ ثُمَّ رَاقٍ بِقَوْسِهِ والعِلْجُ تُعْرِفُهُ إِذَا يَتَعَمَّمُ^(١)
أَلْقِ الْعَصَابَةَ يَا زِيَادُ فَإِنَّمَا أَخْزَاكَ رَبِّي إِذْ غَدَوْتَ تَرْتَمُّ
وَأَعْلَمُ بِأَنَّكَ لَسْتَ مِنِّي نَاجِيًا إِلَّا وَأَنْتَ بَيْظَرُ أَمَكِ مُلْجَمُ
تَهْجُو الْكَرَامَ وَأَنْتَ أَلَامٌ مِنْ مَشَى حَسْبًا وَأَنْتَ الْعِلْجُ حِينَ تَكَلَّمُ
وَلَقَدْ سَأَلْتُ بَنِي نِزَارٍ كُلَّهُم وَالْعَالَمِينَ مِنَ الْكُهُولِ فَاقْسَمُوا
بِاللهِ مَا لَكَ فِي مَعْدٍ كُلِّهَا حَسْبُ وَأَنَّكَ يَا زِيَادُ مَوْذَمُ
ويقول له :

فَأَصْبَحْتَ عِلْجًا مِنْ يُزْرِكُ وَمِنْ يَزُرُّ بِنَاتِكَ يَعْلَمُ أَنَّهُنَّ وَلَا تُدْ
وَأَصْبَحَنْ قُلُفًا يَغْتَزِلْنَ بِأَجْرَةٍ حَوَالِيكَ لَمْ تَجْرَحْ بَيْنَ الْحَدَائِدِ
نَفَرْنَ مِنَ الْمُوسَى وَأَقَرَّرْنَ بِالْقِي يُقِرُّ عَلَيْهَا الْمُقْرِفَاتُ الْكُوَاثِدِ
بِإِصْطِخْرٍ لَمْ يَلْبَسْنَ مِنْ طَوْلِ فَاقَةٍ جَدِيدًا وَلَا تُتَلَقَّى لَهْنُ الْوَسَائِدِ

(١) راق عليه يروق يوقا (يفتح الراء) زاد عليه فضلا . أي انه حين تعصب وحمل القوس ظن انه قد راق أي زاد على الناس فضلا .

وما أنت بالنسوب في آل عامر ولا ولدتك المحصنات المواجد
ولا رببتك الحنظلية إذ غدت بنيتها ولا جيبت عليك القلائد
ولكن غذاك المشركون وزاحت قفاك وخديك البظور العوارد
ولم أر مثلي يا زياد بعرضه وعرضك يستبان والسيف شاهد
ولو أنني غشيتك السيف لم يقل إذا مت إلامات عالج معاهد

كان الجانب الأكبر من نقائض جرير والفرزدق منافسة أدبية كما قدمنا. ولذلك حرص الشاعر حين يحيب على نقيضة خصمه أن تكون إجابته من نفس البحر والروي ، حتى تظهر مزية السبق لأحدهما على الآخر . والظاهر أن الإجابة من نفس البحر والروي كانت قاعدة مقررة في الموازنة بين شعر الشعراء. فقد كان النقاد منذ عصر امرئ القيس ، إذا أرادوا أن يوازنوا بين شاعرين ، وازنوا بينها في شعر متحد في الغرض وفي الوزن والقافية . وقصة علقمة الفحل مع امرئ القيس ، حين احتكما إلى زوجته أم جندب ، أشهر من أن نحتاج إلى ذكرها . وهي قوية الدلالة على أن هذا أصل من أصول النقد القديم . وقد أخذ شعراء النقائض في هذا القرن أنفسهم بقيد جديد ، هو محاولة الإجابة على أبيات الخصم ونقضها بيتاً بيتاً . ويكفي في ذلك أن نقدم مثلين من قصيدة الفرزدق :

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائمه أعز وأطول

ونقيضة جرير :

لمن الديار كأنها لم تحلل بين الكناس وبين طلع الأعزل

فأول ما نلاحظ في النقيضتين كثرة اشتراك القوافي فيها . فنقيضة جرير
تشترك في قوافي أبياتها مع ثلاثة وثلاثين بيتاً من قصيدة الفرزدق ، مع أن
مجموع أبياتها ثلاثة وستون بيتاً . وجرير يتلعب في نقيضته معاني الفرزدق ، فيجيب
عليها بنفس الطريقة والأسلوب ، مقابلاً الفخر بفخر ، والصورة بصورة ،
والحوار بحوار .

يقول الفرزدق .

إن الذي سَمَكَ السماءَ بَنَى لنا بيتاً دعائمه أعز وأطول^(١)
بيتاً بناه لنا المليك وما بَنَى حَكَمُ السماءَ فإنه لا يُنْقَلِ .
بيتاً زُرارةٌ مُحْتَسَبٍ بِفَنَائِهِ ومجاشعٌ وأبو الفوارس نَهْشَلُ^(٢)
لا يحتجني بفناء بيتك مثلهم أبداً إذا عُدَّ الفَعَالُ الأَفْضَلُ
فيجيبه جرير عن البيتين الأولين بقوله :

إن الذي سَمَكَ السماءَ بَنَى لنا بيتاً عَلاكَ فَماله من مَنَقَلِ
أخزى الذي سَمَكَ السماءَ مجاشعاً وبني بناءك في الحضيض الأسفل
بيتاً يَحْمُمُ قَيْنَكُم بِفَنَائِهِ دَنَساً مَقَاعِدُهُ خَبِيثَ المَدْخَلِ

(١) سَمَكَ السماءَ رفعها . السَمَك (يفتح السين وسكون اليم) السقف . أعز وأطول
يسنى من يشك .

(٢) زُرارة ومجاشع ونهشل كلها من بيوت دارم (ودارم من تعيم) ، والفرزدق من مجاشع
ثم من دارم (راجع شجرة أنساب تعيم) . الاحتياج أن يجلس الرجل على الأرض ثانياً سابقة
وقد شدحها إلى ظهره بسمائه أو نطاقه أو نجاد سيفه أو نحو ذلك ليطمئن في جلسته .
والفرزدق يكتفى به هنا عن السيادة والاطمئنان والحلم .

ويحييه عن البيت الثالث في فخره بنهشل - وهم من خير قومه لأنه من مجاشع - بقوله :

أَعَيْتَكَ مَأْتَرَةُ الْقَيْوْنِ مجاشعُ . فانظر لعلك تَدْعِي فِي نَهْشَلِ

ويحييه عن البيت الرابع الذي يشير فيه إلى احتبائهم بفناء بيتهم - يكنى بذلك عن عزهم - بقوله :

قَتِلَ الزُّبَيْرُ وَأَنْتَ عَاقِدُ حُبْوَةٍ . تَبَا لِحُبْوَتِكَ الَّتِي لَمْ تُحْلَلِ^(١)

ويقول الفرزدق :

وَإِذَا دَعَوْتُ بَنِي فَقِيمٍ جَاعِنِي . بَحْرُ^٢ لَهُ الْعَدَدُ الَّذِي لَا يُعَدَّلُ
وَإِذَا الْبَرَاجِمُ بِالْقُرُومِ تَخَاطَرُوا . حَوْلِي بِأَغْلَبِ عِزُّهُ لَا يُنْزَلُ^(٣)

فيجيبه جرير :

وَامْدَحْ سَرَاةَ بَنِي فَقِيمٍ إِنَّهُمْ . قَتَلُوا أَبَاكَ وَثَأْرُهُ لَمْ يُقْتَلْ
وَدَعِ الْبَرَاجِمَ أَنْ شَرَبَكَ فِيهِمْ . مَرُّ عَوَاقِبِهِ كَطْعَمِ الْخَنْظَلِ

(١) هو الزبير بن العوام الصحابي كان قد قصد المراق للأصلاح بين المتخاصمين مع طلحة وعائشة أم المؤمنين . وقد زعم جرير أنه كان جارا للنمر بن زمام المجاشعي فقتل في جواره . وهو يقول له : قتل جاركم وأنتم مطمئنون لا تتحركون ولا تطون العبوة ناهضين لأهائته .

(٢) بنو فقيم من دارم ، فهم أبناء عم مجاشع قوم الفرزدق (راجع الشجرة) . مجر جيش كبير . البراجم بيوت من تميم يلتقون مع بيت الفرزدق في جدم الأمل (حنظلة بن زيدمناة بن تميم) - راجع شجرة الأنساب . القروم جمع قرم (بنتح لسكون) وهو لعل الأبل والسيد العظيم القدر .

ويقول الفرزدق :

وهب القصائدَ لي النوايغُ أدمضوا وأبو يزيد وذو القروح وجِرْوَلُ
وأخو بني قيسٍ وهن قتلنه ومهلِيلُ الشعراء ذاك الأول^(١)
فيجيبه جرير :

حَسْبُ الفرزدق أن تُسَبَّ مجاشع ويَعُدُّ شعر مُرَقَّشٍ ومُهْلِيلِ
ويقول الفرزدق :

إني ارتفعت عليك كلَّ نَيْيَّةٍ وعلوتُ فوق بني كليب من عَلِ^(٢)
فيجيبه جرير :

إني انصببت من السماء عليكمُ حتى اختطفتك يا فرزدق من عل
ويمبر الفرزدق جريراً أمه حيث يقول :

وتركتَ أملك يا جريرُ كأنها للناسِ بركةٌ طريقُ مُعْمَلِ^(٣)
ويعضي في تفصيل الصورة ممعناً في الفحش .

(١) النوايغ النابغة الذبياني والنابغة الجعدي ونابغة بني شيبان . أبو يزيد هو المخبل .
ذو القروح امرؤ القيس . جرول هو الحطيئة . أخو بني قيس طرله ابن العبد . هن قتلنه
يعني القوافي .

(٢) النية الطريق .

(٣) طريق معمل مستعمل تدوسه الأقدام .

فِيحْيِيهِ جَرِيرَ مَعِيْرًا بِأَخْتِهِ (جَعْنَيْنِ) :

بَاتَ الْفَرَزْدَقُ يَسْتَجِيرُ لِنَفْسِهِ وَجَعْنَيْنَ كَالطَّرِيقِ الْمَعْمَلِ

ثم يقابل تفصيل الفرزدق في الفحش بتفصيل مثله :

ويقول الفرزدق :

حَلَّلُ الْمُلُوكِ لِبَاسُنَا فِي أَهْلِنَا وَالسَابِغَاتِ إِلَى الْوَعْيِ نَتَسَرَّبِلُ
أَحْلَامُنَا تَرْنُ الْجِبَالِ رِزَانَةً وَتَخَالِنَا جَنًّا إِذَا مَا نَجْهَلُ

فِيحْيِيهِ جَرِيرَ :

لَا تَذْكُرُوا حُلُلَ الْمُلُوكِ فَإِنَّكُمْ بَعْدَ الزَّيْرِ كَحَائِضٍ لَمْ تُغْسَلِ
أَبْلَغُ بَنِي وَقَيْبَانَ أَنْ حُلُومَهُمْ خَفَتْ فَمَا يَزْنُونَ حَبَّةَ خَرْدَلِ
وَيَحْنُكُمُ الْفَرَزْدَقُ إِلَى دَغْنَمَلِ النَّسَابَةِ فِي أَنَّهُ أَكْرَمُ مِنْ جَرِيرِ أَخْوَالِهِ حِينَ
يَقُولُ :

أَوْصَى عَشِيَّةً حِينَ فَارَقَ رَهْطَهُ عِنْدَ الشَّهَادَةِ وَالصَّحِيفَةِ دَغْنَمَلُ
أَنَّ ابْنَ ضَبَّةَ كَانَ خَيْرًا وَالِدًا وَأَتَمَّ فِي حَسَبِ الْكِرَامِ وَأَفْضَلُ^(١)
فَيُرَدُّ عَلَيْهِ جَرِيرٌ مَحْتَكِمًا إِلَى قَرِيشٍ فِي أَنَّ قَوْمَهُ أَكْرَمُ :

فَارْجِعْ إِلَى حَكَمَى قَرِيشٍ إِنَّهُمْ أَهْلُ النَّبُوءَةِ وَالْكِتَابِ الْمَنْزِلِ

(١) بنو ضبة اخوة تميم وهم اخوال الفرزدق .

فاسال إذا خرج الخدام وأحشيت حرب تضرّم كالحرّيق المشعل^(١)
أبنو طهية يعدلون فوارسي وبنو خضافٍ وذاك ما لم يعدل
ويفخر الفرزدق بأخواله من ضبة قاتلاً :

يا ابن المراغة أين خالك إنني خالي حبيش ذو الفعّال الأفضل
خالي الذي غصب الملوك نفوسهم وإليه كان حباؤه جفنة يُنقل^(٢)
فيجيبه جرير :

كان الفرزدق إذ يعود بخاله مثل الدليل يعود تحت القرم^(٣)
وافخر بضبة إن أمك منهم ليس ابن ضبة بالمعم المخول
ويفخر الفرزدق بقومه في الدروع والسيوف حين يقول :

يمشون في حلق الحديد كما مشت جرب الجال بها الكحيل المشعل^(٤)
يحمي إذا اخترط السيوف نساءنا ضرب تخير له السواعد أرعل

(١) الخدام الخلايل . خرج الخدام يعني وقت الفارة إذا فرغ النساء وشرن الثياب .

(٢) الحاء المطاء . آل جفنه هم الفاسنة ملوك الشام . وكان حبيش بن دلف خال الفرزدق قد أسر أحدهم وجز ناصيته ثم أطلقه على أن يبعث إليه كل عام بهبائه من غير أن ينتقل إليه .

(٣) القرم شجر ضعيف لا شوك له .

(٤) الكحيل القطران تطلق به الأبل إذا أصيبت بالجرب . يشبه قومه لكثرة ما عليهم من الحديد بالأبل المطلبة بالقطران .

فيجيبه جرير بأنه إنما يحسن وصف السيوف لأنه حداد ابن حداد ، فهم
يصنعون السيوف ، ولكن غيرهم يحارب بها :

تَصِفُ السيوفَ وغيرُكم يَعْصَى بها
يا ابن القيون وذاك فِعْلُ الصَّيْقِلِ^(١)

ويشير الفرزدق إلى أن جرير فيتهمه ويتهم أباه بها :

هلا سألت بني عُذانة ما رأوا حيث الأثانُ إلى عمودك تُرَحَّلُ
كسرت ثِييَتَكَ الأثانُ فشاهدُ منها بفيكَ مَبِينُ مستَقْبَلُ
رَمَحَتَكَ حينَ عَجِلْتَ قَبْلَ وِدَاقِها لكن أبوك وِدَاقِها لا يَعْجَلُ^(٢)

فيجيبه جرير مشيراً إلى اشتغالهم بالحدادة ، ويتهم أمه بقين من قبونهم
اسمه نَبْتَلُ :

ألهى أباك عن المكارم والعلی لي الكتائف وارتفاعُ المِرْجَلِ
وَلَدَتْ قُفَيْرَةً قد علمتم خَبِيئَةً بعد المشيب وبَظَرُها كالنَجَلِ
أشْرَكَتْ إِذْ حِيلَ الفرزدقُ خَبِيئَةً حوضَ الحمارِ بليلةٍ من نَبْتَلِ^(٣)

(١) الصيقل الذي يعقل السيوف .

(٢) النخبة الأسنان الأربع التي في مقدم الفم ، ننتان من فوق وثنان من أسفل .
والظاهر أن أسنان جرير الإمامية كانت ساطعة ، فزعم الفرزدق أن الأثان قد ومحنه برجلها
الخلطيتين فكبرها . الوداق طلب الفعل .

(٣) قفيرة أم الفرزدق . اشركت يخاطبها بذلك فيقول انك قد جئت بالفرزدق من غالب
أبيه (حوض الحمار) ، ومن نبتل المبد . فكلاهما أبوه . وهما مشتركان له .

وكثيراً ما كان يبدؤ الشاعر أن ينقض أبياتاً من رد خصمه ، ثم يضيفها إلى قصيدته . فنحن نجد في قصيدة الفرزدق هذه أبياتاً يرد بها على نقيضة جرير التالية لها . ولا شك أن مثل هذه الأبيات قد ألحقها الفرزدق بنقيضته بعد أن سمع رد جرير . وذلك مثل قوله :

يبكي على دَمِن الديار وأمه تعلو على كَمَرِ العبيد وتسفل
فهو رد على ما ابتدأ به جرير قصيدته من الوقوف بالأطلال :

لمن الديار كأنها لم تُحلَّل بين الكِناس وبين طَلح الأعزل
ومنه قول الفرزدق :

أَسَأَلْتَنِي عَنْ حُبَّوَتِي مَا بَالُهَا فَسَالْ إِلَى خَبْرِي وَعَمَّا تَسَال
فَاللَّوْمُ يَمْنَعُ مِنْكُمْ أَنْ تَحْتَبُوا وَالْعِزُّ يَمْنَعُ حُبَّوَتِي لَا تُحَلَّل
وَاللَّهُ أَثْبَتَهَا وَعِزُّ لَمْ يَزَلْ مُقْعَنَسِيًّا وَأَبِيكَ مَا يَتَحَوَّل
وهو رد على بيت جرير :

قَتِلَ الزَّيِيرُ وَأَنْتَ عَاقِدُ حُبَّوَةٍ تَبًّا لِحُبُّوتِكَ الَّتِي لَمْ تُحَلَّل
وتبدو هذه الظاهرة بشكل أوضح في قصيدة جرير المشهورة التي رثى بها زوجته :

لولا الحياءُ لهاجني استعبار ولزرت قبرك والحبيبُ يزار
فالرثاء فيها ينتهي عند البيت الثاني والعشرين ، ثم ينتقل الشاعر إلى هجاء

الفردق ، حتى يبلغ بالقصيدة سبعة عشر بيتاً فوق المائة . والواقع أن جريراً
 رثى زوجته ، فنقض عليه الفردق الرثاء ، متمشياً بمصيبته ، مهاجماً زوجته
 اللقيدة ، في غلظة قاسية ، لا تصدر إلا عن رجل فظ جاف كالفرزدق . ثم رد
 جرير على الفردق ، وألقى الرد بالرثاء ، فبدأ رثاؤه غريباً على القارئ الذي
 لا يكاد يتصور أن شاعراً حزيناً منكوباً في زوجته ، يحذ في نفسه الفراغ للخواص
 في مثل هذا الهجاء الخبيث المفحش . ودارس النقيصتين يجد ذلك واضحاً لا
 شك فيه . ففي نقيضة الفردق أبيات يتشمت فيها بمصيبة جرير ويهجو زوجته ،
 وهي رد على الجزء الخاص بالرثاء من قصيدة جرير . على أن الشطر الهجائي من
 نقيضة جرير كله رد على نقيضة الفردق .

يبدأ جرير مرثيته بقوله :

لولا الحياءُ لهاجني استعمار ولزرتُ قبركِ والحبيبُ يُزار
 ولقد نظرتُ وما تَمَتُّعُ نظرةٍ في اللحدِ حيثَ تَمَكَّنَ المِحْفَارُ^(١)
 فجزاكِ ربُّكِ عن عَشِيرِكِ نظرةً وسقى صَدَاكِ مَجْلَجِلٌ مِدْرَارُ^(٢)

وهي أبيات تقطر حزناً ووفاء . وهي من أجل مناقيل في الرثاء صدقاً
 وروعة . ولكن الفردق ، ذلك الشاعر اللفظ ، لا يتورع عن اغتنام هذه
 الفرصة لهجاء جرير ، فيجيب عن هذه الأبيات بقوله :

إن الزيارةَ في الحياةِ ولا أرى مَيِّتاً إذا دخلَ القبورَ يُزار

(١) المحفار آلة الحفر . يقول : ما فائدة نظري إليها وقد حفرت حفرتها وانزلت فيها ؟

(٢) الصدى جسم الميت . مجلجل له صوت شديد . يدمو الله أن يسقي قبرها بسحاب
 شديد الرمء لغزاره وتكاثف طبقاته .

ويضي في الرد ، متصوراً نظرة جرير الحزينة إلى زوجته نظرة خبيثة
تفيض بالإثم ، فهو لا يبكي فيها إلا شهوته :

ولقد هَمَمْتَ بِسَوَاءٍ وفعلتها في اللحد حيث تمكن المحقار
أبعدما أكل الضباع رَحِيْبَهَا تُذْرى الدموع أهانك القَهَّارُ^(١)
ورثيتها وفضحتها في قبرها ما مثلَ ذلك تفعل الأخيار
وجرير يقول في مرثيته :

كانت مُكرِّمةَ العشير ولم يكن يَخْشَى غوائلَ أمِ حَزْرَةَ جَارُ
فيجيبه الفرزدق :

كانت مُناققةَ الحياة وموتها خزيٌ علانيةٌ عليك وعارُ
وجرير يقول :

صَلَّى الملائكةُ الذين تُخَيَّرُوا والصالحون عليكِ والأبرارُ
فيجيبه الفرزدق :

قال الملائكةُ الذين تخيروا والمصطفون لِدِينِهِ الأخيارُ
أبكى الإلهُ على نَبِيئَةٍ من بَكَى جَدَقًا ينوحُ على صدهاء حمار^(٢)

(١) الرحيب مودة المرأة .

(٢) النبيشة التراب الذي يخرج من القبر اذا حفر . ولعله هنا اسم الموضع الذي دفنت فيه . الجدف كالجدث ، وهو القبر . الصدى جثة الميت .

وبعد ، فجرير يبدأ الجزء الهجائي التالي للثناء من نقبضته بقوله :

أَفَأَمَّ حَزْرَةَ يَا فَرْزَدَقَ عَبْتَمَ غَضِبَ الْمَلِيكَ عَلَيْكَ الْقَهَارَ

ويمضي في الإجابة على أبيات الفرزدق ، مقابل الفخر بفخر ، والحوار بحوار ، والصورة بصورة ، والفحش بفحش مثله . فالفرزدق يلح في نقبضته على أثن جرير ، ويفتن في استخراج الصور البالغة في البراعة والفحش معاً ، فيقول له : فِيمَ بَكَؤُكَ عَلَى زَوْجَتِكَ ، وَلَكَ مِنْهَا فِي الْآنِ خَيْرٌ خَلَفَ ؟ فَاهْبِ إِلَى أَبِيكَ يَخْطُبُ لَكَ إِحْدَاهُنَ ... ثم ينصحه متيهاً يتخير الأ Bakar .

وجرير يعدل هذه الصورة ، التي يفتن فيها الفرزدق في تصوير الحُمُر ، بصورة مثلها ، يفتن فيها في تصوير القَيْن . فليس في قبر أبيه إلا أدوات الحدادة ، كَتَيْفٌ وَكَلْبَتَانِ وَمِنْشَارٌ . وليس يُذَكَّرُ أبوه بخير إلا إذا تصدع مِرْجَلٌ ، أَوْ كَسِرَتْ قِدَرٌ ، فَقَدْ كَانَ خَيْرٌ مِنْ يَصْلَحُهَا . وَحَذَرَاءُ ، زَوْجُ الْفَرْزَدَقِ ، قَدْ أَنْكَرْتَ الْقَيْنَ وَرِيحَهُمْ . (وَالْحَرُ يُنْعُ ضِيَمَهُ الْإِنْكَارُ) . ويمضي في تصور ما يكون بينه وبينها من حوار ، إذ يطلب إليها ترفيع أكباره ، فتجيبه غصبي بأنها لا تحسن ذلك ، فجدها خالد لم يكن حداداً . وهي غاضبة على قومها الذين زوجوها من (قَيْنٍ أَحْمَ لَفْسُوهِ إِعْصَارُ) ، فجمعوا عليها بين الاغتراب عن أهلها ، والذل الذي تلقاه في بيت زوجها . ثم ينهم جرير أم الفرزدق وبنات الجَلَوْتُبَى - وهو لقب مجاشع - بالعبيد من قبونهم ، ويخص منهم عبداً اسمه جُبَيْرٌ ، بادئاً ذلك بقوله :

سَبُّوا الْحِمَارَ فَسَوْفَ أَهْجُو نِسَاءَ لَلْكَيْرِ وَسَطَ بِيوتهن أَوَارَ

ومن الخصائص الجديدة على فن الهجاء في النقائص ، هذا الأسلوب القصصي الذي ابتدعه جرير والفرزدق ، وبرعا فيه براعة ظاهرة ، لا يقض منها إلا

إمعانها في الفحص البديء ، الذي تنفر منه كل نفس نظيفة الفطرة . ومع ما في هذه الواقعية المارية التي تلتقط مادتها من الوحل والأقذار من إسفاف منفر ، فهي تنطوي على ملكة شعرية خصبة في دقة التصوير ، وفي تسلسل الحوار على نحو بالغ في محاكاة الطبيعة . ونحن نكتفي في التمثيل لهذا الأسلوب بما قدمنا ففيه غناء . وما حملنا على تقديم ما قدمناه من نماذجه - على ما فيها من سخف - إلا أن ذلك هو السبيل الذي لا سبيل غيره لتصوره .

ولم يبق إلا أن نلاحظ على هذه الطبقة من المحترفين للهجاء ، ما أشرنا إليه في مقدمة هذا البحث ، من أن معظمهم قد دُفع إلى هذا الاتجاه نتيجة إحساسات مكبوتة ، أو دوافع مستترة ، هي شعور بالنقص في معظم الأحيان وشعور بالاضطهاد أو التفوق في أحيان أخرى . فالتلصص لأخبارهم يجد أن معظمهم قد أحاط بنشأته شيء من النقص الذي بغض من قدرهم ، ويهون من أمرهم على الناس ، ويحقّرهم في أعينهم ، وأنهم يصطنعون الهجاء ليُكسبهم رهبة في عيون الناس . ونحن نقدم بعض الأمثلة ؛ مما نعرف عن نشأة بعض الهجائين ، الذين جاء ذكرهم في هذا الفصل .

كان جرير من أسرة فقيرة مغمورة . وكان قبيحاً ^(١) وُلِدَ لسبعة أشهر . وكان عاقاً لأبيه ، لأنه ساخط على الظروف التي جاءت به إلى الدنيا عن طريق هذا الرجل الحامل المغمور ، الذي لا يجد فيه شيئاً يستطيع أن يفخر به . حتى لقد استعار منه مرة فحلاً يُطَرِّقه في إبله ؛ فلما استغنى عنه ، جاءه أبوه في بَتٍّ خلّق يسترده ، فدفعه إليه قائلاً : هذا ('تَرَدُّ' إلى عطية تُعْتَل) ^(٢) وهو بذلك يشير إلى بيت الفرزدق فيه :

(١) القبيح الضئيل الجسم .

(٢) عطية هو والد جرير .

ليس الكِرَامُ يَنَاحِلِك أباَهُمْ حَتَّى تُرَدَّ إِلَى عَظِيَّة تُعْتَل

وكان الفرزدق بشع النظر، فوجهه غليظ جَهِنم القَسَمَات ، لا يشبهه إلا غِلَظُ طبعه . وهو على جهامته وضخامة قسَماته ، منقَر من آثار الجُدَرِي ومن أجل ذلك لقب بالفرزدق ، وهو الرغيف الضخم . وكان مع هذا غليظاً قصيراً أصلع ، كما يفهم من شعر جرير فيه ، حين يسميه (القُرَيْند الأصلع) وحين يقول فيه :

لقد ولدتُ أمُ الفرزدق فاجراً فجاءت بوزوآزٍ قصيرِ القوائم^(١)

وكان يجمع إلى كل هذا ، شعوراً بالتفوق في النسب ، يبلغ به حد الجنون .

وكان الأخطل نصرانياً مغموراً في بلد إسلامي . وكان في طفولته مهملاً من زوج أبيه ، يذوق آلام الحرمان ، ويعاني كثيراً من التضييق ، الذي جعله متمرداً منذ نشأته ، يلتمس السبيل للظهور بالإفحاش على الناس ، حتى 'لقب' بالأخطل - والخطَل التسرع إلى البذاءة والسفه -

وكان الأقبِشَر أحمر الوجه أقشَر . وكان أبغض الأشياء إلى نفسه أن يناديه الناس بهذا اللقب ، لأنه يذكره بما يكره من نفسه ، وما يحس من نقصه ودماثة منظره . وقد جعل منه هذا الشعور هجاء فكها ، بارع النكتة والدعابة . وكان مع هذا فقيراً ، يستدين ولا يبالي من أي وجه اقترض ، ويمدح بدرهمين وثلاثة ، وكان عَنِيناً ، لا يأتي النساء .

(١) الوزواز الخفيف السريع الوثب والمقارب الخطو .

وكان المنيرة بن حَبْناء أبرص ، وكان من أمرة خاملة ليس فيهم إلا مبتلى
بآفة عظيمة ، فأخوه صخر بن حبناء أعور ، وأخوه الآخر مجذوم ، وأبوه
مصاب بالحبْن ، وهو داء في البطن يعظم منه ويرى ، وهو ما نسميه الآن
مرض الاستسقاء .

وكان الحكم بن عبدل أعرج أحذب ، لا تكاد تفارقه عصاه .

وكان معظمُ الموالي الذين ظهروا في هذا العصر هجائين ، كما سنبين في
فصل نفرد لهجائهم .

هؤلاء رجال قد فشلوا في أن يحتلوا مكانتهم في الهيئة الاجتماعية ، عن
طريق حب الناس لهم ، واحترامهم إياهم لأشخاصهم ، فهم يحتلون هذه المكانة
بالإرهاب والتهديد .

نقائض جرير والفرزدق والأخطل

نقائض جرير والفرزدق والأخطل هي أشهر ما عرف الأدب العربي في هذا الفن وأطولهُ . وليست هذه النقائض هجاء خالصاً ، فهي خليط من فنون الشعر التي عرفها الأدب في ذلك الحين ، فيها فخر وفيها مدح وفيها نسيب وفيها وصف للبادية ونباتها وحيوانها ، وهي في ذلك تتمشى مع ما عرف عن القصيدة العربية ، من تنقلها بين شتى الأغراض .

ولم يكن الهجاء هو الغرض الأساسي في كل القصائد التي اشتملت عليها النقائض ، فقد كان الشاعر ينشئ قصيدته في بعض الأحيان لغرض آخر غير الهجاء ، فلا يلبث خصمه أن ينقضها . والأمثلة على ذلك كثيرة ، منها لامية الأخطل :

عفا واسطُ من آل رَضَوَى فَنَبْتَلْ فَمُجْتَمَعُ الحَرَيْنِ فَالصَبِرُ أَجْمَلْ

فهو لم يذكر فيها جريراً ولم يعرض له . وإنما أنشأها في مدح خالد بن عبد الله بن أسيد . بدأها بالوقوف على الأطلال ، وشبه نفسه في ذهوله بالثلج وانتهاز هذه الفرصة فتخلص إلى الخمر وأطال ، ثم انتقل إلى وصف الصحراء وروحشتها وقوتها على المسافر فيها ، وما لقيت ثاقته من تعب ، وما تعرض له معها من أهوال في سبيل الوصول إلى ممدوحه . فلم يصل إليه إلا وقد فرغ من نصف قصيدته غزلاً وخمراً ووصفاً . ثم صرف بقية قصيدته في الإشادة بممدوحه ، ولم يكد يخرج في ذلك عما ألف العرب في مدح السادة والقواد .

وقد كان يمكن أن تمر القصيدة بسلام من غير أن تسرعني انتباه جرير ، لولا أن الأخطل قد عرض في نهايتها لوقعة الجحاف ببني تغلب في يوم (البِشْر) ، وعاتب بني مروان في ذلك عتاباً عنيفاً ، وحملهم جريرة هذا اللص الخارج على القانون ، وألزمهم ما ضاع من دماء قومه ، وكاد يصفهم بأشنع ما يوصم به عربي من انتهاك جواره ، ملوحاً بقوة قومه بما يشبه التهديد :

فسائل بني مروان ما بال ذِمتهم وحبل ضعيف ما يزال يُوصَل
بنزوة لص بعد ما مرَّ مُصعَبُ بأشعث لا يُفلى ولا هو يُغسل^(١)
أمركَ الجحافُ ثم أمرته بجيرانكم وسط البيوت تُقتل
لقد كان للجيران ما لو دعوتهم به عاقل الأروى أتكتم تنزل^(٢)
فإن لا تغيرها قريش بملكها يكن عن قريش مستأز ومراحل^(٣)
ونغرر أناساً عرّة يكرهونها ونحشى كراماً أو غوت فنقتل^(٤)

وقد نبهت هذه الأبيات الأخيرة جريراً ، فنقض عليه قصيدته ، ملثمتاً بما لقي التغليبون على يد الجحاف وقومه ، معيراً الأخطل بكاءه ، وضعفه عن الانتصار بغير قريش ، الذين هم في حقيقة الأمر أبناء عمومة القيسية ، لأنهم مضرية :

(١) بأشعث يعني ابن زياد وكان مصعب قد قتله . ولما كانت وقعة دبر الجالليق احتسب مبيد الله بن زياد رأس مصعب .

(٢) الماقل التي تمتص بأعالي الجبال . يقول كان بيننا وبينكم عهد وميثاق غليظ لو دميت به الأروى المتصمة بأعالي الجبال لنزلت من مقبلها .

(٣) ما ز واستماز انتقل من مكان إلى آخر .

(٤) المر (بفتح الميم) الجرب . مره بالشر لطفه به .

بكى دَوْبَلٌ لَا يُرْقَىءُ اللهُ دَمْعَهُ أَلَا إِنَّمَا يَبْكِي مِنَ الذُّلِّ دَوْبَلٌ^(١)
 جَزَعَتْ ابْنَ ذَاتِ الْفُلْسِ لِمَاتِدَارَكَتِ مِنَ الْحَرْبِ أَنْيَابٌ عَلَيْكَ وَكُلْكَلٌ^(٢)
 فَإِنْ لَا تَعَلَّقُ مِنْ قَرِيشٍ بِذِمَّةٍ فَلَيْسَ عَلَى أَسْيَافٍ قَيْسٌ مُعَوَّلٌ
 لَنَا الْفَضْلُ فِي الدُّنْيَا وَأَنْفُكَ رَاغِمٌ وَنَحْنُ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَفْضَلُ
 وَمِنْ أَمْثَلِ ذَلِكَ فَائِيَةُ الْفَرَزْدَقِ الْمَشْهُورَةِ :

عَزَفْتَ بِأَعْشَاشٍ وَمَا كَدْتَ تَعْرِفَ وَأَنْكَرْتَ مَنْ حُدَرَاءَ مَا كُنْتَ تَعْرِفُ
 فَقَدْ أَنْشَأَهَا يَحْيَى عَلَى شَاعِرِ الْأَنْصَارِ ، الَّذِي تَحْدَاهُ أَنْ يَقُولَ مِثْلَ قَوْلِ
 حَسَّانَ (لَنَا الْجَفْنَاتُ الْفُرُءُ يَلْعَنُ بِالضُّحَى) . وَهِيَ قَصِيدَةٌ طَوِيلَةٌ تَزِيدُ عَلَى مِائَةِ
 بَيْتٍ ، لَمْ يَعْزُضْ فِيهَا الْجَزِيرُ ، كُلُّهَا فَعَزَّزَ بِنَفْسِهِ وَبِقَوْمِهِ . وَلَكِنْ جَرِيرٌ أَوْ نَقَضَهَا
 عَلَيْهِ بِفَائِيَتِهِ :

أَلَا أَيُّهَا الْقَلْبُ الطَّرُوبُ الْمَكْلُفُ أَفَقُ رُبَّمَا يَنْأَى هَوَاكَ وَيُسَعِّفُ
 فَاضْطَرَّ الْفَرَزْدَقُ أَنْ يَلْحَقَ بِقَصِيدَتِهِ أَبْيَاتًا لَا تَزِيدُ عَلَى الْعَشْرِينَ ، يَرُدُّ بِهَا
 عَلَى جَرِيرٍ .

وَمِنْ أَمْثَلِهِ كَذَلِكَ رَائِيَةُ جَرِيرٍ ، الَّتِي رَأَى بِهَا زَوْجَتَهُ :

لَوْلَا الْحَيَاءُ لَهَا جَنِي اسْتِعْبَارٌ وَلِزَرْتُ قُبْرَكَ وَالْحَبِيبُ يُزَارُ

(١) رَفَأَ الدَّمْعَ انْتَقَطَ . يَدْمَعُ عَلَيْهِ فَيَقُولُ : لَا جَفَفَ اللَّهُ دَمْعَكَ .

(٢) الْفُلْسُ (يَفْنَحُ فَسْكَونَ) وَرَقَةُ الْجَزْبَةِ ، كَانَتْ تَخْتَمُ وَيَمْلَقُهَا اللَّامُ لِي عَنْقَهُ دَلَالَةً
 عَلَى أَنَّهُ أَدَى الْجَزْبَةِ .

وهي اثنان وعشرون بيتاً . وقد نقضها عليه الفرزدق متمثلاً بمصيبتها في
رأيتها :

أَعَرَفْتَ بَيْنَ دَوَيْتَيْنِ وَحَنْبِلٍ دِمْنًا تَلُوحُ كَأَنَّهَا الْأَسْطَارُ
فاضطر جرير أن يحبيه ، وألحق رده برثائه الأول وأطال ، حتى بلغت
القصيدة مائة بيت وسبعة عشر بيتاً .

والواقع أن القصد إلى الهجاء ، لم يكن هو الدافع الأول إلى إنشاء هذه
المجموعة الضخمة من الشعر . فلم يكن هم الشاعر أن ينال من خصمه فحسب ،
ولكن كان هم الأول أن يحميد ويبدع ويتفوق في فنه . ولذلك فقد كان يكلف
نفسه أن يحيب على خصمه بقصيدة من نفس البحر والروي ، وهو تكليف يضيق
على الناقض السبيل ، ويظهره بمظهر المتحدي الذي يترك لخصمه اختيار نوع
السلاح الذي يريد أن يبارز به . وهذا التنافس يعلل لنا ما نجد في النقائض من
فخر كثير بالبراعة في الشعر ، وشدة وقعه ، وذيوعه على ألسن الناس ، وتكرار
هذا الفخر في كل مكان ، بأسلوب متشابه ، يضيق به القارئ في كثير
من الأحيان .

ونحن لا نستطيع أن نزعّم أن الفن الهجائي في هذه النقائض ممتاز ، يبلغ
حد الرفعة . وقد يكون من الظلم للنقائض ، وللمصر الذي أنشئت فيه ، أن
تقارن بغيرها من ألوان الهجاء في الأمم الأخرى ، أو تقارن بالشعر الهجائي
العباسي ، كهجاء ابن الرومي والمتني والمعرى . وإنما العدل أن تقاس هذه
النقائض بمصرها وظروفها التي أحاطت بها . فهي أولاً شعر بدوي ، لا يتذوقه
القارئ المعاصر في سهولة ويسر ، لأنه لا يترك في نفسه صدى ، ولم يقصد به
أصحابه أن يخاطبوه ، وإنما خاطبوا به قومهم ، من هم على شاكلتهم في
البداءة ، وعلى طريقتهم في الحس والذوق . فالقارئ لا يستطيع أن يحس
جماله ، إلا بعد أن يقامي كثيراً من الملل والسأم ، ويتجملد لما تضيق به نفسه في

أول الأمر ، حتى إذا أوغل في القراءة ، ومضى في الدراسة ، غمره جو هذا الشعر ، ونقله إلى قلب البادية ، وإلى صميم هذه الحياة البدائية الخشنة . وعند ذلك فقط ، يستطيع أن يتذوق شعرهم . فهو لا يتذوقه ، إلا بعد أن يتعرف إلى أصحابه ، وبصحبهم صعبة طويلة ، تخلق في نفسه شيئاً من الإلف لهذه الحياة ، ولهؤلاء الشعراء .

والتناقض من ناحية أخرى محدودة الغرض ، بحكم الظروف التي أحاطت بها ، والتي دعت إلى إنشائها . فهي شعر شخصي ، محوره الفرد ، لا يكاد يسمو إلى الحياة في أفقها الواسع العام ، ولا يكاد يتصل بالنفس البشرية ، بصورها في أطوارها المختلفة ، وحالاتها المتباينة . فالشاعر فيه يفتخر بنفسه وقومه ، والفخر ثقيل على القارئ ، لأنه يصور الغرور . ويهاجم لبقضه وغيظه ، والقارئ لا يشاركه هذا الشعور بالقياس إلى المهجو . ويمدح لرغبة في مال أو جاه ، والقارئ لا يصيب من وراء ذلك شيئاً . وكل هذه الأسباب مجتمعة ، تجعل التناقض أقرب إلى الخصوص والضيقة ، بعيدة عن العموم والشمول ، في الاستناد إلى عاطفة يستطيع القارئ أن يشارك فيها بنصيب كبير ، فيتجاوب مع الشاعر ، ويستجيب لشعره ، ويفنى فيه وقت قراءته . وكل هذه الأسباب أيضاً ، توضح لنا أن هناك تبايناً كبيراً في العصر والظروف ، بين شعر النقاد ، وبين الشعر العباسي أو شعر الأمم الأخرى ، يبطل المقارنة أو المفاضلة ، ويجعلها جائزة غير صحيحة .

ولعل من الحق والقصد البعيد عن التحيز ، أن نقرر أن مثل هذا الشعر لم يعد يجتذب هواة الفن الشعري ، ممن يَشُدُّون اللذة الفنية الخالصة ، والمتعة الروحية الرفيعة . ولكثته شعر المختصين من الدارسين للأدب ، والعلماء الذين لا يجد أحدهم حرجاً من أن ينفق عراً طويلاً في دراسة حشرة نافعة ، أو صخرة مهملة . وليس معنى هذا أننا نسلب النقاد كل قيمة فنية ، فالواقع أن فيها نواحي كثيرة جميلة ، فهي بعض صور الإنسانية في طور من أطوارها . ولكنها

نقول إنها قد أصبحت بعيدة عن أذواق المعاصرين وأنهم لا يستطيعون أن يحدوا في الشعر نفسه لذة ، ولكنهم يحدون هذه اللذة فيما قد ينشأ حوله من دراسات ، تعتمد على التحليل والتعليل ، فتخلق فيه شيئاً من النشاط والحركة ، التي ترد إليه الحياة ، وتصله بالنفس الإنسانية ، وتقربه من قلوب المعاصرين .

ومع ذلك كله ، فللقائض قيمتها ومكانتها عند درامي الأدب العربي . وقيمتها ترجع إلى أسباب كثيرة . فشعراؤها الثلاثة هم أبرز الشعراء في عصرهم بغير شك . وشعرهم يمثل عصرهم جملة ، ويمثل الناحية الأدبية فيه بنوع خاص . فقد رسم الحياة في ذلك العصر بنجرها وثمرها ، وصوّر القيم الخلقية والاجتماعية تصويراً دقيقاً بارعاً . وهو مع هذا سجل صادق لكثير من الحوادث التاريخية التي عاصرتها والتي سبقتها ، منذ وعى العرب تاريخهم وأنسابهم . ولهذه الناحية الأخيرة ترجع معظم قيمة النقائض عند الدارسين . وقد زاد في قيمة هذه الناحية وأعظم من قدرها ، هذا الشرح الطويل الذي ينسب لأبي عبيدة ، والذي يفصل ما عرضت له النقائض أو أشارت إليه من أيام العرب ، تفصيلاً قصصياً رائعاً ، يصور الحياة في هذه المصور البائدة تصويراً قوياً حياً .

وقد تبان شعراء النقائض الثلاثة في طريقة علاجهم للهجاء . فغلب على الأخطل منه الشعري الرصين ، الذي يعنى بالألفاظ ، ويدقق في اختيار العبارات ، فكان في هجائه يرضي منه الشعري الرفيع ، بأكثر مما يستجيب لنضبه ، وللغيظ الذي يأكل نفسه . فهو لا يسف ولا يهبط إلى سباب العامة والداهاء . ولكن رصانة ألفاظه وجزالتها ، وما تضمنته من معاني شعرية ، أضفت على هجائه كثيراً من الوقار الذي حرمه روح الدعابة ، وحالت بينه وبين جمهور الناس ، الذين لا يعنيه من الهجاء إلا النكتة المضحكة ، والسخرية البارة المسلية . ولذلك ظل الأخطل في هجائه - كما هو في كل شعره - شاعر خاصة كما كان يقول قدماء النقاد .

وأما جرير فقد غلب عليه مرحه ودعابته ، فكان مذهبه في الهجاء قوله :
 (إذا هجوت فأضحك) . وكان أسهل زملائه الثلاثة وأحظام عند جمهور
 الناس . ولم يكن يتكلف في شعره ما يتكلف صاحبا من العناء ، فهو يكتفي
 بما وهبه الله من طبع شعري خصب ، ومن حس في دقيق رقيق ، وبأخذ
 فيض هذه المواهب ، دون أن يلج في استزافها ، أو استخلاص أقصى ما تحتمله
 من إجهاد . ولذلك بدا في شعره عامة ، وفي هجائه خاصة ، وكأنه يتكلم في
 غير قصد إلى الشعر ، فإذا هو يقول شعراً . وقد أحسن قدماء النقاد وأصابوا ،
 إذ وصفوه بأنه يغرف من بحر . وقد أتاحت له هذه السهولة قدرة عجيبة على
 الإطالة ، لم يكده يحاريه فيها إلا الفرزدق ، وجعلت هجاءه أكثر ذبوعاً على
 ألسن العامة .

أما الفرزدق فقد كان في عامة شعره معنياً بفنه ، ولكنه لم يكن موهوباً
 كجرير . ولذلك فقد كان يشق على نفسه ويجهدها ، حتى لقد وصفه القدماء
 بأنه ينحت من صخر . ويزيد في إحساس القارئ بهذا الجهد العنيف الذي
 يبذله في شعره ، خشونة ألفاظه وغرابتها ، التي أغرت به أصحاب اللغة والغريب .
 ولكن هذه الصفة التي سميت معظم شعره ، لم تكن واضحة في فنه الهجائي
 وضوحها في بقية الأغراض . فهو يحاري جريراً في تناول المعاني الهجائية من
 قرب ، ليستطيع أن يسايره في الإطالة والدعابة .

وليس قصدنا هنا إلى أن نتكلم عن الخصائص الهجائية لكل من هؤلاء الشعراء
 الثلاثة ، فقد أفردنا لكل منهم فصلاً من الكتاب ، تناولنا فيه حياته وفنه
 بشيء من التفصيل . ولكن الذي يعيننا في هذا المقام ، أن نتكلم عن الفن
 الهجائي في شعر النقاتض جملة ، وعن الخصائص العامة التي يشترك فيها
 شعراؤها الثلاثة .

فأول ما يسترعي الانتباه في هذه الخصائص العامة ، والابتدال . وهو
 ابتدال في المعاني وفي الألفاظ وفي الأخلاق جميعاً . أما المعاني فهي قريبة ، وهي

في كثير من الأحيان صورة من الحياة الواقعة ، لم يختزنها الحس الفني ، ليصفها من شوائبها ، وليضفي عليها من سحره وخياله وترفعه . فالشعر الهجائي يبدو كأنه لا يصدر عن أدنى جهد فني .

يقول جرير في هجاء الأخطل :

يا ابن الخبيثة ربحاً من عدلتَ بنا	أم من جعلتَ إلى قيس إذا خَطَرُوا
قيسٌ وَخَنْدِفٌ أَهْلُ المجد قبلكم	لستم إليهم ولا أنتم لهم خطر
وما لتغلب إن عَدْتُ مساعيها	نجمٌ يضيء ولا شمسٌ ولا قمر
والتغليُّ لثيمٌ حين تجهره	والتغلي لثيم حين يُخْتَبَرُ
والتغلي إذا تمت مروءته	عبدٌ يسوق ركابَ القوم مؤتجر
ما كان يرضى رسولُ الله دينهم	والطيبات أبو بكر ولا عمر
جاء الرسول بدين الحق فانتكثوا	وهل يضير رسولَ الله إن كفروا

ويقول في قصيدة أخرى :

عبدوا الصليب وكذبوا بمحمد	ويجبرئيل وكذبوا ميكا
أنسيت يومك بالجزيرة بعدما	كانت عواقبه عليك نكالا
حملت عليك حِمَاةُ قيسٍ خيلها	شُعْثاً عوابسَ نَحْمَلُ الأبطال
زُفَرُ الرئيسِ أبو الهذيل أبادكم	فسبى النساء وأحرز الأموال

ويقول للفرزدق :

زار الفرزدقُ أهلَ الحجاز فلم يحظَ فيهم ولم يُحمد
وأخزيتَ قومك عند الخطيم وبين البقيعين والفرقد^(١)
وجَدنا الفرزدق بالموسمين خبيثَ المدَاخل والمشهد
نفاك الأغرُّ ابنُ عبد العزيز وحقُّك تُنفَى من المسجد^(٢)
تقول نوارُ فضحتَ القيون فليت الفرزدق لم يولد
وقالت بذى حوَمَلٍ والرماح شهدتَ وليتكَ لم تشهد

وكل هذا تقرير ساذج للواقع ، لا يقصد إلا إلى الإخبار والإفادة ، فهو خلو من كل ميزة فنية ، وليس للشاعر فيه إلا فضل النظم ، فهو يقدم الأخبار نظماً ، بدل أن يقدمها نثراً ، في ثمرة لا غناء فيها .

ويقول الفرزدق للجرير :

يا ابن المراغة أنت الأم من مشى وأذل من لبنانه أظفار
وإذا ذكرتَ أباك أو أيامه أخزاك حيث تُقبَلُ الأحجار
أنتم قرارة كل مدفع سوءة ولكل دافعة تسيل قرارُ
إني لأشتمكم وما في قومكم حسَبُ يعادلنا ولا أخطار

(١) البقيمان موضعان بالمدينة ، وهما بقيع الفرقد ، وهو مقبرة أهل المدينة ، وبقيع الزبير

(٢) امر عمر بن عبد العزيز الفرزدق بأن يجلو من المدينة حين سمع الإبيات الفاحشة في

قصيده :

وانسان ممين ما يفضى مائره

الا من لشوق انت بالليل ذاكره

وهو نظم لا يتجاوز تقرير الأشياء .

ويقول في موضع آخر :

منا الذي اختير الرجالَ سَمَاحَةً وخيراً إذا هبَّ الرياحُ الزعازعُ
ومنا الذي أعطى الرسولُ عطيةَ أسارى تميمٍ والعيونُ دوامعُ
ومنا الذي يعطي المثلين ويشتري الأُخوالي ويعلو فضلهُ من يدافعُ
ويمضي في ذلك إلى أربعة أبيات أخرى ، لا يتجاوز فيها هذا الأسلوب
ولا يرتفع عنه . يقول منا الذي فعل ، ومنا الذي فعل وفعل . وهو سرد قد
يفيد أصعاب التاريخ ، ولكنه من الناحية الفنية ، يهبط بالشعر إلى مستوى
العامية في التعبير .

ويقول :

وهب القصائدَ لي النوايغُ إذ مضوا وأبو يزيد وذو القروح وجروك
ويمضي في سرد أسماء الشعراء ثمانية أبيات ، لا شيء فيها غير أسماء الشعراء
منظومة فيما يشبه المتون التي وضعت في عصور متأخرة لحفظ العلوم .

ويقول الجريز :

أقَى الشامَ يَرجو أن يبيعَ حمارة وفارسه إذ لم يجد من يسأله
فجاء بمِذْلَيْهِ اللذين هما له من اللؤم كانت أورثته أوائله
وقوله (اللذين هما له) تمبير لا يخطر لشاعر يُعْنَى بفنه أن يفسد به شعره .

ويقول :

أبا مالك لا بد أني قارع لعظمتك إني للعظام قَرُوع
و (لا بد) تمبير غريب على الشعر لا يصلح إلا للنثر .

ويقول :

يهتفن أين ذوو الحمية أين هم أم من يفار ، فلم يجدن غيورا
هذا وقد وطئت سنابك خيلنا زوجَ المراغة صاغراً مشبورا
وربط البيتين بكلمة (هذا) ربط نثري ، ليس من أسلوب الشعر في شيء .

ويقول :

وليست كليب كائنين كدارم وودَّ جريرٌ لو عطيةٌ غالبُ
و (كائنين) حشو لا يصدر إلا عن المنعجل ، الذي لا يريد أن يتوقف
ليسوي شعره ، ولكنه لا يبالي ما يقول ، ولا كيف يستوي له النظم ، وكأنه
مدفوع إلى تحبير عدد من الصفحات في وقت محدود ، فهو ماض إلى بلوغ أجله ،
في غير توقف أو تريت .

هذا هو ما عنيينا بالعامية والابتذال في المعاني والتعبير . أما الألفاظ فهي
في كثير من المواضع سباب عامي مبتذل ، لا يفترق كثيراً عما نسمع من شتائم
الدُّهَّاء ، التي تتناول الآباء والأمهات ، ولا تعف عن استعمالها في صيغها
السوقية المُسَيِّئة .

يقول الفرزدق :

إذا أنت يا ابن الكلب ألقمتك نهشل ولم تك في حلفٍ فما أنت صانع

ويقول في موضع آخر:

تصَاغَرْتُ يَا ابن الكلب لما رأيتني مع الشمس في صعبٍ عزيزٍ معاقله

ويقول جرير :

أخت الفرزدق من أبيه وأمه بَاتَتْ وسيرتها الوجيف الارتفاع^(١)

وقوله (من أبيه وأمه) تؤكد عامي مأخوذ من أفواء الدهماء .

ويقول :

كان الفرزدق شاعراً فخصيته ... الفرزدقُ أمّه من شاعر

أمسى الأخيطل للفرزدق ضرةً فيم المراء وقد نكحتُ ضرائري

ويقول :

إذا ما كنت ملتصقاً نكاحاً فلا تعدل ب... بني ضرار

وإن لاقيت ضبيّاً ف... فكل رجالهم رَخو إحتار

وليس يعني أن يخرج الفرزدق أو جرير عن آداب الناس في شتائمهم ، ويشذو عن الذوق المذهب والخلق السليم ، ولكن الذي يعني هنا هو هذه الألفاظ العامية المبثولة التي تنقل السباب من أفواء الدهماء كما هو ، لا عمل فيه للخيال ، فتهبط بمستوى الصناعة الشعرية عما ينبغي له من ترفع في .

(١) الوجيف ضرب من سير الخيل والأبل ، فمله وجف يجف . رفع البعير (لازم ومتعد) وارتفع في سيره أسرع .

أما التبذل الأخلاقي فهو كثير يلاً النقائص ، لا يفتح القارىء فيها صفحة إلا وقع على مثال له ، وكله تفصيل بغيض للسوءات ، وأكثر ما نجده في شعر جرير ، حين ينهم جعثن أخت الفرزدق بالإنقري ، أو ليل جدته بمبدها جبئر^(١) ، ويعمن في تفصيل ما يحري بينهم من أدق الحركات الفاضحة . والمجيب في الأمور والمؤلم في الوقت نفسه أن النقائص أخصب ما تكون فناً ، وأكثر ما تكون افتناناً وتصرفاً ، حين تعرض لأمثال هذه الفضائح ، في أسلوب قصصي ، لا يفسد روعته إلا طبيعة مواضعه ، التي تملأ نفس القارىء السوي^٢ استمزازاً من قذارة ما تحوى فيه .

وظاهرتان أخريان تحتلان من النقائص مكاناً بارزاً ، هما تكرار المعاني والفخر الكثير بالمقدرة الشعرية . أما التكرار فهو نتيجة طبيعية للإكثار ، فكل واحد من الشعراء الثلاثة لا يرضى أن يسكت فيكون مغلوباً ، فليس له بد من أن يرد . وقد طال بينهم الأمر وامتد المدى ، حتى لم يعد أمامهم إلا أن يكرروا ما قالوا ، ويعيدوا ما أبدأوا . فجرير يعبر الفرزدق أن أجداده كانوا يصرفون بعض عبيدهم للحدادة ، فهو من بيت صناع حدادين . ويعيره خبث أخلاقه ومنافاتها للدين ، فهو سكير زناه ، ويختلق على أخته صلتها بالإنقري ، ويشنع على جدته ليل بصلتها ببعض رقيقها الذين كانوا يستخدمونهم في الحدادة . وهي معان محدودة ، لا يخرج عنها في كل هذه المجموعة الضخمة من الشعر .

والفرزدق لا يعبر جريراً إلا ضعف نسبة وضعة أبيه . وهو يقابل اختلاق جرير على أخته باختلاق مثله ، يشنع فيه على جرير وأبيه بصلتهم بالحير . والقارىء يسمع القصة عينها في كل قصيدة .

ولكن اضطرار هؤلاء الشعراء الثلاثة إلى الإعادة والتكرار ، قد جعلهم

(١) لتقديم مثال على ذلك راجع ص ٢٤٩ بديوان جرير من هينته :
 بان الخليط برامتين فودموا أوكلما دفموا لبين جزع

يقتنون في هذه المعاني القليلة التي بين أيديهم ، فيخرجونها في شتى الصور ، ويولدون منها مختلف المعاني والأخيلة ، فأحدثوا بذلك في الهجاء لونا طريفاً من القصص الهجائي ، الذي يدور على الحوار الفكه ، والدعابة المضحكة . وكان جرير أبرع الثلاثة في هذا اللون من القصص الهجائي . وبكاد الفرزدق يحاربه فيه ولكنه يقصر عنه . أما الأخطل فقد كان أكثرهم تخلفاً في هذه الناحية . وكان شعره لذلك أقل الثلاثة رواجاً عند جمهور الناس ، الذين لا يعينهم من هؤلاء المتشاكين إلا النادرة الحلوة ، والنكتة المضحكة .

يولد جرير من اتخاذ أجداد الفرزدق الحدادة شتى الصور . فهو مرة يتصور جد الفرزدق في قبره ، وقد دُفِنَتْ معه آلات الحدادة وأدواتها ، من كتيف وكتبتين ومنشار ، ثم يتصور الناس وقد انكسر لأحدهم قَدْرٌ أو مِرْجَلٌ ، فيذكره لأنه كان يصلحها :

سَنَيرَ قَيْنُكُمْ وَلَا يُورِي بِهَا قَيْنٌ بِقَارِعَةِ الطَّرِيقِ مِثَارَ
وَجَدَ الْكَتِيفَ ذَخِيرَةً فِي قَبْرِهِ وَالْكَلْبَتَانِ جُجْمَنَ وَالْمِنْشَارَ
يَبْكِي صَدَاهُ إِذْ تَهَزَّمُ مِرْجَلٌ أَوْ إِنْ تَثَلَّمَ بُرْمَةٌ أَعْشَارَ

ومرة يتصور حدراء زوج الفرزدق ، وقد أنكرت ربحه وما علا جسمه القصير من صدأ الحديد ، ويتصور الفرزدق إذ يطلب إليها أن تصلح ما فسد من الأكيار بترقيمه ، فتقول له إنها لا تجيد ذلك ولا تعرفه ، لأن أجدادها من أشراف العرب ، وليسوا كأجداده أصحاب حدادة . وهي تدعو الله أن يخلصها من هذا البلاء الذي ألغى أهلها فيه ، مستعينة به من شر هذا الصهر المشؤوم ، ومن جوار هذا الحداد المنتن الراجحة .

حدراء أنكرت القيون ويريحهم والحرُّ ينع ضيمه الإنكار

لما رأت صدا الحديد بجلده فاللون أوركُ والبنان قصار

قال الفرزدق رقي أكيارنا قالت وكيف ترقي الأكيار ؟

رقع متاعك إن جدِّي خالدُ والقيْنُ جدك لم تلدك نزار

وسمعتها اتصلت بذهلٍ إنهم ظلموا بصهرهم القيون وجاروا^(١)

دعت المصور دعوة مسموعة ومع الدعاء تضرع وحذار

عازت بربك أن يكون قرينها قيناً أحمَّ لفسوره إعصار

ومو حيناً يتهم قفيرة أم صمصمة بعبدها الذين يشتغلون بالحدادة :

ولدت قفيرة أم صمصمة ابنها فوق المزنم بين وطئي جازر

جعلت قفيرة ليلتين لهرمز والزيبان وليلة لقنابر^(٢)

ويتهما أخرى يجير عبدها :

تسوف صنان القين من ربة به ليجعل في ثقب المَحالة محورا^(٣)

تزور جبيراً مرةً ويزورها وتترك أعمى ذا خميل مدثراً^(٤)

(١) ذهل بن شيان بطن من بطون بكر وهم قوم حدراء زوج الفرزدق . اتصلت بلدهل اي نادى مستجيرة بهم : يا للهل .

(٢) هرمز والزيبان وقنابر أسماء بعض مبيدها . المزنم الذي تقطع اذنه وتترك مدلاة ، وانما يفعل ذلك بكرام الابل . الوطب سقاء اللبن ، وهو جلد الجذع .

(٣) تسوف قسم . ليجعل في ثقب المحالة محورا ، هو مثل ضربة لفظه بها . المحالة البكرة التي تكون فوق البئر ويدور عليها الحبل الذي يحمل الدلو . والمحور العمود الذي تدور عليه البكرة .

(٤) جبير مبد كان لهم يشتغل بالحدادة . الأعمى يقصد به صمصمة جد الفرزدق . الخميل القטיפه .

وَيَخْلِجُ مِنْهَا الْقَيْنُ مَحْبُوكَةَ الْقَرَى كَانَ بِهَا نُحًا مِنَ الْبَيْضِ أَصْفَرًا^(١)

ومرة يتم ليلي جدة الفرزدق يُجَبِّرُ هذا ، فيقول إن غالباً أبا الفرزدق هو في الحقيقة ابن جبير ، وليس ابن صعصعة :

تلقى نساء مجاشع من ريجهم مَرَضَى وَهَنَ إِلَى جُبَيْرٍ نَزَعَ
ليلى التي زفرتْ وقالتُ حبذا عَرَقُ الْقِيَانَةِ مِنْ جَبِيرٍ يَنْبَعُ
كلُّ الذي غَيْرْتُمْ أَنْ قَلْتُمْ هَذَا لَعَمْرُ أَيْكَ قَيْنٌ مُوَلَعٌ !
ويقول :

تركتُم جُبَيْرًا عِنْدَ لَيْلَى خَلِيفَةً أَصْعَعَ بَثْسَ الْقَيْنِ قَيْنُكَ صَعَصَعَا
وما حفلت ليلي ملامة رهطها وَلَا حَفِظْتَ سِرَّ الْحَصَانِ الْمُنْعَا
أَبَانُ لَكُمْ فِي غَالِبٍ قَدْ عَلِمْتُمْ نِجَارُ جَبِيرٍ قَبْلَ أَنْ يَتَيْفَعَا
ولذلك فهو يتصور جبيراً يهدي إلى غالب أبي الفرزدق بعض النصائح في
صناعة الحديد :

وأوصى جبيرٌ إِلَى غَالِبٍ وَصِيَّةَ ذِي الرَّحِمِ الْمُجَهَّدِ
فَقَالَ أَرْفَقَنَّ بِلَيِّ الْكَتِيفِ وَحَكَّ الْمَشَاعِبِ بِالْمَبْرَدِ
وهكذا تجمد الشاعر يتصرف في المعنى الواحد ، فيخلق منه صوراً فنية
متعددة ، وإن كان أصلها واحداً .

(١) يخلج يجلب . القرى (بفتح القاف) الظهر .

أما التهديد بالفخر والمقدرة الشعرية ، وتكراره في كل مكان من النفاض
فأمثله كثيرة . يقول جرير للأخطل :

تعرضت من دون الفرزدق مُخْلِياً
فما كنت منصوراً ولا عالي الكعب^(١)

تصليت بالنار التي يصطلي بها
فأرداك فيها وافتدى بك من حربي

ويقول :

تري الشعراء من صَعِقَ مصاب بصَكَّتِهِ وآخر مستديم^(٢)
لقد وجدوا رِشائي مستمراً ودلوي غيرَ واهية الأديم^(٣)
ومِثْلِكَ قد قصدتُ له فامسى أخا حلم وما هو بالحليم^(٤)
يرى حسراته ويخاف دَرْتُي ويُفضي طرفه نَظَرَ الأميم^(٥)

ويقول :

عوى الشعراء بعضهم لبعض عليّ فقد أصابهم انتقام

(١) احلبه امده .

(٢) صق مفشى عليه . مستديم منتظر لسكة أخرى . استدام انتظر وترقب .

(٣) الرشاء الحبل الذي تربط به الدلو . يقصد طول نفسه في الشعر ، وخصب طبعه .

(٤) يقول ان خصمه يتكلف الحلم . وليس هو في الحقيقة حليماً ، ولكنه ضعف من

صجراته .

(٥) الدره الدفع . الاميم الشجوج الراس الذي بلغ جرحه ام الدماغ .

كَأَنَّهُمُ الثَّعَالِبُ حِينَ تَلْقَى هَزِيرًا فِي الْعَرِينِ لَهُ اتِّحَامُ
إِذَا أَوْقَعَتْ صَاعِقَةً عَلَيْهِمْ رَأَوْا أُخْرَى تَحْرِقُ فَاِسْتَدَامُوا

ويقول الفرزدق :

تَفَنَّى يَا جَرِيرُ لغير شيء فَقَدْ ذَهَبَ الْقَصَائِدُ بِالرَّوَاةِ^(١)
فَكَيْفَ تَرُدُّ مَا بَعْمَانُ مِنْهَا وَمَا بِجِبَالِ مِصْرَ مَشْهُرَاتِ
غَلَبَتْكَ بِالْفَقْءِ وَالْمَعْنَى وَبَيْتَ الْمُحْتَبَى وَالْخَافَقَاتِ^(٢)

ويقول :

تَبْكِي الْمِرَاغَةَ بِالرَّغَامِ عَلَى ابْنِهَا وَالنَّاهِقَاتُ يَنْحَنُّ بِالْإِعْوَالِ
قَالُوا لَهَا احْتَسِي جَرِيرًا إِنَّهُ أَوْدَى الْهَزِيرُ بِهِ أَبُو الْأَشْبَالِ
أَلْقَى عَلَيْهِ يَدَيْهِ ذَوْقُومِيَّةَ وَرَدُّ فَدَقَ بِجَمَاعِ الْأَوْصَالِ

(١) تَفَنَّى أَسْلَمَهَا تَفَنَّى ، حَدَّثَتْ أَحَدِي الثَّوَابِينَ لِلتَّخْلِيفِ . فِي التَّبْيِيرِ لِقَبْلِ ، يُرِيدُ ذَهَبَ
الرَّوَاةَ بِالْقَصَائِدِ .

(٢) يُرِيدُ بِالْفَقْءِ قَوْلُهُ فِي أَحَدِي قَصَائِدِهِ :

وَلَسْتُ وَإِنْ لَقِيتُ مِنْكَ وَاجِدًا أَبَا عَنْ كَلْبٍ أَوْ أَبَا مِثْلٍ نَهْشَلٍ
وَبِالْمَعْنَى قَوْلُهُ :

وَأَنْتَ إِذْ لَسِمْتَ لِتَعْرِفَهُ دَارِمًا لَأَنْتَ الْمَعْنَى يَا جَرِيرَ الْكَلْبِ
وَبِالْمَحْتَبَى قَوْلُهُ :

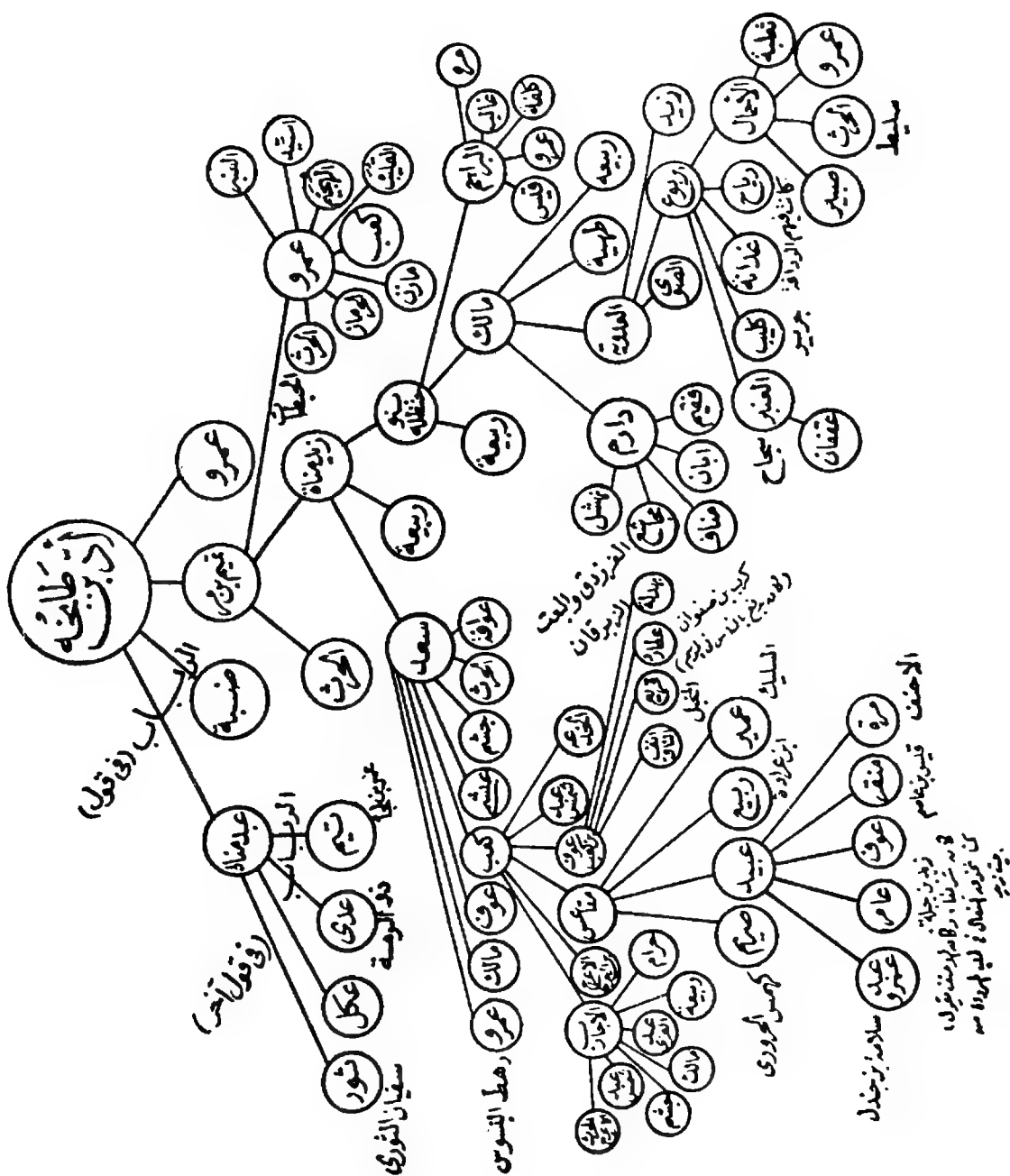
بَيْتًا ذَرَارَةً مَحْتَبً بِضَالِهِ وَمَجَافِعَ وَأَبُو الْفَوَارِسِ نَهْشَلٍ
وَبِالْخَافَقَاتِ قَوْلُهُ :

وَأَيْنَ تَفَنَّى الْمَالِكُ أَمُورَهَا بِحَقِّ وَأَيْنَ الْخَافَقَاتِ اللَّوَامِغِ
وَأَمْلَهُ يَقْصِدُ الْقَصَائِدَ الَّتِي لَهَا هَذِهِ الْأَبْهَاتُ . وَكَانَ الشُّعْرَاءُ كَانُوا يَسْمُونَ قَصَائِدَهُمُ
الشُّهُورَةَ بِاسْمِ يَشْتَقُونَ مِنْ أَحَدِ أَبَائِهَا .

قد كنتُ لو نفع النذير نهيته أن لا يكون فريسة الرئبال
وهذا الإكثار من الفخر بالمقدرة الشعرية ، والتهديد بما سيصيب الخصم من
نكال وعار ، ليس إلا مظهراً لما قدمنا من أن هذه النقائض تصور منافسة فنية ،
يزعم كل واحد من هؤلاء الشعراء فيها أنه أشعر من صاحبه . وهو ما نص عليه
الفرزدق نصاً صريحاً في بيته :

فدُونكَ هَذِي فَانْتَقِضْهَا فَإِنَّهَا شَدِيدٌ قُوَى أَمْرَاسِهَا وَمَوَاصِلُهُ
الذي ختم به نقيضته :

سَمَوْنَا لَنَجْرَانَ الْيَمَانِي وَأَهْلِهِ وَنَجْرَانُ أَرْضٌ لَمْ تُدَيِّثْ مَقَاوِلُهُ



جرير

ينتسب شاعرنا إلى فرع من تميم اسمه يربوع ، كانت بعض بيوته على جانب من الشهرة في الجاهلية والإسلام . فقد كانت الرِّدَاقَة في بيت منهم اسمه رياح . ومن آخر اسمه العنبر ظهرت سَجَّاح ، التي ثَبَّأت في حركة الردة . وقد غلب بنو يربوع في أيام الفتنة على البصرة والكوفة وخراسان . غلب على البصرة سَلَمَة بن ذؤيب الرياحي ، وغلب على الكوفة مَطَر بن ناجية اليربوعي لابن الأشعث ، وأخرج منها عامل الحجاج ، وغلب على خراسان وكيع بن أبي سود اليربوعي ثم الغداني ، وقتل قتبية بن مسلم الباهلي ^(١) . وقد افتخر جرير بذلك في قوله ^(٢) :

وَيَوْمَ عُبيد الله خُضْنَا بِرَايَةٍ وَزَافِرَةٍ تَمَّتْ إِلَيْنَا تَمِيمُهَا ^(٣)
لَنَا ذَاذَةٌ عَنِ الْحِفَافِ وَقَادَةٍ مَقَادِيمٍ لَمْ يَذْهَبْ شَعَاعًا عَزِيمُهَا
عَنِ الْمَنْبَرِ الشَّرْقِيِّ ذَادَتْ رِمَاحُنَا وَعَنْ حَرَمَةِ الْأَرْكَانِ يُرْمَى حَطِيمُهَا

يقصد بالمنبر الشرقي منبر البصرة وخراسان ، ويقصد بمنع الحطيم لإنجاد الخوارج لابن الزبير ، حين حاصره الحجاج في ملك يزيد ، وكان معظم الخوارج

(١) نقائض جرير والغردق ١٠ : ١٠٧

(٢) ديوان جرير ٥٤٨ •

(٣) الزاهرة الأموان • يوم عبيد الله بن زياد : ذلك حين تركه الإمارة بعد موت يزيد بن

مساوية •

وقتذاك من قم (١) .

والظاهر أن بيت صاحبنا في كليب بن يربوع لم يكن ثابهاً ولا مشهوراً ، وإن كنا نعرف أن الخطمى جد جرير كان مثرياً فيما يروي محمد بن حبيب (٢) ، في خبر أبياته المشهورة التي يعاتبه بها ، وهي الأبيات التي عاتب بها يزيد أباه معاوية وادعاهما لنفسه ، لأن جريراً لم يكن قد اشتهر وقتذاك :

فردّي جمال الحي ثم تحملي فما لك فيهم من مقامٍ ولا ليا
فانتَ أبي ما لم تكن لي حاجة فإن عرّضتُ أيقنتُ أن لا أباليا
ولني لمغرورٌ أُعْلَلُ بالني ليالي أرجو أن ما لك مالياً (٣)
بأي سنانٍ تطعن القوم بعد ما نزعَت سناناً من قناتك ماضيا
بأي نجادٍ تحمل السيف بعد ما قطعتَ القوي من تحملٍ كان باقياً (٤)
ولني لعفٌ الفقر مشترك الغنى سريعٌ إذا لم أرضَ داري انتقالياً (٥)
جريء الجنان لا أهاب من الردى إذا ما جعلتُ السيف قبضَ بنانيا

(١) نقائض جرير والغزدق ١ : ١٠٧ ، ابن الأثير ٢ : ٢٣٦

(٢) ديوان جرير ٦٠١ .

(٣) يقول لجدّه لقد غرّدت نفسي حين زممت لها أن لا فرق بين مالك ومالي .

(٤) النجاد حمائل السيف . القوي الحبال . مثل شربه له ، يقول لم يصد لك من معتمد عليه .

(٥) يقول انه اذا انتقر كان مفيعاً ، وان ترى اشرار الناس في ثروته وماله .

وليس لسيفي في العظام بقية وللسيف أشوى وقعة من لسانيا^(١)
 ألا لا تخافا نبوتني في مُلمة^(٢) وخافا المنايا أن تفوتكما بيا^(٣)

وهي قصيدة طويلة ، أضاف إليها الشاعر في وقت متأخر أبياتاً في هجاء الفرزدق . وهي تصور صاحبنا جيد الشعر في ذلك الوقت ، وإن كان خاملاً غير معروف . ومع ما يروي محمد بن حبيب من خبر جده وثورته ، فنحن نعرف أن عطية الخطفي أبا جرير كان فقيراً خاملاً ، ليس فيه شيء يستطيع ولد أن يفاخر به . سأل رجل جريراً : من أشعر الناس ؟ قال له : قم حتى أعرفك الجواب . فأخذ بيده وجاء به إلى عطية أبيه ، وقد أخذ عنزاً له فاعتقلها وجعل يصضعها ، فصاح به ، أخرج يا أبت . فخرج شيخ دميم رث الهيئة وقد سال ابن العنز على لحيته . قال : ألا ترى هذا ؟ قال : نعم . قال : أتعرفه ؟ قال : لا . قال : هذا أبي . أقتدري لم كان يشرب من ضرع العنز ؟ قال : لا . قال : مخافة أن يُسمع صوت الحلب فيطلب منه لبن . ثم قال : أشعر الناس من فاخر بمثل هذا الأب ثمانين شاعراً وقارعهم به ، فغلبهم جميعاً .

وقد يكون التحديد الدقيق لمولد شاعرنا صعباً غير يسير ، ولكننا نستطيع أن نقول إنه ولد في أواخر أيام عثمان . فابن خلكان يقول في ترجمته إنه توفي بين ١١٠ هـ ، ١١٤ هـ - على خلاف في الروايات - وله نيف وثمانون عاماً . ومولده على هذا حوالى ٣٠ هـ . ويتفق ذلك مع ما يروي ابن قتيبة في الشعر والشعراء ، من أنه عاش نيفاً على ثمانين عاماً . ويؤيد ذلك ما يذكر جرير من شبهه في أول قصيدة مدحها عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ) ، حين

(١) ضربه فاشواه أصابه في غير مقتل . والشوى (بفتحين) البدان والرجلان والأطراف . يقول ابن لسانه أخطر من سيفه .

(٢) يقول لا تخافوا فموتي من نصرتكم حين تحتاجون إلي ، فليس يمنني من ذلك إلا الموت . فمهما قهرتم في حقى فأنظروا مخلصاً لكم حتى الموت .

أوفده الحجاج إليه ، لأن الحجاج ولي العراق ٧٥ هـ ، ووفود جرير على عبد الملك لا بد أن يتأخر عن ذلك سنوات ، لأنه ظل مدة يمدح الحجاج . وعلى ذلك فنحن لا نستطيع أن نقبل ما يروى في النقائض ^(١) ، من أن شاعراً كان تَرْغِيَةً يرعى على أبيه الغنم ، لم يقل الشعر بعد ، على عدنان 'ملك ابن الزبير' ^(٢) .

وقد بدأ جرير حياته الشعرية بالرجز ، شأن معظم الشعراء ، فاشتبك بشاعر معروف من قومه اسمه غسان السليطي ، فكانا يتبادلان السباب بالرجز ، ثم حلّم بينهما التهاجي شعراً ، فلم يزالا يتناقضان ، حتى دخل بينهما البعيت . وقد أتاح ذلك لجرير شيئاً من الشهرة الضيقة في قبيلته ، ولكنه لم يظهر في الحياة العامة إلا في خلافة يزيد . روى صاحب الأغاني بسنده عن جرير أنه قال : وفدت على يزيد بن معاوية وأنا شاب يومئذ ^(٣) . فاستؤذن لي عليه في جملة الشعراء ، فخرج الحاجب إلي وقال : يقول لك أمير المؤمنين إنه لا يصل إلينا شاعر لا نعرفه ، ولا نسمع بشيء من شعره ، وما سمعنا لك بشيء فنأذن لك على بصيرة . فقلت له : تقول لأمر المؤمنين : أنا القائل :

وإني لَعَفُ الْفَقْرِ مَشْتَرَكُ الْغَنَى سريع إذا لم أرضَ داري انتقاليا

فدخل الحاجب عليه فأنشده الأبيات . ثم خرج إلي وأذن لي . فدخلت وأنشدته وأخذت الجائزة مع الشعراء ، فكانت أول جائزة أخذتها من خليفة . وقال لي : لقد فارق أبي الدنيا ، وما يظن أبياتك التي توصلت بها إلي إلا لي ^(٤) .

ولم يلبث يزيد أن مات واضطرب أمر العراق . وظهر في الكوفة رجل من

(١) نقائض جرير والغزدق ١ : ٤

(٢) ملك ابن الزبير من ٦٤ هـ - ٧٣ هـ

(٣) هذه الرواية تؤيد ما ذهبنا إليه من أن مولده حوالي ٣٠ هـ .

(٤) الأغاني ٨ : ٣٦ .

بني يربوع اسمه سلمة بن ذؤيب الرياحي ، يدعو لبيعة ابن الزبير ، فاجتمع عليه الناس حتى كثف جمعه . وضعف أمر عبيد الله بن زياد ، فلما كان يأمر بالامر فلا ينفذ ، ويُردُّ عليه رأيه ، ويحال بينه وبين أعوانه وطلبته . فلجأ إلى الأحنف بن قيس ، سيد تميم وشيخها في ذلك الوقت ، وطلب إليه أن يكف سلمة . فخفف لإعانتته ، ثم قعد عنه ، لما رأى قوة الداعين لابن الزبير . ولم يجد ابن زياد بداً من الحرب خوفاً على نفسه ^(١) ، فنزل في حامية سيد الأزدي ، مسعود بن عمرو . واستطاع الأزدي أن يستميلوا ربيعة واليمن إلى جانبهم ، فانطلقوا على أن يردوا ابن زياد إلى دار الإمارة . وما زالوا يتحرشون بتميم حتى ثاروا ، وعلى رأسهم الأحنف ، ومعهم القيسية ، فقتلوا مسعود بن عمرو الأزدي . وأحرقوا دار مالك بن مسنم سيد ربيعة . واستطاع رجل آخر من بني يربوع اسمه عتّاب بن ورقاء الرياحي أن يخضع الحارثيين على الجماعة من أهل الرُّمي . وبذلك حفظ بنو تميم العراق لابن الزبير ، حتى قدم عماله ^(٢)

وكانت تميم في موقفها هذا قسمين : قسماً يتمصب لابن الزبير ويدعوله ، يتزعمه بنو يربوع ، وعلى رأسهم سلمة بن ذؤيب الرياحي . وقسماً لا يحارب البيئية والربيعة إلا على الحفظ ، ولأنهم بدؤهم بالعدوان ، وهؤلاء يمثلهم سعد بن زيد مناة - وهم فرع ظاهر من تميم يتميز بشرفه - وعلى رأسهم الأحنف بن قيس ^(٣) .

من ذلك نرى بوضوح أن بعض تميم والقيسية كانوا زبيرية ، واليمن وربيعة كانوا أمويين . وليس في ديوان جرير الذي بين يدينا شعر بين اتجاهه في هذه الفترة ، ولكننا نستطيع أن نجزم بأنه كان زبيرياً ، شأنه في ذلك شأن قومه

(١) ابن الأثير : ٣ : ٢٢٠ (أحداث سنة ٦٤) .

(٢) ابن الأثير : ٣ : ٣٢١ - ٣٢٦ (أحداث سنة ٦٤) .

(٣) ابن الأثير ، نقائض جرير والفرزدق ١ : ١٠٣ وما بعدها .

من بني يربوع ، الذين كانوا من أظهر فروع قيم تعصباً لابن الزبير . ولكن جريراً لم يكن من وجهاء قومه وأصحاب رأيهم حتى يدخل في ذلك . ثم هو رجل مسالم ، حريص على أن يبعد بنفسه عن مواطن الشبهة ، وما قد يعرضه في غده للشر ، فهو يكتفي بأن يؤيد ابن الزبير بقلبه . على أنه لم يكن معنياً بشؤون الناس ومشاكل السياسة ، فكل مواهب الهجائية تتجلى في مهاجمة الأفراد ، ولا تتجاوز ذلك إلى الجماعات . وقد كان همه في ذلك الحين أن يحجب الذين تجمعوا عليه من شعراء قومه . فالبَعِيثُ المباشمي قد دخل بينه وبين غسان ، معنياً بأخواله السَّلَيطِيِّين . ثم ثقل حمله بدخول الفرزدق ، حين أفحش جرير على بني مجاشع ، وتناول أعراضهم ، فحَمَمِيَ الفرزدق لهم ، وانضم للبُعِيث في مهاجمته . ومما يؤيد ما نذهب إليه ، من انشغال جرير في ذلك الوقت بمهاجمة هؤلاء الشعراء ، قوله في أول أمر الفرزدق ، مخاطباً الحارث بن ربيعة المخزومي ، والي ابن الزبير على البصرة :

أبا خالد أبلت حزماً وسودداً وكلُّ امرئٍ مُثَنَّى عليه بما يُبلي
أبا خالد لا تُشمتن أعبادياً يودون لو زلَّت بمَهْلَكَةٍ نعلي

والحارث بن ربيعة المخزومي كان والياً على البصرة لابن الزبير ، بين عامي ٦٥ هـ - ٦٨ هـ ، لأن الكوفة والبصرة ضمناً لمصعب عام ٦٨^(١) . ويؤيد ذلك أيضاً قول جرير للبُعِيث ، قبل أن يدخل الفرزدق بينهما :

ويوم عبيد الله خضنا براية وزافرةٍ تَمَّتْ إلينا تميمها^(٢)

(١) ابن الأثير : ٢ : ٣٥٦ ، ٢٩٧ (أحداث سنتي ٦٦ ، ٦٨) .

(٢) الزافرة الجمامة . المنبر الشرقي يقصد به منبر خراسان . العظيم ما بين الركن وزمزم والقام حيث يتحطم الناس للدعاء . الأركان أركان الكلمة المشرفة الأربعة .

عن المنبر الشرقي ذات رماحنا وعن حرمة الأركان يُرمى حطيمها

وهو لا يستطيع أن يفخر بذلك في ملك الأمويين ، ولا يمكن إلا أن يكون في خلافة ابن الزبير . وما يصور زبيرية جرير ، هذه القصة التي يرويها الأغاني في وفوده على عبد الملك بن مروان ، وما لقي من مصاعب في سبيل الوصول إليه ^(١) . فقد أوفده الحجاج مع ابنه محمد ووصاه به ، وأمره بمسألة عبد الملك في الاستماع منه ومعاونته . فلم يزل محمد بن الحجاج يلح على عبد الملك حتى أذن له . فلما استأذن في الإنشاد قال له : وما عساك أن تقول فينا بعد قولك في الحجاج ؟ ألسن القائل :

من سَدُّ مَطْلَعِ النفاق عليكم أم من يصول كصوله الحجاج ؟

إن الله لم ينصرني بالحجاج ، وإنما نصر دينه وخليفته . أولست القائل :

أم من يغار على النساء حفيظةً إذ لا يثقل بغيره الأزواج ؟

يا عاض كذا وكذا من أمته ! والله لهمت أن أطير بك طيرةً بطيشاً سقوطها ! اخرج عني ! فأخرج بشرّ حال . فلما كان بعد ثلاث شفع إليه محمد بن الحجاج وقال له : يا أمير المؤمنين . إني أدبت رسالة عبدك الحجاج وشفاعته في جرير ، فلما أذنت له خاطبته بما أطار لبه منه وأشمت به عدوه ، ولو لم تأذن له لكان خيراً له مما سمع ، فإن رأيت أن تهب كل ذنب له لعبدك الحجاج ولي فافعل . فأذن له . فاستأذن في الإنشاد . فقال : لا تنشدني إلا في الحجاج فإنما أنت للحجاج خاصة . فسأله أن ينشده مديحه فيه ، فأبى وأقسم أن لا ينشده إلا من قوله في الحجاج ، فأنشده وخرج بغير جائزة . فلما أرف

(١) الأغاني ٨ : ٦٦ .

الرحيل ، قال جرير لمحمد بن الحجاج : إن رحلت عن أمير المؤمنين ، ولم يسمع مني ولم آخذ له جائزة ، سقطت آخر الدهر . ولست بارحاً بابه أو يأذن لي في الإنشاد . وأمسك عبد الملك عن الإذن له . فقال جرير : ارحل أنت وأقيم أنا . فدخل محمد على عبد الملك فأخبره بقول جرير ، واستأذنه له ، وسأله أن يسمع منه ، وقبل يده ورجله . فأذن له . فدخل فاستأذن في الإنشاد فأمسك عبد الملك . فقال له محمد : أنشد ويحك . فأنشده قصيدته التي يقول فيها :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

فلما وصل جرير في إنشاده إلى هذا البيت اهتز عبد الملك وطرب .

ويؤيد زبيرية جرير كذلك ، تمصبه للقيسية ، وما يملأ ديوانه من ترديد أيامهم مع تغلب ، التي كانت ممالة لبني أمية . يقول للأخطل :

وقيسٌ أذا قوك الهوان وقوَّضوا بيوتكم في دار ذُلٍّ ومَحْرَبٍ
فوارُسنا من صُلب قيسٍ كأنهم إذا بارزوا حرباً أسنةٌ صُلبٌ^(١)
ويقول مؤيداً حلف تميم لقيس ، ومخاطباً الأخطل :

وقد أوردت قيسٌ عليك وخندِفٌ فوارسَ هَدَمَ الحياضَ التي تجي^(٢)

(١) الصلب (على وزن بكر) الشديد . حربه ماله سلبه . وحرب (كفرج) اشتد غضبه . ومحرب اسم مكان أو مصدر ميمي منه .

(٢) خندف امرأة ينسب إليها بنوها . وهم فرعان : مدركة بن الياس بن مضر (جد فريش) وطابخة بن الياس بن مضر (جد تميم) . ومضر شعبان كبيران : خندف ويشمل قريشا وتميما ، وقيس عيلان وهو يضم قبائل كثيرة مشهورة منها هوازن وسليم وثقيف وهبيل وذبيان . جبي الماء في الحوض جيا وجبيا جمعه .

ويقول للفردق :

لنا قيسٌ عليكَ وأيُّ يومٍ إذا ما احمرَّ أجنحةُ العقابِ^(١)

ويقول له :

ولقد جَهِلْتَ بَشْتَمَ قيسَ بعدما ذهبوا بريش جناحك المكسور
قيس وجدُّ أليك في أكياره قواد كل كتبةٍ جمهور^(٢)

ويقول له :

لقد لحق الفردق بالنصارى لينصرهم وليس به انتصار
تخاطر من وراء حِمايَ قيسٍ وخندفٌ عزٌّ ما حَيَّيَ الذِمار

وهنا يبدو وجه الخلاف الشديد بين جرير والفردق . فالفردق أبي بكرم نفسه ويعتد بحسبه . وهو يمدح الأمويين حين لا يجد بداً من الدخول فيما دخل فيه الناس ، ولكنه لا يقدم عليهم ولا يزورهم . أما جرير فهو يلتصق السبيل للوصول إليهم ، ويحتل في سبيل ذلك المكاره ، طمعاً في عطاياهم . وهو يحتال لذلك ، فيتصل بالحجاج أول الأمر ، لأن ذلك أهون عليه ، ولأن الحجاج قيسى من ثقيف ، فهو أقرب إلى الصفح عنه . ويحمد جرير نفسه في مدح الحجاج ، ويقول فيه أجود ما قال في مدح إنسان ، حتى يبلغ رضاه ويستطيع أن يضمن شفاعته عند الخليفة .

كان جرير رجلاً من غمار الناس ، ولم يكن بالرجل الصلب الذي يقوى على

(١) العقاب الراجعة . وإنما تحمر من الدم .

(٢) الأكيار جمع كبر ، وهو المنفاخ الذي ينفخ به الحداد ليذكي النار .

الفضال والكفاح . فهو يؤثر العافية ، ويحرص على إرضاء الحكام والرؤساء .
يتقرب بالمدح ، ضماناً لسلامته واطمئنانه ، وطمعاً في مالهم وعطائهم ، ويبلغ
في ذلك حد التلون والنفاق . لا يكاد يصل إلى عبد الملك حتى يرضيه بستم ابن
الزبير (أبي خبيب) والتعريض به في أول قصيدة مدحه بها فيقول :

دعوتَ الملحدين أبا خُبيب جماحاً، هل شُفيتَ من الجماح^(١)
فقد وجدوا الخليفة هُبرِزيّاً ألفَ العيص ليس من النواحي^(٢)
فما شجراتُ عيصِكَ في قريش بعُشّاتِ الفروع ولا الضواحي^(٣)
رأى الناسُ البصيرةَ فاستقاموا وبَيَّنتِ المِراضُ من الصّاح

ولا يكاد الحجاج يموت ، حتى يستبجح جرير لنفسه أن يمرض به عند
سليمان بن عبد الملك ، إرضاء له ، لما هو معروف من تباعضها . وهو لا يستحي
ن يفعل ذلك ، مع ما سلف من مدائح الرائعة فيه ، ومن إحسان الحجاج إليه .
يقول سليمان إنك قد أنقذت الناس من بلاء عظيم . ويصف تعذيب الحجاج للناس
في سجنه المشهور (ديماس) وتنكيله بهم . فهذا رجل مكبل بالقيود ، وذاك
قتيل ، وتلك امرأة علقت من ثديها :

أَجَرْتُ من المظالم كل نفس وأدبت الذي عهد الرسولُ

(١) الجماح الناد والخلاف . الملحد المخالف . ومنه الالحاد بمعنى الكفر لانه انحراف
عن الدين .

(٢) الهبرزي الخالص . الالف المتلف . العيص الشجر . هذا مثل ضربه ، يريد انه
من وسط المز ليس من نواحيه .

(٣) المشاة (بفتح العين وتشديد الشين) الشجرة اللينة المنتدبة الدقيقة التغصان .
الضواحي التي سقط ورثها فبدت عيدانها .

ويدعوك المكلفُ بعدَ جَهدٍ وعانٍ قد أضربَ به الكُبولُ
وما زالت معلقةً بشدي بني الدِّياس أو رجل قتيل
فرجّتَ لهمَّ والحلقاتِ عنهم فاحيي الناسُ والبلدُ المَحُولُ

كان جرير لا يبالي غير سلامته ، فهو لا يهجو إلا من تعرض له من الشعراء ، ولا يعرض لنقد الولاة والعمال أو مهاجمة سياستهم . وهو لا يرتق بالهجاء ، لأن ذلك قد يعرضه للشر ، ولكنه يعوّل في ذلك على المدح ، ويسوم نفسه في سبيل المال أقبح الذل ، وأبفض الإحاف . فهو لا ينتظر عطاء من يمدحه ، ولكنه يصرح بالسؤال مستجدياً ، ويكثر من الشكوى متمسكاً ، وكأنه يستكثر بذلك من العطاء ، ويراه داعياً للزيادة .

يقول لعبد العزيز بن الوليد :

إلى عبد العزيز شكوتُ جهداً من البيضاء أو زمن القتاد
سنين مع الجراد تعرّقتنا فما تُبقي السنون مع الجراد؟^(١)
ويقول للحجاج :

ألا نشكو إليك زمانَ محلٍ وشربَ الماء في زمن الجليد
ويقول لمعاوية بن هشام (وهو هنا مداعب خفيف الروح) :

(١) البيضاء السنة التي لا نبات فيها . وزمن القتاد حين يرعى الناس رعي القتاد فيلهبوا فيه النار لتأكل شوكة ، ثم ترعاه الأبل . تمرق العظيمة وعرقها أكل ما عليها من اللحم .

ماذا ترى في عيال قد برمتُ بهم لم تُخصَّ عِدَّتُهم إلا بعداد
 كانوا ثمانين أو زادوا ثمانية لولا رجاؤك قد قُتلتُ أولادي
 ومن دعابته في السؤال المُلحِف قوله لسليمان بن سعد صاحب ديوان
 العطاء بالهامة :

تركتُ عيالي لا فواكه عندهم وعند ابن سعد سكر وزبيب
 تحنَّي العظامُ الراجفاتُ من البلى وليس لداء الركبتين طبيب
 كان النساءُ الأسرات حَنِينِي عريشاً فمشي في الرجال ديب^(١)
 منعتَ عطائي يا ابن سعد وإنما سبقتَ إليَّ الموتَ وهو قريب
 فإن ترجعوا رزقي إليَّ فإنه متاع ليل والحياة كذُوب
 ومن قبيح إلحافه قوله في بعض مدائحُه لبني أمية :

أشكو إليك فاشتكي ذرية لا يشبعون وأهمهم لا تشبع
 كثروا عليَّ فما يموت كبيرهم حتى الحساب ولا الصغير المرضع
 وإذا نظرتُ يَرِينِي من أهم عين مهجَّجة وخذ أسفع^(٢)
 وإذا تَقَسَّمتُ العيالُ غُبُوقَهَا كثر الأنين وفاض منها المدمع
 رَشْنِي فَقَدْ دَخَلْتَ عَلَيَّ خِصَاصَةً ما جمعتَ وكلَّ خيرٍ تجمع^(٣)

(١) العريش اليهودي . الأسرات اللاتي يأسرن المحامل والهواذج ، والأسر الشد والعصب .

(٢) المهجَّة الفائرة المينين . السفع سواد يملو حمرة الخدين .

(٣) الخصامة الفقر والحاجة . راسه وصله بمال ، كأنه جعل له ريشاً بعد أن كان عارياً .

ولعل الفرزدق لم يبعد كثيراً عن الصواب حين صورَّ شرَّه جرير في جمع المال ، وابتذاله نفسه في السؤال ، مع أن قومه من تميم كانوا يستطيعون أن يغنوه ويكفوه ، حيث يقول :

يظل بأسواق اليمامة عاجزاً إذا قال بيتاً بالطعام يُكايِّله
ولو جعلوا لابن المراغة درهماً على إنسكتيها قال إني مزاوله
لا ظل مُكباً يبتغي بلسانه ليخرجه إذ لم تنله أنامله
تقدّم عليها يا جرير فإن تكن رفيقاً إذا استلقت فإنك نائله
أظنّ بنا زوج المراغة أنه من الفقر لاقية الهزال فقاتله
وقد كان في الدنيا مرادُ لقعبيه وفي هجره تمرُّ ثقال جلائله^(١)
وكانت تميم مطعميه وثابتاً بهم ريشه حتى تَوَازَى نواصله^(٢)

ومع ذلك فلم يكن جرير بالملاح المجيد . فالرقة والسهولة الغالبتان على شعره تحرمان مديحه ما ينبغي له من قوة وشدة أسر . وهو لا يقع على صفات الملوك والخلفاء ، ولا يعرف كيف يمدحهم ، فهو من هذه الناحية لا يقارن بشاعر كالأخطل .

يقول لسيان بن عبد الملك ، وكأنه يمدح رجلاً كريماً من عامة الناس :

(١) راد المكان جال فيه مستكشفاً ، مراد اسم مكان منه . القصب اناه يحلب فيه اللبن .
هجر موضع من ديار بني تميم مشهور بكثرة نخيله . الجلة (بضم الجيم) وهاء للتثنية يتخذ من سمف النخل .
(٢) يريد استواء قصاره وطواله على التشبيه بالزروع . ونصل النبات ما يبرزه من أكمه .

يُهَيِّنُونَ الْخَاضَ لِكُلِّ ضَيْفٍ إِذَا مَا حُبٌّ فِي السَّنَةِ الْجَمِيلِ^(١)
ولا يوصف الناس بأنهم ضيوف الخليفة ولكنهم رعيته .

ويقول لعبد العزيز بن مروان حين رحل إليه يمدحه بمصر :

إِذَا مَا أَنَاخَ الرَّاعِبُونَ بِيَابِكُمْ مَعَ الْوَفْدِ لَمْ تَرْجِعْ عِبَائِهِمْ صَفْرًا
وَذَلِكَ أَدْنَى مَا يُقَالُ فِي رَجُلٍ . فَلَوْ أَنَّ هَذِهِ الْعِيَابَ عَادَتْ مَمْلُوءَةً تَبْنَأُ أَوْ
تَرَابًا لَمَا كَانَتْ صَفْرًا .

ويقول في مدح يزيد بن عبد الملك إنه نزل به ضيفاً فأكرمه وغطاه من
فضل لحافه :

مَا مَن جَفَانَا إِذَا حَاجَاتُنَا نَزَلَتْ كَمَنْ لَنَا عِنْدَهُ التَّكْرِيمُ وَاللِّطْفُ
كَمْ قَدْ نَزَلَتْ بِكُمْ ضَيْفًا فَتَلَحَّفَنِي فَضْلَ اللَّحَافِ وَنَعْمَ الْفَضْلُ يُلْتَحَفُ

وليس مثل جرير ضيفاً على مثل يزيد ، وإنما هو معترف برجو فضله ويسمى
لِسَيِّبِهِ . واستعارة اللحاف هنا للفضل من أقبح الاستعارات .

ثم يقول إن له حساداً لا يغنون غناه :

يَا رَبِّ قَوْمٍ وَقَوْمٍ حَاسِدِينَ لَكُمْ مَا فِيهِمْ بَدَلٌ مِنْكُمْ وَلَا خَلْفُ
وهذا نزول بالخليفة إلى مستوى عامة الناس .

(١) الجميل الشحم اللداب . يكنى بذلك من الجذب .

ويقول لعبد الملك :

الله طوقك الخلافة والهدى والله ليس لما قضى تبديل
وليس يحسن استعمال التطويق في النعمة ، وإنما يطوق الناس البلاء والمصائب .
فالطوق أدنى إلى أن يصور التضييق والتنكيل .
يقول للوليد بن عبد الملك :

وترى الجفان يَمُدُّهَا قَمْعُ الذرى مدَّ الجداول بِالْأَيِّ الْمَفْعَمِ^(١)
وَالْقِدْرُ تَهْمِمُ بِالْمَحَالِ وترتمي بالزَّوْرُ هَمَمَةَ الْحِصَانِ الْأَدَمِ^(٢)

وليس يوصف الخليفة بأنه يمد للناس جفاناً يعلوها شحم السنام ، وبأن
قدوره تغلي بالقطع من فقار الظهر ، كأنها الحصان الأدم حين يهيم ويصهل .
فذلك قليل جداً على الخليفة . وإنما يمدح به عامة الناس الذين يفتابهم الفقر .

ويقول لهشام :

وكان أبوك قد علمت معد يفرج عنهم الْكُرْبَ الْعِظَامَا
وقد وجدوك أكرمهم جدوداً إذا نسبوا وأثبتهم مقاما
وُتَحَرَّرَ حين تضرب بالمعلَّى من الْحَسَبِ الْكُوَاهِلِ وَالسَّنَامَا

وليس نسب الخليفة موضع بحث ، ولا هو مما يحتاج إلى إثبات ، أنه أفضل
الناس نسباً .

(١) اللروة السنام . قمة اللروة أعلى السنام . الجداول الانهار . الأي الجري .

(٢) المحال فقار الظهر واحداً محالة . الزور الصفر . الهمة صوت دون الصهيل .

ويقول له في مديحة أخرى :

فيا ابن المطعمين إذا شتونا ويا ابن الذائدين عن الحرم
فما الأم التي ولدت أباكُم بمقرقة النِجار ولا عقيم^(١)
فلو أن أماً ولدت شرطياً لم تكن عقيماً .

ويقول للعباس بن الوليد :

فيا ابن المطعمين إذا شتونا ويا ابن الذائدين عن الذمار
وتطر من نذاك يداك فضلاً إلى كرم الشائل والنِجار
وتوقد نار مكرمة وأخرى إذا ما المَحَلُّ أْخَدَ كُلَّ نَار
وكان بيت الخليفة مجهول يحتاج إلى أن توقد أمامه النار ليهتدي إليه
الضيفان .

كانت السهولة الغالبة على شعر جرير صورة من طبعه السمع ، ونفسه الرقيقة
المطمئنة . فقد كان جرير رجلاً مؤمناً شديد التمسك بدينه ، يؤثر السلامة
والمافية في الآخرة كما يرجوهما في الدنيا . كان إذا صلى الصبح جلس في قسائم
منزل أمام داره ، لا يكلم أحداً حتى تطلع الشمس ، ولا يبرح موضعه ولو
تناحر الحي^(٢) . وقد مرت به جنازة وهو يملي على رجل قصيدته :

ودع أمانة حان منك رحيل إن الوداع لمن تحب قليل

(١) القوافي المخالطة . النجار الأصل . مقرقة النجار مختلطة النسب ، به ضعف في
بعض أصوله أو أطرافه .
(٢) النقائض ١ : ٣٢

فقطع الإنشاد وجعل يبكي . ثم قال : شيبتي هذه الجنازة ^(١) . ولقي
الفرزدق بنى وهما حاجان ، فقال له الفرزدق :

فإنك لاق بالمحصب من منى فخاراً فحدثني بمن أنت فآخر
فلم يجبه إلا بقوله : لبيك اللهم لبيك ^(٢) .

وهذه الرقة الغالبة على طبعه ، جعلته من أكثر شعراء عصره توفقاً في الغزل
والرقاء . وبهذا كان يمتاز من زميله الأخطل والفرزدق . لم يفرغ جرير للغزل ،
ولم ينشئ فيه قصائد مستقلة ، ولكنه كان يقدم لمدائح وأهاجيه بنسيب يسيل
رقة وعذوبة . وكان جرير يعرف من نفسه هذه الرقة ، فهو يقول : ما عشقت
قط . ولو عشقت لَنَسَبْتُ نسيباً تسمعه المعجوز فتبكي على ما فاتها من
شبابها ^(٣) . انظر إلى قوله في مقدمة قصيدة يهجو بها الفرزدق :

فلما التقى الحيان ألقيتُ بالعصى ومات الهوى لما أصيبت مقاتلته
لقد طال كتمانى أمانة حبها فهذا أوان الحب تبدو شواكله
ويوم كإيهام القطاة مُزَيْنٍ إليّ صباه غالب لي باطله
لهوتُ بِجِنِّي عليه سُمُوْطُه وإنسٍ بِجَالِيهِ وأنسٍ شِمَالُه
فلو كان هذا الحب حباً سلوته ولكنه دائمٌ تعود عَقَابُله

هذا شعر معظم جماله في ألفاظه السمعة الرقيقة ، التي تطرب الأذن

(٢) الانشائي ٨ : ٣٣

(١) الانشائي ٨ : ١٥

(٣) الانشائي ٨ : ٤٣ .

وتستخف القلب . ولقد حق لجرير أن يصبو ويبكي ، حين قدم المدينة فاستمع
إلى أشعب يفتي في قوله :

يا أختَ ناجية السلام عليكم قبل الفراق وقبل لوم العُدْل
لو كنتُ أعلم أن آخرَ عهدكم يومُ الفراق فعلتُ ما لم أفعل

فجعل يستعبده وهو يبكي حتى اخضلت لحيته . والذي يقرأ رثاء جرير
لزوجته وولده (سَوَادَة) ، لا يستطيع أن ينتشل نفسه من الحزن العميق الذي
أملأها ، والرقعة الباكية التي تفيضان بها . ولقد ماتت زوجة الفرزدق ، فلم
يحد النادات من شعره ما يندبها به ، فندبها بقصيدة جرير هذه التي رثى
بها زوجته .

هذه بعض مواهب جرير الشعرية وملكانه . وإنما كانت تجعل هذه المواهب
في كامل قوتها وروعتها حين يجعو الأفراد . فقد كان هذا الرجل الرقيق الطبع
جِرَوَ هراش كما يقول الحجاج ، يندفع في الهجاء متدفقا لا يمل ، وكأنه يمارس
أحب الهوايات إلى نفسه . وكان يعينه على ذلك هدوء طبعه وبرود أعصابه .
فقد كان ينهشه ثمانون شاعراً من معاصريه ، لم يستطع أحدهم أن يُحْفِظَه أو يثير
غضبه ، فهو يستمع إلى هجائهم في اطمئنان ، ثم يرد عليهم بهذا الاطمئنان
نفسه ، فيطيل مقدماته في النسيب ، مستأنياً لا يستعجله الغضب ، حتى إذا
أرضى منه نفسه ، تناول خصمه متكباً ساخراً ، مفتناً في تهككه وسخريته بما
يضجك منهم الناس ، ويثير حولهم عواصف الضحك ، ويضيّق عليهم الدنيا .
فحيثما ذهبوا وجدوا هجاءً فيهم قد سبق على الألسن ، يُتَنَدَّر به في كل مكان .
يقول ابن سلام : كان الفرزدق يتصور ويحزع إذا أنشد لجرير ، وكان جرير
أصبرهما . دخل رجل على الفرزدق فقال : «وردت اليوم المربد قصيدة لجرير
تناشدها الناس . فامتق لون الفرزدق . فقال الرجل : ليست فيك يا أبا فراس .

فقال : فيمن ؟ قال : في ابن لجأ التيمي . قال : أحفظت منها شيئاً ؟ قال :
علقت منها بيتين ^(١)

كان جرير ممتازاً في حسه اللفظي ، عالماً بوحى الكلمات وأسرارها . فهو
إذا تغزل رأيت ألفاظه تسيل رقة وعذوبة في مثل قوله :

عوجي علينا واربعي ربة البغل ولا تقتليني لا يحل لكم قتلي
ليالي إذ أهلي وأهلك جيرة وإذا لا تخاف الصرم إلا على وصل
وإذا أنا لا مال أريد ابتياعه بمالي ولا أهل أبيع هم أهلي
وإذا رثي رأيت ألفاظه تقطر حزناً وكداً ، في مثل قوله يرثي ولده
(سودة) :

قالوا نصيبك من أجرٍ فقلت لهم كيف العزاء وقد فارقت أشبالي
فارقتني حين كف الدهر من بصري وحين صرتُ كعظم الرِّمَّة البالي
إن الثَّوِيَّ بذي الزيتون - فاحتسبي - قد أسرع اليوم في عقلي وفي حالي

وإذا هجا كانت ألفاظه مشحونة بالسخرية والاستهزاء ، تستعجل القارىء
بالضحك ، قبل أن يفهم ما تضمنت من معنى . يقول للفرزدق :

عدوا خَصَافٍ إذ الفحول تُنجَبَتُ والجيشلوطُ ونُخْبَةُ خوارا ^(٢)
وإذا فخرت بأمهات مجاشع فافخر بقَبَقَب واذكر النُّخوارا

(١) ابن سلام ١٣

(٢) النخبة الجبان

وتأمل اختياره لهذه الألقاب العجيبة ، وإلى غرابتها المضحكة ، في الجيثلوط
(وهو لفظ مخترع ، كأن معناه الكذاب السلاح ، مركب من جلط وجشط
وسلط) وقَبَّ قَب والنِخْوار .

ويقول له :

بئس الفوارس يا نَوَارُ مجَاشِعُ خورُ إذا أكلوا خزيراً صَفَدَعُوا
وتأمل هؤلاء القوم الذين يُصَفِّدُونَ (أي يسلحون ويضربون) .

ويقول له :

فإن مجاشعاً فتمرُّ فوهم بنو جَوَّحَى وَخَجْنَجَجٍ والقِذَام
وتأمل اختياره لهذه الأسماء الغريبة ، وهي أسماء بعض من كان يشتغل
بالحدادة من رقيقهم ، يتهم نساء مجاشع بهم . ويقول : هؤلاء القيون هم آباؤهم .
ثم انظر أخيراً إلى هذه الأبيات العجيبة ، ولا تتعب نفسك في فهمها ، فهي
تؤدي ما أريد بها بمجرد ملامستها للأذن ، وتستفز الضحك بخصائصها
الصوتية وحدها :

أنت ابنُ هاتيكَ وتيكَ تِيكَا أشبهتَ منها شهباً يُخزِيكَ
أشبهتَ حمرانَ وعُصلَ كِيكََا أما ترى الحمرَةَ في بنِيكََا
يا ابنَ التي كانت تُتَشَّى حِيكََا كانَ بينَ إسكِتْهَا دِيكََا
فرُجُ آسْتها مثلَ مَشَقِّ فيكََا تقولُ لما مَلَّتِ التَّوْريكََا
عال أخاكَ العبدَ عن أبيكََا

وقد وهب جرير مع هذا الحسن اللفظي الممتاز عيناً نقادة ، تقع على العيوب ووجوه النقص من أول نظرة ، وتهتدي إلى مواضع السخرية ، اهتداء المغناطيس إلى دقائق الحديد المنتشر ، ومن وراء هذه الملاحظة الدقيقة النقادة خيال خصب ، وذكاء نفاذ ، يمد به بالصور الغريبة في الافتتان ، البارة اللاذعة ، يتناقلها الناس متتدرين . فمن أمثلة هذا الهجاء الذي يعتمد على الصور ، قوله يصف بني مجاشع بالسمن والترهل ، مع قلة الفناء في الحروب :

متى تغمز ذراع مجاشعي تجد لحماً وليس على عظام
فما صدق اللقاء مجاشعي^٣ وما جمع القناة مع اللجام
تولون الظهور إذا لقيتم وتدنون الصدور من الطعام
وقوله فيهم :

تلقى ضفن^٤ مجاشع^٥ ذا لحية وله إذا وضع الإزار حران^٦
من كل منتفخ الوريد كأنه بغل تقاعس^٧ فوقه خرّجان^٨
وقوله للميم :

وتيم^٩ تماشيها الكلاب إذا غدوا ولم تمش تيم^{١٠} في ظلال الخوافق
وتيم^{١١} بأبواب الزُّروب أذلة وما تهتدي تيم^{١٢} لباب السُّرادق
وتمسح تيم^{١٣} قصة التيس وأسته ولا يمسحون الدهر غرة^{١٤} سابق
وقوله للبعيث المجاشعي :

(١) الضفن القصير المكتنز . الحر (بكسرتين) موضع المورة من المرأة .

يَفِيشُ ابْنُ حَمْرَاءِ الْعِجَانُ كَأَنَّهُ خِصِي بُرَادِينَ تَقَاعَسَ فِي الْوَحْلِ^(١)
 وقوله في الأخطل :

والتغليُّ إِذَا تَمْنَحُحُ لِلْقِرَى حَكُّ أَسْتَهْ وَتَمَثَّلُ الْأَمْثَالَا
 وقوله للفرزدق :

إِذَا أُسْفِرَتْ يَوْمًا نِسَاءُ مَجَاشِعَ بَدَتْ سَوَاءٌ مِمَّا تُجْنِرُ الْبَرَاقِعَ
 مَنَآخِرُ شَاتَتْهَا الْقَيُونُ كَأَنَّهَا أَنْفُ خَنَازِيرِ السَّوَادِ الْقَوَابِعِ
 مَبَاشِيمُ مِنْ غِبِّ الْخَزِيرِ كَأَنَّمَا تُصَوِّتُ فِي أَعْفَاجِهِنَّ الضَّفَادِعِ^(٢)
 وقوله له :

وَأَوْصَى جُبَيْرٌ إِلَى غَالِبٍ وَصِيَّةَ ذِي الرَّحِمِ الْمُجْهَدِ
 فَقَالَ أَرَفَقَنْ بِلِيٍّ الْكَتِيفِ وَحَكُّ الْمَشَاعِبِ بِالْمُزْدِ^(٣)
 وَفَازَ الْفَرَزْدَقُ بِالْكَلْبَتَيْنِ وَعَدَلَ مِنَ الْحَمَمِ الْأَسْوَدِ^(٤)

(١) ابن حمراء العجان يكنى بذلك من أن أمه أعجبة ليست بمربية . والعجان الموضع الذي بين القبل والدبر .

(٢) الخزير والخزيرة دقيق يخلط بالماء ويوضع على النار حتى يتماسك قوامه ، وقد يوضع فيه لحم . أو هو ورقة تتخذ من بلالة النخالة . الأعفاج الأمعاء . ولهب كل شيء عاقبته .

(٣) الكتيف شباب الحديد ، والواحدة كتيفة ، وهي حديدة مريضة يفلق بها الباب . المشاعب جمع مشعب (على وزن منبر) وهو المثقب الذي ينقب به .

(٤) الكلبتان ما يأخذ به الحداد الحديد المحمى . المدل (بفتح الميم وكسرهما) المشل والنظير . الحمم (بضم الحاء وفتح الميم) الفحم .

فَرَّقَ لَجْدَكَ أَكْبَارَهُ وَأَصْلَحَ مَتَاعَكَ لَا تَفْسُدَ
وَأَذِنَ الْعِلَالَهَ وَأَذِنَ الْقُدُومَ وَوَسَّعَ لِكَبِيرِكَ فِي الْمَقْعَدِ^(١)

وهو ينتمى جده الفرزدق بعبدما 'جَبَّيْر' ، ويقول إنها ولدت ابنها غالباً
(أبا الفرزدق) منه . ثم هو يمر بذلك مرور من 'يُلْقِي' الخبر وكأنه حقيقة
مفروغ من صحتها لا تحتاج إلى إثبات . ومن ذلك قوله :

وَجَدْنَا جُبَيْرًا أَبَا غَالِبٍ بَعِيدَ الْقَرَابَةِ مِنْ مَعْبَدٍ
ومن أمثلة الهجاء الذي يعتمد على النكتة المضحكة قوله في هجاء التَّيْمِ :
لَوْ يُدْفَنُ التَّيْمِيُّ ثُمَّ دَعَوْتَهُ إِلَى فَضْلِ زَادٍ جَاءَ يَسْمَى مِنَ الْقَبْرِ
وَأَيَّةُ لَوْمِ التَّيْمِ أَنْ لَوْ عَدَدْتُمْ أَصَابِعَ تَيْمِيٍّ نَقَصْنَ عَنِ الْعَشْرِ
وقوله فيهم :

يَا تَيْمٌ إِنْ وَجَّهْتُمْ - فَتَقْنَعُوا - طَبِيعَتُ بِالْأَمِّ خَاتَمٌ وَكِتَابٌ
قَوْمٌ إِذَا حَضَرَ الْمُلُوكَ وَفُودُهُمْ تَتَفَتَّ شَوَارِبُهُمْ عَلَى الْأَبْوَابِ
وقوله فيهم :

وَتَيْمٌ يَفْخَرُونَ وَضَرَبُ تَيْمٍ كَضَرْبِ الزَّيْفِ بَارٍ عَلَى التَّجَارِ
وقوله للفرزدق في نفس المعنى ، حين طرد من الحجاز ، لسوء سيرته وإفحاشه
في شعره :

(١) العِلَالَةُ (بفتح الميم) السندان الذي يترك عليه الحديد .

نفاك حجيج البيت عن كل مَشْعَرٍ كما رُدُّ ذو النَمِيتَيْنِ المزيَّفُ
ويقول للأخطل :

أتزعم ذا المناخر كان سِبْطاً يهودياً وتزعمه أباكا
وهو بذلك يشير إلى ما يروى من أن الخنزير كان من بني إسرائيل فمسخ .
هذا الخيال الحصب ، وهذه النكتة البارة ، قد جمعت جرير من أخطر
المجائين ، في إطلاق الألقاب على خصومه ، وترويج الاشاعات الباطلة ، يكررها
في شعره ، ويفتن في عرضها ، حتى تصبح عند الناس حقيقة مؤكدة .
فهو يلقب الأخطل بدَوْبَل ، لأنه كان نصرانياً يأكل الخنزير . يقول له :
بكى دَوْبَلٌ لا يُرْقَىء الله دمعَه ألا إنما يبكي من الذل دوبل^(١)

ويقول :

فكم من خبيث الريح من رهط دوبل بدجلة لا تبكي عليه النوائح

ويقول :

فإنك يا خنزير تغلب إن تقل ربيعة وزنٌ من تميم تكذب
ويلقب أبا الفرزدق بحوض الحمار ، لأنه كان أحذب داخل الصدر طويل
الحية :

حوض الحمار أبو الفرزدق فاعرفوا منه قفاً ومقلداً وعذارا^(٢)

(١) الدوبل الخنزير أو ذكره أو ذكر ولده .

(٢) المذاران جانباً للحية . وهو كذلك ما سأل من اللجام على خد الفرس . والمقصود

هنا المعنى الأول . المقلد موضع القلادة .

ويقول :

حوض الحمار أبو الفرزدق فاعلموا عَقَدَ الاخادع وانشاجَ المِرْفَقِ^(١)
شَرُّ الخَلِيقَةِ من علمنا منهم حَوْضُ الحمار وشر من لم يخلق
ويلقب بني نمير بالتيوس :

فصبراً يا تيوس بني نمير فإن الحرب موقدة شهابا
ويسمي الفرزدق القرد لقصره ودمامة وجهه ، ويلقبه أحياناً القرد الأصلع
لجمعه الصلع إلى القصر والدمامة :

إِنَّ البَلِيَّةَ لا بَلِيَّةَ مِثْلَهَا قَرْدٌ يَعْلَلُ نفسه بالباطل
ويقول :

ولقد صككت بني الفَدَوْكَسِ صَكَّةً فلقوا كما لقي القُرَيْدُ الأصلع^(٢)
ويلقب رجلاً من سعد اسمه أبو كامل (ضرة الأرنب) :
أخالفت سعداً وحكامها أيا ضُرَّةَ الأرنب الحافل
ويلقب رجلاً آخر اسمه ميجاس (دودة الحش) :

لو كان غيرك يا ميجاسُ يشتمنا يا دودةَ الحشِّ يا ضُلَّ بن ضلال^(٣)

(١) الاخدع حرق في الرقبة وهو فرع من الوريد ، والاخادع جمعه . يقال لوى فلان اخدعه أي امراض وتكره ، وسوى اخدعه أي تركه الكبير . المرفق مفصل الدراع ، وانشاجه تقبضه .
(٢) بنو الفدوكس بيت من بيووت تغلب : وهم قوم الاخطل .
(٣) الحش الكتيف .

ويلقب شبة بن عقال (سلح النعامة) :

فضح الكتيبة يوم يضرط قائماً سلحُ النعامة شبةُ بنِ عَقَال

وجريـر بعد هذا أمر الناس في اختراع الإشاعات وتروييحها ، يُصْهِرُ الفِرْزْدَقُ إلى قوم من بكر حين يخطب ابنهم حدراء ، فلا يزال جريـر يشنع بها ، حتى يمنعا أهلها منه ، كفاً لشره ومجائه . ويتهم ليلي أم غالب (جدة الفِرْزْدَقِ) بحبـير عبدها - وكان قيناً - ويكرر ذلك حتى يشيع بين الناس .

تلقى نساء مجاشع من ريحهم مرضى وهنّ إلى جُبَيْر تُزْع
ليلى التي زفرت وقالت حبذا عَرَاقُ القِيَانَةِ من جبير ينبع

ويتهم جمعين أخت الفِرْزْدَقِ برجل من منقَر ، ولا يزال يفتنّ في تصوير اتصاله أفحش افتنان ، ويفصل أفذر تفصيل ، حتى تصبح جمعان سبة الفِرْزْدَقِ وقومه ، ولا يرى الناس قوله فيها إلا حقيقة . ثم يقر في آخر عمره بأنها كانت من صالحات النساء ويستغفر الله .

كان الفِرْزْدَقُ يشنع بحريـر ، ويختلق الإشاعات حوله وحول قومه . ولكن لم تكن له جرأة جريـر وبراعته ، فهو يشنع بصلة بني يربوع بالحـير ، وهو شيء بعيد عن المعقول ، قد يتندر به الناس ، ولكنهم لا يصدقونه . فأما جريـر فهو يلتقط مادة هجائه من الواقع المشاهد ، القريب من المعقول .

وقد كان جريـر يعالج موضوعاته معالجة الفنان الموهوب ، الذي يلشع ولا يصرح ، ويتناول الأشياء من أطرافها مترقفاً ، ويشير إليها ولا يلمسها .

يقول في أغور نبهان :

وأعور من نبهانَ أمّا نهاره فاعمى وأما ليله فبصير

ويقول لعمر بن لُجْأ مِعِرَ أ بَامَه :

مَا بَالُ بَرْزَةِ فِي الْمَنْحَاةِ إِذْ نَذَرْتَ صَوْمَ الْحَرَمِ إِنْ لَمْ يَطْلُعِ الْقَمَرُ
ويقول له :

وَلَقَدْ هَمَمْتُ بِأَنْ أَدْمُرَ بَارِقًا فَرَقَبْتُ فِيهِمْ عَمَّا إِسْحَاقَا

وهو بذلك ينفيهم عن العرب وينسبهم إلى بني إسرائيل. وأبرع ما في البيت أنه يدخر كل ما فيه من لدغ للكلمة الأخيرة . فالقاريء لا يرى بالبيت بأساً حتى تُلْقَى هذه الكلمة كالغلبة .

ويقول لَتَيْم :

تَرَى الْإِبْطَالَ قَدْ كَلِمُوا وَتَيْمٌ صَحِيحُوا الْجُلْدَ مِنْ أَثَرِ الْكُلُومِ
ويقول للفرزدق :

إِنْ مَجَاشِعًا جَمَعُوا فَيَاشَا وَأَسْتَاهَا إِذَا فَرَزِعُوا رِطَابَا
يتهمهم بالجن ، ويقول إنهم يسلحون لفرط ما بهم من فزع .
ويقول في نساء بني تميم :

إِذَا قَامَتْ - لَغَيْرِ صَلَاةٍ وَتَرٍ - بُعِيدَ النَّوْمِ أُنْبَحَّتِ الْكَلَابَا
ويقول لبني مجاشع :

الظَّاعِنُونَ عَلَى أَهْوَاءِ نَسْوَتِهِمْ وَالْخَافِضُونَ بَدَارٍ غَيْرِ مَحْلَالِ

وجرير بعد كل هذا ساخر من خصمه ، متهم به ، لا تراه غاضباً أبداً . وقد جعل هذا الهدوء لسخريته لدعاً كأنه السياط . انظر إلى قوله في تعبير بني مجاشع بلقيط بن زُرارة ، الذي قتل في بعض الحروب :

وخورُ مجاشعِ تركوا لقيطاً وقالوا حنوّ عينك والغراباً^(١)
جعلهم يتحدثون إلى الميت ، ويطلبون إليه أن يحافظ على عينه من الغراب .
وقوله للتم :

وإنك لو لقيت عبيد تيم وتيّاً قلت أئيم العبيد
وقوله للأخطل :

أدّ الجزى ودع الفخار بتغلب واخساً بمنزلة الذليل الصاغر
وقوله له :

قال الأخطل إذ رأى راياتنا يا مار سرّجس لا نريد قتالا
وقوله :

إذا ما كان خالك تغليبا فبادل إن وجدت له بدالا
أبعّل التغلبية لا تطأها فلا ديناً أصبت ولا جمالا

(١) حنو العين عظم الحاجب المنحني على العين . يهزه به فيقول : احفظ الغراب بيمينك ، فان انصرفت من مراقبته سقط عليها فاكلها .

وقوله له :

قيسٌ وخندفٌ إن عددتَ فعَالمهم خير وأكرم من أبيك فعَالا
إن حرّموك لتحرّمنَّ على العِدا أو حلّوك لتؤكّلنَّ حَلالا
ويقول للفزدق :

زعم الفزدق أن سيقتل مِربعاً أبشر بطول سلامة يا مِربع
ويقول معيراً إياه قتل الزبير بن العوام وهو في جوار قومه مجاشع :

فأدُّوا حواريَّ الرسول ورَحَلَه إلى أهله ثم افخروا بعدُ أو دَعُوا

كل هذا الخصال كفلت لشمر جرير السيرورة والذبيح ، وجعلت منه أبرع
هجاء عرفه الأدب العربي في مهاجمة الأفراد . فلم يعرف الأدب العربي شاعراً
تمرّس له مثلُ هذا العدد الضخم من الشعراء الذين تعرضوا لجرير ، فكان لا يمل
الرد عليهم ولا يضيق به . وكان مواهب هذا الرجل الشعرية ، لم تكن تسخو
وتجود إلا على الهجاء .

الفزردق

الحديث عن جرير لا بد أن يستدعي الحديث عن الفزردق ، فهما صنوان لا يفرقان ، ربطت بينهما الأقدار في النشأة ، فكان مولدهما في عامين متقاربين ، سبق إليه الفزردق ببضع سنوات . وربطت بينهما في الوفاة فماتا في عام واحد ، وربطت بينهما في النسب فكانا من قبيلة واحدة ، وربطت بينهما بعد كل ذلك في هذا التلاحم والتنافس ، الذي دام بينهما نحواً من أربعين عاماً ، يتهاجيان بما لم يتهاجَ بمثله شاعران في جاهلية أو إسلام ، كما يقول ابن سلام .

ويتفق الذين أروخوا لها على أنها ماتا في عام واحد ، ثم يختلفون في تحديده ، بما لا يسبق عام ١١٠ هـ ، ولا يتأخر عن ١١٤ هـ^(١) . ويرجع أبو الفرج أن تكون وفاتها في عام ١١٤ هـ ، لأن للفزردق شعراً في يوم كاظمة (١١٢ هـ) ، ولا بد أن تتأخر وفاته عنه . ويؤيد ما يذهب إليه أبو الفرج أن الفزردق مدح خالد بن عبد الملك بن الحكم والي المدينة ، وخالد هذا قد وليها عام ١١٤ هـ . ويتفق المؤرخون كذلك على أنه جاوز التسعين . ويؤيد ذلك عندنا قوله في مقدمة قصيدة يمدح بها عبداً لله بن عبد الأعلى بن أبي عمرة الشيباني :

سما لك شوق من نَوَار ودونها مَهَامُهُ غُبْرُ آجَنَاتِ الْمَنَاهِلِ^(٢)
ومن بعد أن أكلتُ تسعين حِجَّةً وفارقتُ عن حِلْمِ النُّهْيِ كلَّ جَاهِلٍ

(١) المقدم الفريد ٦ : ٢٢٢ ، ابن خلكان ٢ : ٢٦٥ ، الشعر والشعراء ١٧٦ و ١٧٩

(٢) المهامه جمع مهمه وهي الصحراء . المنهل الأجمن الراكد الفاسد .

وقول جرير في رثائه :

فقي عاش يبني المجد تسعين حجة وكان إلى الخيرات والمجد يرتقي

فولد الفرزدق على ذلك حوالى عام ٢٤ هـ ، أو قبله بقليل .

ويؤيد ذلك قوله في مقدمة قصيدة يمدح بها الوليد بن عبد الملك (٨٦ هـ - ٩٦ هـ) . ويفهم من جوها أنها في أوائل عهده بالخلافة :

ألم يك جهلاً بعد ستين حجة تذكرُ أم الفضل والرأسُ أشيب

ويؤيد ذلك أيضاً قوله في مقدمة قصيدة يمدح بها يزيد بن عبد الملك (١٠١ هـ - ١٠٥ هـ) :

تقول أما ينهاك عن طلب الصبا لدأتك قد شابوا وإن كنت أكبرا
من ابن الثمانين الذي ليس وارداً ولا جائياً من غيبةٍ مُتَنَظِّرا

وقوله بعد ذلك في مدح هشام بن عبد الملك (١٠٥ هـ - ١٢٥ هـ) ، ولا بد أن يكون في أول خلافته :

رمتني بالثمانين الليالي وسهمُ الدهر أصوبُ سهمٍ رامي

نستطيع إذن أن نطمئن إلى هذا التاريخ ، الذي يصور الفرزدق أسن من جرير ببضع سنوات ، وأن نرفض ما يتعارض معه من الروايات ، مثل قول صاحب الأغاني ^(١) : « حج الفرزدق بعد ما كبر وقد آت له سبعون سنة ، وكان هشام بن عبد الملك قد حج في ذلك العام » . فالمعروف أن هشاماً حج عام

(١) الأغاني ١٩ : ٤٠ .

١٠٦ هـ . فولد الفرزدق على هذه الرواية عام ٣٦ وهو مناقض لما يروي أبو الفرج نفسه في موضع آخر ^(١) ، من أن الفرزدق كان يجسد الهجاء في أيام عثمان (٢٣ - ٣٥ هـ) . ومناقض كذلك لما يروي في موضع ثالث ^(٢) من أن أباه وقد به على علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعد موقعة الجمل (٣٦ هـ) ، فقال له : إن ابني هذا من شعراء مضر فاسمع منه . فقال له : علمه القرآن .

وإذا كانت الأقدار قد ألفت بين جرير والفرزدق من وجوه ، فقد خالفت بينهما من وجوه أخرى ، فكانا متناقضين من نواحي كثيرة . فجرير خامل الأجداد ، شديد الشعور بنفسه ، ساخط على القدر الذي لم يحى به إلى الدنيا إلا عن طريق أبيه . وهو عاق له ضيق به . أما الفرزدق فهو عظيم الأب والجد ، شديد الشعور بامتيازته وتفوقه ، راض عن آبائه ، شديد الفخر بهم . وجرير رقيق القلب ، عميق الإيمان ، ليس في سيرته خروج على الدين أو العرف . وهو مسالم ، حسن العلاقة بالولاة والحكام وبالناس . أما الفرزدق فهو فظ غليظ القلب ، لم يدخل الإسلام قلبه ولم يتغلغل فيه ، ففي سيرته خروج على العرف والدين . وهو جلف جاف كشير الخلاف ، مولع بالمشاكسة والمراء . ولذلك ساءت علاقته بالولاة جميعاً . وكان جرير لرقته وإيثاره حياة الوداعة والهدوء لا يتكسب بالهجاء . وكان يبتذل نفسه في السؤال ، ويهينها في سبيل المال . أما الفرزدق فكان شديد الاعتداد بشخصه ، يفرض نفسه على الناس فرضاً ، ويسألهم في عنف ، وكأنه يرى في ما لهم حقاً له ، ويهجم إذا امتنعوا عنه وأبوا أن يبذلوا له . وهو كذلك شديد الاعتداد بنفسه حين يسأل الخلفاء والولاة ، لا يتوسل إليهم إلا بنفسه ومكانته من قبيلته . وكان جرير زبيري الهوى قيسي النزعة ، يمثل الحزب اليربوعي من تميم . أما الفرزدق فكان لا يعتد بغير قبيلته ، ولا يفكر إلا في حربه وشرف أجداده ، فهو يمثل حزب الأحنف من تميم .

(١) الأمانى ١٩ : ٦

(٢) الأمانى ١٩ : ٤٠

وجد الفرزدق في جرير منافساً خطيراً له حين نبغ في الشعر ، وراه يسرع إلى الجهد ، وقد أوشك أن يتبلغ كل من اعترض طريقه من شعراء تميم ، حتى كاد يحتل من القبيلة مكان الشاعر الأول ، فحسده هذا الرجل التباه بنفسه ، ووقف في طريقه ، ليضع حداً لتقدم هذا الحامل ، الذي يريد أن يحتل بشعره من تميم مكاناً ينافسه به . وقد يتحدث الرواة عن بعض الأسباب المباشرة لتهاجي هذين الشعارين ، ولكن المدقق لقراءة شعرهما وما تبادلا من نقائض ، يحس أن التنافس على الزعامة الشعرية في القبيلة ، والنزاع حول شرف الدفاع عنها هو الدافع الأول إلى هذه المعركة الشعرية الخطيرة ، التي لم تنته إلا بموت الفرزدق . يقول الفرزدق مخاطباً جرير :

واسأل بنا وبكم إذا وردت منى أطراف كل قبيلة من يسمع
صوتي وصوتك ، يخبروك من الذي عن كل مكرمة لخنديف يدفع^(١)
ويقول له :

ستعلم يا حيض المراغة أينما له حين يدعو من تميم قمامه^(٢)
ألم تغور عن قيس بن عيلان باسطاً إليهم يدي مستطعم لا تطاعمه
بأعراض قوم خنديقين منهم لؤي بن فهره والسعود ودارمه
ويقول له :

منعت تميماً منك ، إني أنا ابنها وراجلها المعروف عند المواسم
أنا ابن تميم والمحامي وراءها إذا أسلم الجاني ذمار المحارم

(١) خندف زوجة الياس بن مضر . وهي الام التي يجتمع عندها تميم وقريش .

(٢) القمام (بفتح القاف وضمها) السيد كثير المطاء .

ونلاحظ هذا التنافس كذلك حين يَعرِّضُ الشاعران لذكر سعد - وهي من أشرف فروع تميم وأكبرها ، فيها الزبيرَ قان بن بدر والأحنف بن قيس - حيث نرى أن كلا منهما يحاول أن يكسب تأييدها ، وأن يضمها إلى جانبه .

يقول جرير في بعض نقاضه :

ولم أنس من سعدٍ بقُصوانٍ مشهداً وبالأدَمَى ما دامت العينُ تطرفُ
وسعدٌ إذا صاح العدو بسرحهم أبوا أن يُبدؤا للصياح فآزحفوا
ديارُ بني سعدٍ ولا سعد بعدم عفتُ غيرَ أنقاہِ بيبرين تغزف
إذا تزلتُ أسلافُ سعدٍ بلادها وأثقالُ سعدٍ ظلت الأرضُ ترُجف

فيجيبه الفرزدق بقوله :

تَبَكِّيْ عَلَى سَعْدٍ وَسَعْدٌ مَقِيْمَةٌ بِيْبِرِيْن مِنْهُمْ مِنْ يَزِيْدٍ وَيُضْعِفُ
عَلَى مَا وَرَاءَ الرِّدْمِ لَوْ دُكَّ مِنْهُمْ لَمَاجَوْا كَمَا جَا الْجَرَادُ وَطَوَّفُوا^(١)
فَهُمْ يَعْدِلُوْنَ الْأَرْضَ لَوْلَاهُمْ اسْتَوَتْ عَلَى النَّاسِ أَوْ كَادَتْ تَسِيْرُ فَتُنْسَفُ
وَلَوْ أَنَّ سَعْدًا أَقْبَلَتْ مِنْ بِلَادِهَا لَجَاءَتْ بِبَيْرِيْنِ اللَّيَالِي تَزْحَفُ^(٢)

كان الفرزدق عميق الإحساس بتفوقه وامتيازهِ . فجده صعصعة عبي الوثيدات ، الذي جعل على نفسه أن لا يسمع بموهودة إلا فداها ، فجاء الإسلام

(١) يقصد بالردم سد ذي القرنين الذي ورد ذكره في سورة الكهف . بناء على أهل باجوج وماجوج ليكف إذاهم من الناس . طوفوا خرجوا كالطوفان .

(٢) هذا من القلب ، وهو شائع في شعر العرب . أراد : لجأت ببرين (وهو موضع) بالليالي (أي بجيش مثل الليالي) .

وقد فدى ثلاثمائة موهودة أو أربعمائة ، فيما يقول الرواة . وأبوه غالب الذي يذهب في كرمه إلى حد الإصراف والإتلاف ، يعطي الناس ولا يسألهم فيم يسألونه ، ويبلغ به جنون الكرم والحرص على التفوق فيه أن يعقر كل إبله ، وهي تتجاوز المائة ، بل تبلغ أربعمائة فيما يرى بعض الرواة ، فيُسَهِّبُهَا الناس منافسةً لرجل منهم سولت له نفسه أن يجاريه ويضاهي نفسه به ^(١) .

كان الفرزدق يحس هذا الامتياز منذ نشأته ، فهو طموح مفتونٍ ملء رأسه الفرور . ويبدو ذلك في القطعة ، التي يظهر أنها من أول شعره ، يخاطب بها أمه وقد أرسلته في غم يرعاها - وكان غلاماً - فأغار عليها الذئب فاختطف كبشاً ، فلما راح إليها لامته :

ولا نثني يوماً على ما أتت به	صروف الليالي والخطوب القوارع
فقلت لها فيثني إليك وأقصري	فاوم الفتى سيف بوصلية قاطع ^(٢)
تلوم على أن صَبَّحَ الذئبُ ضأنها	فالوى بكبشٍ وهو في الرعي راتع
وقد مر حول بعد حول وأشهر	عليه ببؤسٍ وهو ظمآن جائع
فلما رأى الإقدام حزمًا وأنه	أخو الموت من سُدَّتْ عليه المطالع
أغار على خوفٍ وصادف غرّة	فلاقى التي كانت عليها المطامع
وما كنت مضياًعاً ولكن همتي	سوى الرعي مفطوماً وإذ أنا يافع
أبيتُ أسوم النفس كلَّ عظيمة	إذا وطُوتْ بالمكثرين المضاجع

(١) الاغانى ١٩ : ٣ - ٥

(٢) فيني اي ارجمي . اوم الفتى ظمؤه ورغبته . يقول اني لامننى الموت بسيف قاطع من العاحك في اللوم .

ويبدو هذا الطموح الجريء في قصة قدومه على معاوية ، مطالباً بـ ميراث
 همه الخُتات وكان قد قدم عليه وأخذ عطاءه ألف دينار ، ثم لم يلبث أن مات .
 فردّ معاوية عطاءه إلى بيت المال ، فقدم عليه الفرزدق - وكان غلاماً - فقال :

أبوك وعمي يا معاوي ورثا ترثا فيحتاز التراث أقاربهُ
 فما بال ميراث الخُتات أكلته وميراثُ حربٍ جامدٍ لك ذائبهُ
 فلو كان هذا الأمرُ في جاهليّةٍ علمتَ من المولى القليلُ حلّايهِ^(١)
 ولو كان هذا الأمرُ في غير مُلكِكم لأداهُ لي أو غصّ بالماء شارِبهُ
 وكَم من أبٍ لي يا معاوي لم يكن أبوك النّبي من عبد شمس يُقاربهُ

وقد صادف هذا الطموح وهذا الشعور بالامتياز من طبع الفرزدق خشونة
 وجفاء ، فبلغ حد الجنون والمرض . فهو لا يرى أن قبيلته ستجد من يملأ فراغه
 ويحل محله إن مات :

ألا ليت شعري ما تقول مجاشع إذا قال راعي النّيب أودى الفرزدق
 ألم أكُ أكفيها وأجمي ذمارها وأبلغ أقصى ما به مُتعلّق
 ويقول مفاخرأ بتحمل غرامات قومه :

أرى كلَّ جانٍ من تميم إذا جنى لهم حَدَثًا كانت عليّ جرائمهُ
 وقد علم الجانون أن ابنَ غالب لكلِّ دمٍ قالوا هرقناه غارِمهُ

(١) الحلاب جمع حلبة (بفتح الحاء وسكون اللام) وهي الدفعة من الخيل في الرهان .
 القليل حلّايهِ أي الضعيف .

وهو لا يدع الفخر بنفسه بين أيدي الملوك والأمراء حين يمدحهم . يقول في قصيدة يمدح بها عمر بن عبد العزيز وهو والي الحجاز :

وقوم أبوم غالب أنا ما لهم وعام تمشى بالفراء أرامله
 ومجد أذوالناس أن يلحقوا به وما أحد أو يبلغ الشمس نائله
 أنا الخنديف الخنظلي الذي به إذا جمعت ركبان جمع منازل
 أرى كل قوم ود أكرمهم أبا إذا ما اتسمى لو كان منا أوائله
 وهو يقرن نفسه به حين يقول :

إليك ابن ليلى بالبن ليلى تجوزت فلاة ودوايا دقانا مناهله^(١)

ويقدم مع جرير على يزيد بن عبد الملك ، وبين يديه بُنْبَنَةٌ له ، فيقول له الفرزدق : إن يكن دارم يضرب فيها فهي أكرم العرب^(٢) .

ويقول في قصيدة يمدح بها مستمع بن المنذر بن الجارود :

لها سورة كان الملعلى بنى لها مكارم ما كانت يدان تنالها^(٣)
 من الناس إلامن قریش ودارم إذا سبق الأيدي القصار طواؤها
 وقد ظل الفرزدق زماناً وهو ممتنع على خلفاء بني أمية ، يمدحهم من بعيد ،

(١) ليلى أم عمر بن عبد العزيز ، واسم جدة الفرزدق لابيها ليلى كذلك . الفلاة والداوي والديوى والدو كلها أسماء للصحراء . دقان المناهل أي مطموسة من شدة الرياح بها . للمسافر فيها لا يجد حاجته من الماء .

(٢) الاثني ١٩ : ٧ . (٣) السورة (بضم السين) المنزلة والشرف .

ولا يرحل إليهم . وقد كان سليمان أول من رحل إليه منهم ، فهو يقول في أول قصيدة مدحه بها :

فلو كان لي بالشام مثل الذي جبّت ثقيفٌ بأمصار العراق وأكثر^(١)
فقل أأته لم آته الدهر ما دعا حامٌ على ساقٍ هديلاً فقرّرا^(٢)
تركتُ بني حربٍ وكانوا أئمةً ومروان لا آتية والمتخيراً
أباك . وقد كان الوليدُ أرادني ليفعل خيراً أو ليؤمّن أو جراً^(٣)
فما كنتُ عن نفسي لأرحل طائعا إلى الشام حتى كنت أنت المؤمرا
فحبك أغشاني بلاداً بفيضةً إليّ ورومياً بعمّان أقشرا^(٤)

وهو لا يرى لنفسه وقيلته كفواً إلا قريشاً . يقول :

وليس بعدلٍ إن سببتُ مقاعساً بأبائي الشم الكرام الخضارم
ولكن عدلاً لو سببتُ وسبني بنو عبد شمس من منافٍ وهاشم

ويقول لابن الزبير ، حين احتكت إليه النّوّار فحكم لها ، وتعرض الفرزدق بعد ذلك لابن الزبير بشعر أغضبه ، فقال له : يا ألام الناس ! هل أنت وقومك إلا جالية العرب ؟ يقصد بذلك إجلاء تميم عن تهامة قبل

(١) مثل الذي جبّت ثقيف يقصد الحجاج بن يوسف لأنه من ثقيف . يقول لو كان لي في الشام مثل ما يجبي الحجاج من مال العراق ما آتيتها . إنما جئت من أهلك .

(٢) الفرقة صوت ترجيع الحمام وهديله .

(٣) الأوجر الخائف الوجل .

(٤) عمان كانت من أعمال دمشق . سميت باسم عمان بن لوط عليه السلام . الاثتر الأحمر

الإسلام بمائة وخمسين عاماً لولوبهم على البيت واستلابه . فأجابه القرزدي بأبيات
بدأها بقوله (١) :

فإن تَغَضَّبَ قريشٌ ثم تَغَضَّبَ فإن الأرضَ ترعاها تميم
بل إنه لا يعدل بقبيلته شيئاً ، ولا يرى لهم كفواً أو نظيراً . فلولام لضاع
الإسلام والمسلمون :

وأفضلُ من يمشي على الأرض حِينَا وما ضَيَّنتُ في الذاهبين قبورها
لنا دونَ مَنْ تحتَ السماء عليهم من الناس طُراً شمسُها وبدورها
أخذنا بأفئاق السماء عليهم لنا بَرُّها من دونهم وبحورها
ولو أنَّ أرضَ المسلمين يحوِّطها سوانا من الأحياء ضاعتُ تُغورها
لنا الجن قد دانتُ وكلُّ قبيلةٍ يدين مُصلُّوها لنا وكفورُها
ويقول :

ولو أنَّ أُمَّ الناس حواء حاربتُ تميمَ بنَ مُرٍّ لم تجد من يُحِيرُها
وقدم على يزيد بن عُتَيْر الأسدي - وكان على البصرة - فوقف على بابه ،
فأبطأ في الإذن له . فغضب القرزدي وانصرف قائلاً :

ألم يَكُ من نُكسَ الزمان على أَسْتِهِ وقوفي على باب الوَقَاحِ . أزاوُلُه
فإن يك شرطياً فلإني ابن غالب إذا جمعتُ رُكبانَ فَجٍّ منازلُه

وكان الفرزدق يتكلف في حياته مظهر السادة ، فكان لا يُرى إلا مُقنَّعاً - وكان القناع من سِيا الرؤساء - قال الجاحظ : والقناع من سِيا الرؤساء . والدليل على ذلك والشاهد الصادق والحجة القاطعة أن رسول الله ﷺ كان لا يكاد يُرى إلا مقنَّعاً (١) .

يقول له جرير :

ويقول طيبةُ إذ رأتك مقنَّعاً أنت الحنيثُ عِمامةً وإزاراً

ويقول له :

وتقول جعثنُ إذ رأتك مقنَّعاً قُبِحتَ من أسدٍ أبي أشبال

وقد كثرت الروايات واضطربت الأقوال في ميل الفرزدق السياسي ، فبعض هذه الروايات يصوره أموياً مروانياً ، وبعضها يصوره شيعياً . ويستطيع الباحث أن يجد لكل هذه الروايات ما يؤيدها من شعره . فها يصور زبير بنه ، قوله يؤنب أبا حاضر الأسدي لفراقه قومه - وكانوا زبيرية - وانضوائه مع مالك بن مسنم إلى الأزد - وكانوا مراونية :

عجبتُ لأقوامٍ تميمٌ أبوهم وهم في بني سعدٍ عراضُ المَبَارِكِ
وكانوا سَراةَ الحَيِّ قبلَ مسيرهم إلى الأزدِ مُصَفَّراً لحاها ومالك
ونحن نفينا مالكا عن بلادنا ونحن فقانا عينه بالنيازك^(٢)
فما ظنكم بابن الحواريّ مُصعَبٍ إذا افترَّ عن أنيابه غيرَ ضاحك
أبا حاضر إن يحضر البأسُ تلقني على سابحٍ إِبْرِيئُهُ بالسَنابك^(٣)

(١) البيان والنبين ٣ : ٨٨ (٢) النيزك الرمح القصير

(٣) الإبريم حلقة من حديد في طرف الحزام يشد إليها طرفه الآخر . السنبك (على وزن ههدد) طرف الحافر وطرف حلية السيف . وسنابك الأرض أطرافها .

ومما يصور تشيعه ، القصيدة المشهورة التي تنسب إليه في مدح علي بن الحسين . والتي ينكر بعض المؤرخين نسبتها إليه :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم
ويؤيد تشيعه ما يروى عن تشيع أبيه وعمه أعين - أبي النوار - (١).

أما الشعر الذي يصور مروانيته فهو كثير يملأ ديوانه . وهو في رأينا لا يدل على شيء ، لأن كل الشعراء كانوا يمدحون الأمويين في ذلك الوقت ، عن رغبة أو رهبة .

وإذا تلعبنا سياسته المعصية ، وجدناه يؤيد قبيلة كلب المعروفة بمصبتها الأموية في مثل قوله :

إذا انتجعت كلبٌ عليكم فمكّنوا لها الدار من سهل الكباء والشرب (٢)
فإنهم الأحلاف ، والغيث مرّة يكون بشرق من بلاد ومن غرب
أشدّ حبال بين حيتين مرّة حبال أمّرت من تميم ومن كلب (٣)
وقوله :

ولمّا وكلباً إخوة بيننا عرى من العقدر قد شدّ القوى من غيرها (٤)
فمن يأتنا يرجو تفرق بيننا يلاق جبلاً دون ذاك وعورها

(١) الألفاني ١٩ : ٦ - نقاض جرير والاختل ٢٠٢

(٢) الانتجاع طلب الكلأ والرعى . المباءة المنزل . الشرب (بالفتح) مصدر شرب ، وبالكسر الماء المشروب والمورد .

(٣) المرّة (بكسر الميم وتشديد الراء) القوة . امر الحبل إجاد قتله . يقول إن الحلف الذي بين قومه وبين كلب قوي متين . وكانت تميم حالفت كلباً في فتنه عثمان .

(٤) القوى جمع قوة وهو الحبل . افار القتل شدده وأحكمه .

نَجِيرُ عَلَى كَلْبٍ فَيَمِضُنِي جَوَارُنَا وَيَعْقِدُ مِنْ كَلْبٍ عَلَيْنَا مَجِيرُهَا"^(١)
 وهاجم قيساً مهاجراً صريحة في مثل قوله :

رمى اللهُ فيما بين قيسٍ وبيننا على كلِّ حالٍ بالعداوة والبعد
 وزادهم رَغْماً وعَضَّتْ رِقَابَهُمْ بأيدي تميمٍ مُصَلَّتَاتٌ مِنْ الْهِنْدِ
 ولكنه يعترضهم ويربط بينهم وبين قومه في مواضع أخرى فيقول :

إِذَا خِنْدِفٌ بِالْأَبْطَحِينَ تَغْطِرَفَتْ وَرَائِي وَقَيْسٌ ذَيْلَتْ بِالْمَشْرِقِ
 فَمَا أَحَدٌ إِلَّا يَرَانَا أَمَامَهُ وَأَرْبَابَهُ مِنْ فَوْقِهِ حِينَ نَلْتَقِي
 وَمَنْ يَلِقُ بَحْرَيْنَا إِذَا مَا تَنَاطَحَا بِخِنْدِفٍ أَوْ قَيْسٍ بَنِ عَيْلَانَ يَفْرَقُ
 هَا جَبَلَا اللَّهُ اللَّذَانِ ذُرَاهُمَا مَعَ النِّجْمِ فِي أَعْلَى السَّمَاءِ الْمُحَلَّقِ
 فَتَحْنَا بِإِذْنِ اللَّهِ كُلَّ مَدِينَةٍ مِنْ الْهِنْدِ أَوْ بَابٍ مِنَ الرُّومِ مَغْلَقِ
 ويقول :

إِذَا خَرَّتْ قَيْسٌ وَخِنْدِفٌ وَالتَّقَى صِيَاهَا إِذَا طَاحَ كُلُّ صَيِّمٍ
 فَمَا أَحَدٌ مِنْ غَيْرِهِمْ بِطَرِيقِهِمْ مِنَ النَّاسِ إِلَّا مِنْهُمْ بِمُقِيمٍ
 ..إِذَا مُضِرُّ الْحِمَارِ يَوْمًا تَعَطَّفَتْ عَلَيَّ وَقَدْ دَقَّ اللَّجَامَ شَكِيمِي
 أَبَوَا أَنْ أَسُومَ النَّاسَ إِلَّا ظِلَامَةً وَكُنْتُ ابْنَ ضَرْغَامِ الْعَدُوِّ ظَلُومِ

(١) يقول إذا أجرنا كان لجارنا حرمة مند كلب . وكذلك هي نجير علينا فننفلد ما عقدت
 ونحترم جوارمنا .

ويهاجم اليمنية متعصباً لقيس ، حين قَتَلَ المنذرُ بنَ الجارودَ عمرَ بنَ يزيد
الأسدي . وبلغ من عنفه في ذلك ، أن يهاجم الخليفة هشام بن عبد الملك ،
الذي يحمي هذا الحزب اليمني ويتهدده :

فَمَنْ مَبْلَغُ بِالشَّامِ قَيْسًا وَخَنْدِفًا أَحَادِيثَ مَا يُشْفَى بِبَرْدِ سِقَامِهَا
أَحَادِيثَ مَنْ نَشْتَكِيهَا إِلَيْهِمْ وَمُظْلِمَةً يَغْشَى الْوُجُوهَ ظِلَامُهَا
فَإِنْ مَنْ بِهَا لَمْ يُنْكِرِ الضِّيمَ مِنْهُمْ فَيَغْضَبُ مِنْهَا كَهْلُهَا وَغَلَامُهَا
يَعُدُّ مِثْلَهَا مِنْ مِثْلِهِمْ فَيَنْكَلُوا فَيَعْلَمُ أَهْلُ الْجَوْرِ كَيْفَ انتِقَامُهَا^(١)
بِغَلَبَاءِ مَنْ جُمُورُهَا مُضْرِبَةٌ تُزَايِلُ فِيهَا أَدْرَعُ الْقَوْمِ لِأُمُهَا^(٢)
فَغَيْرُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّهَا يَمَانِيَةٌ حَقَاءُ أَنْتَ هِشَامُهَا

والواقع أن مثل هذه الروايات المتنافرة ، وهذا الشعر المتناقض ، يسهل
فهمه إذا لم ننس ما قررنا من أن الفرزدق لم يكن يب ولاه وإخلاصه إلا لقومه
من تميم . وهو بعد هذا مستقل في تفكيره السياسي - إن جاز لنا أن نستعير
هذا الاصطلاح المعاصر ، لذلك العصر الغابر - فهو ينقد كل شيء ، ولا يتمسك
بتأييد الدولة في كل سياستها ، ولكنه يهاجمها حين يبدو له أن الولاة لا
يسرون سيرة عادلة ، وحين يرى أن سياسة الدولة أو الحكام ، تتعارض مع
مصلحة تميم .

وبينا نجد جريراً في مدائحه يكثر من الشكوى ، ويبالغ في وصف بؤسه
وفقر أهله ، استدراراً للعطف ، واستكثاراً من العطاء ، نجد الفرزدق لا يتوسل
إلى ممدوحه إلا بكرمه ونسبه ، فهو يسألهم في إياه وترفع . يمدح عبد الرحمن بن
عديله بن شَيْبَةَ الثَّقَفِيِّ - وأمه أم الحكم ابنة أبي سفيان - فقول :

(١) يشير إلى خروج يزيد بن المهلب من قبل على الدولة (وهو يمني من الأزد)

(٢) الأمانة (يفتح وهمز) الدرع

وما ساقها من حاجةٍ أجمعتُ بها اليك ولا من قلةٍ في مجاشع
ولكنها اختارتُ بلادَكَ رغبةً على ما سواها من ثنایا المطالع^(١)
ويمدح الوليد بن عبد الملك ، فلا يتوسل إليه بفقره كما يفعل جرير ، ولكنه
يتوسل إليه بشرفه قائلا :

أَغْنِي بِكُنْهِي من تزارٍ ومُقبلي فإني كَرِيمُ المشرقين وشاعره
وهو يفرض نفسه على الناس ، فيطالبهم وكأنه يجبي ضريبة مفروضة
يدفعونها اتقاء شره . كانت مَيَّةُ بنت الصلت بن حُرَيْث بن جابر الحنفي
تعطيه في كل سنة خمسمائة درهم ، فلم يزل يجيء إليها مطالباً بها ، حتى خرج إليه
ابن أخ لها فطرده^(٢) . وأتى خالد بن عبد الله القسري ، يستحمله في ديات حملها
فقال له : إيه يا فرزدق ! كأنني بك قد قلت : آتي الحائك ابن الحائك^(٣) ،
فأخذ من ماله إن أعطاني ، أو أذمه إن منعي . فأنا حائك ابن حائك ولست
أعطيك شيئاً ، فاذمني كيف شئت . فهجاه الفرزدق بشعر كثير منه :

ليتني في بجيلة اللؤم حتى يُعزَلَ العاملُ الذي بالعراق^(٤)
فإذا عاملُ العراقين ولَّى عُدْتُ في أسرة الكرام العِتاق

كان الفرزدق مغروراً شديداً الاعتداد بنفسه . وقد جعله هذا الغرور عياباً

(١) وما ساقها الضمير يعود الى نافته . الثنايا جمع ثنية (بفتح لم كسر ثم ياء مشددة)
وهي الطريق في الجبل . المطالع المرتضات .

(٢) ديوان الفرزدق ٣٩٤ .

(٣) الحائك بن الحائك ، لأنه يعني ، واليمن تعبير باحتراف الحياكة والملاحة . والعرب
يحقر أصحاب الصناعات .

(٤) بجيلة قبيلة يمنية ينتسب إليها خالد بن عبد الله القسري والي العراق .

للناس ، لا يعجبه شيء ، لأنه لا ينظر إليهم إلا مستخفاً ، ولا يراهم إلا دونه . وهو من هذه الناحية يشبه المتنبي شهاً كبيراً . كان الفرزدق يحس امتيازها بآبائه وأجداده إلى حد الجنون ، وكان المتنبي يحس امتيازها بمواهبه ، ويفلو في تقديرها إلى حد الهوس والحبال . وقد أسرف المتنبي في هجاء الناس حتى قتله الهجاء ، وأسرف الفرزدق في الهجاء فعرضه ذلك لشر متصل ، فلم يحسن إلا سجيناً أو فاراً من السجن ، لاجئاً إلى من ينقذه منه . وقد ساءت علاقته بكل ولاية العراق ، ولم يسلم من هجائه منهم أحد . هجا زياد بن أبيه ، وظل طول حياته فاراً منه ، لم يستقر حتى مات . ثم هجا الحجاج من بعده ، وهجا عمر بن هبيرة ، وهجا خالد بن عبد الله القسري ، بل لقد هجا الخليفة هشام بن عبد الملك ، حين حج معه فلم يعطه إلا خمسمائة درهم فقال فيه :

يُردُّني بين المدينة والتي إليها قلوبُ الناس يهوي مُنيبُها
يُقلِّبُ عينا لم تكن لخليفة مشوَّهةً حواء بادٍ عيوبُها^(١)
وقال فيه :

لبئس أميرُ المؤمنين أميرُكم وبئس أميرُ المؤمنين هشام
تَنَايَكُ عينا إذا مالقيته تَبَيَّنَ فيه الشؤم وهو غلام^(٢)
وقال لزياد حين تهدده ، لهجائه بني فقيس ، فهرب منه إلى سعيد بن العاص بالحجاز^(٣) :

- (١) كان هشام بن عبد الملك أحول . التي تهوى إليها قلوب الناس هي مكة المكرمة .
(٢) تنايكت الأجفان انطبق بعضها على بعض .
(٣) راجع قصة هذه الأبيات في تاريخ الطبري ٤ : ١٧٩ - ١٨٦ (أحداث سنة ٥٠) .
وفي رواية الشعر خلاف بين الديوان والنقائض والطبري . وبنو فقيم (بصيغة التصغير) هم فقيم بن مالك بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر . وكانوا ينسبون للشعور في الجاهلية .

أَلَا مَنْ مَبْلَغٌ عَنِّي زِيَادًا مُغْلَغَلَةً يُخْبِ بِهَا الْبَرِيدُ^(١)
 بَانِي قَدْ فَرَرْتُ إِلَى سَعِيدٍ وَلَا يُسْطَاعُ مَا يَحْمِي سَعِيدٍ
 فَرَرْتُ إِلَيْهِ مِنْ لَيْثٍ هَزَبَرٍ تَفَادَى عَنْ فَرِيَسْتِهِ الْأُسُودُ^(٢)
 فَإِنْ شِئْتُ انْتَسَبْتُ إِلَى النَّصَارَى وَإِنْ شِئْتُ انْتَسَبْتُ إِلَى الْيَهُودِ^(٣)
 وَإِنْ شِئْتُ انْتَسَبْتُ إِلَى فَقِيمٍ وَنَاسَبَنِي وَنَاسَبْتُ الْقُرُودُ
 وَأَبْغَضُهُمْ إِلَيَّ بَنُو فَقِيمٍ وَلَكِنْ سَوْفَ آتِي مَا أُرِيدُ

وقال يهجو الحجاج ويتهدد الأمويين بالخروج عليهم :

إِنْ تَنْصَفُونَا يَا لِمَرْوَانَ تَقْتَرِبُ إِلَيْكُمْ وَالْأَفَاقُ نَوَاحِدُ
 فَإِنَّ لَنَا عَنْكُمْ مَرَاحًا وَمَذْهَبًا بَعِيسٌ إِلَى رِيحِ الْفَلَاحِ صَوَادِي
 مُخَيَّسَةٌ بَزْلٍ تَخَايَلُ فِي الْبُرَى سَوَارِي عَلَى طُحُولِ الْفَلَاحِ غَوَادِي^(٤)
 وَفِي الْأَرْضِ عَنْ ذِي الْجُورِ مَنَاءٌ وَمَذْهَبٌ
 وَكُلُّ بِلَادٍ أَوْطَنْتُ كَبِيلَادِي

(١) مغلفة رسالة أو قصيدة تغفل وتذهب بعيدا على السن الرواة حين يتناقلونها .
 يخب يسر .

(٢) الليث والهير الأسد . تفادى من فريسته تجنبها .

(٣) في هذا البيت اقواء وهو معدود من عيوب القافية . فالذال هنا مجرورة ، وهي في
 الإبيات السابقة مرفوعة .

(٤) مخيعة محبوسة لا ترح ، تعلق وهي في أماكنها لا ترحها ، لتسمن وتشتد . البازل
 من النوق التي بزل نابها أي ظهر . البرة (بضم لم لنح) حلقة توضع في أنف البعير إذا كان
 منها حاجبا لم تربط إلى جبل ، فإذا شد به البعير انقاد ولم يستطع المقاومة . تخاييل في
 البرى يكتي بذلك من قوتها وشدة نشاطها .

وماذا عسى الحجاجُ يبلغُ جهده إذا نحن جاوزنا حفيرَ زياد
فبأستِ أبي الحجاج وأستِ عجوزه عُتَيْدُ بَهْمٍ ترتعي بوهادٍ^(١)
وقال في عمر بن هُبَيْرَةَ الفَزَارِي، حين ولاه يزيد بن عبد الملك وعزل أخاه
مَسْلَمَةَ بن عبد الملك :

وَلْتُ بِمَسْلَمَةَ الرِّكَابُ مودِعًا فارعي (فزاره) لا هناكِ المَرْتَعُ
ولقد علمتُ لئن فزاره أُمِرْتُ أن سوف تَطْمَعُ في الإمارة (أشجع)
إن القيامة قد دنتُ أشراطها حتى أُمِيتُ عن فزاره تُنْزَعُ
ثم قال فيه :

أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْتَ وَال شفيقُ لست بالطَّبعِ الحَرِيسُ^(٢)
أَطْعَمْتَ الْعِرَاقَ وَرَافِدِيَهُ فزاريًا أَحَدُ يَدِ الْقَمِيصِ^(٣)
وَلَمْ يَكْ قَبْلَهَا رَاعِي مَخَاضٍ لِيَأْمَنَهُ عَلَى وَرَكِّي قُلُوصُ
تَفِيهَقَ بِالْعِرَاقِ أَبُو الْمُثَنَّى وَعَلَّمَ قَوْمَهُ أَكْلَ الْخَبِيصِ^(٤)

(١) عتيد مصغر متروك (يفتح العين) وهو الحولى من المزر . حفير زياد موضع بين البصرة ومكة . الوهاد جمع وهدة (يفتح فسكون) وهي الأرض المنخفضة .

(٢) الطبع الشديد الطمع .

(٣) رافدهاء دجلة والفرات . أحد يد القميص ، لم يرد القميص إنما أراد يده . أي لمن تظمت يده في الحد .

(٤) أبو المثنى كنية يكنى بها المخنثون من الرجال . الخبيص لون من الطعام يصنع من الثمر والسمن . تفيهق في كلامه تنطع وتشدق كأنه يملأ فمه به .

سَتَحِمِلُهُ الدَّيْنَةُ عَنْ قَلِيلٍ عَلَى سَيْسَاءٍ ذِغْلِيَةٍ قَمُوصٍ^(١)

وقال حين ولي خالد القسري ، مشيراً إلى هدمه منائر المساجد ، وكان قد هدمها لصعود الناس إليها ينظرون إلى الجيران :

أَلَا قَطَعَ الرَّحْمَنُ ظَهَرَ مَطِيَّةٍ أَتَتْنَا تَمَطَّى مِنْ دَمَشَقٍ بِخَالِدٍ
وَكَيْفَ يَوْمَ الْمَسْلَمِينَ وَأُمُّهُ تَدِينُ بَأَنِ اللَّهِ لَيْسَ بِوَاحِدٍ^(٢)
بَنَى بَيْعَةً فِيهَا الصَّلِيبُ لَأَمِهِ وَهَدَمَ مِنْ كُفْرٍ مَنَارَ الْمَسَاجِدِ

وقال فيه حين حفر النهر الذي سماه المبارك :

أَهْلَكْتَ مَالَ اللَّهِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ عَلَى نَهْرِكَ الْمَشْثُومِ غَيْرَ الْمُبَارَكِ
وَتَضْرِبُ أَقْوَاماً صِحَاحاً ظُهُورُهَا وَتَتْرِكُ حَقَّ اللَّهِ فِي ظَهْرِ مَالِكٍ^(٣)
أَلْإِنْفَاقَ مَالِ اللَّهِ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ وَمَنْعاً لِحَقِّ الْمُرِمَلَاتِ الصَّوَانِكِ

وقال متشفيًا في جلده ، حين غضب عليه سليمان بن عبد الملك ، فأمر به أن يجلد ، وذلك لجلده رأس الحَجَّبة - وكان قرشياً - فأخذت سليمان الحمية له ، وغضب حتى همَّ بقطع يده ، لولا شفاعة يزيد بن المهلب فيه :

(١) الدَّيْنَةُ الغُلُّ الخسيس . السَيْسَاءُ منظم فقار الظهر من الفرس والحصار . القموص الدابة التي تَقْمِصُ بصاحبها ، وذلك بأن ترفع يديها وتطرحهما وتضع برجليها . اللطبة النافعة السريعة . يقصد بذلك أن دناءته ستحمله على مركب صعب .

(٢) كانت أمه نصرانية .

(٣) يقصد مالك بن المنذر بن الجارود . وكان أحد الناس قد أدمى عليه قرية ، فأبطل خالد حقه . يقول له : تماثب البريء ، وتحمي الظالم .

لعمرى لقد صابت على ظهر خالد شأيب ما استهلن من سبل القطر^(١)
 أتضرب في العصيان ترع من عصا وتعصي أمير المؤمنين أبا قسر؟
 وأنت ابن نصرانية طال بظرفها غدتك بأولاد الخنازير والخمر
 فلولاً يزيد بن المهلب حلقت بكفيك فتخاء إلى الفتخ في الوكر^(٢)
 لعمرى لقد سار ابن شيبه سيرة أرتك نجوم الليل ظاهرة تجري^(٣)
 فخذ بيديك الحنف إنك إنما جزيت قصاصاً بالحد رجة السمر^(٤)
 أظنك مفجوعاً برُبْع منافقٍ تلبس أثواب الحيانة والغدر^(٥)

وقال فيه :

سلوا خالداً لا أكرم الله خالداً متى وليت قسر قريشاً تدنيها
 أقبل رسول الله أم بعد عهده فتلك قريش قد أغت سمينها
 رجونا هداه لا هدى الله خالداً فما أمه بالأم يهدى جنيها

(١) الشأيب الدلعات من الطر ينهل مرة بعد مرة ، وشؤبوا بعد شؤبوب . انهل الطر واستهل اشتد انصبابه . اسبل الطر انهل . والسبل الطر المسبل

(٢) الفتخاء اللينة الجناح والفتخ فراخها . يقول له لولا شفاعة يزيد لقطع الخليفة يديك لتخطفتها المقبان طعم بهما صفارها .

(٣) ابن شيبه هو الحبحي الذي ضربه خالد مائة سوط لانه لم يفتح له الباب وتفاضل .

(٤) المخرجة الفتولة . ويقصد بالمخرجة السر السياط .

(٥) ربع منافق يعني يده وكأنها ربع جسده لان للانسان يدين ورجلين ، لاذا قطعت منها يد فقد ربع اطرافه .

وبلغ من جرأة الفرزدق على الولاة ، أنه دخل على بلال بن أبي بردة ،
فأنشده قصيدته التي يقول فيها :

فإن أبا موسى خليل محمد وكفاه يُمنّي للهدى وشهاها

فقال ابن أبي بردة : هلكت والله يا أبا فراس . فارتاع الفرزدق وقال :
وكيف ذلك ؟ قال ذهب شعرك . أين مثلُ قولك في سعيد وفي العباس بن
الوليد . - وسمى قوماً - فقال الفرزدق : جثني بحسب مثل أحسابهم حتى
أقول فيك كقولني فيهم . فغضب بلال حتى دُعي له بطست فيه ماء بارد ، فوضع
يده فيها حتى سكن . ثم كلمه فيه جلساؤه وقالوا : قد كفأك الشيخ نفسه ، وقلما
يبقى حتى يموت . فلم يحمل الحول على الفرزدق حتى مات (١) .

ولكن هذا الغرور الجنوني والكبرياء الجامحة ، كان يقابلها ضعف شديد
عن احتمال المكاره والصمود للكفاح . ففقد الفرزدق حياته خائفاً ، وكان
شعره مزاجاً من هذين المرضين الخطيرين : شعور بالعظمة وشعور بالرهبة
والخوف . وخير ما يمثل هذا اللون من الشعر ، الذي هو مزاج من الشعور
بالرهبة والشعور بالعظمة ، قوله وهو في سجن خالد القسري ، يتوصل إلى هشام
أن يطلقه ويأمر بالعفو عنه :

دعوتُ أمينَ الله في الأرض دعوةً ليفرج عن ساقِي خيرَ الخلائف
فيا خيرَ أهل الأرض إنك لو ترى بساقِي آثار القيودِ النواصف (٢)
إذا لرجوتُ العفوَ منك ورحمةً وعدلَ إمامٍ بالريسة رائف

(١) الأمامي ١٩ : ٣٥

(٢) النواصف التي قد نسفت الجلد والشعر .

فإن أكَ محبوساً بغير جريرة
وما سَجَنُونِي غيرَ آتِي ابنُ غالب
وأني الذي كانت تُعدُّ لثغرها
ولإني لأعداءُ الخنادفِ مدرةُ
لجامُ شجَى بين اللهاتين من يقع
وإن غبتُ كانوا بين راوٍ ومُحتَبٍ
وبالألمس ما قد حاذروا وقعَ صولتي
وقد علم المَقرونُ بي أن رأسه
أرى شعراءَ الناسِ - غيري - كأنهم
ولو كنتُ أخشى خالداً أن يزوعني
كما طرتُ من مصريّ زيادٍ وإنه
وما كنتُ أخشى أن أرى في مخيسٍ

فقد أخذوني آمناً غيرَ خائف
وأني من الأثرين غيرَ الزعانف^(١)
تميمٌ لأبيات العدو المقاذف
بذَحَلٍ غنيٌ بالنواب كالفِ
له في فم يركبُ سبيل المَلتالفِ
وبين مُغيبٍ قلبه بالشَنائف^(٢)
فصَيَّفَ عنها كلُّ باغٍ وقاذف^(٣)
سيذهب أو يُرَمَى به في النَفائف^(٤)
بمكة قُطَّانُ الحمام الأوالف
لَطِرتُ بوافٍ ريشه غيرَ جادف^(٥)
لَتَصْرِفُ لي أنيابه بالملتالفِ
قصير الخطأ أمشي كشي الرواسف^(٦)

(١) الأثرين جمع الأثرى وهو الكثير العدد . أصل الزعانف اجنحة السمك ثم اطلقت على الدهى اللصق الذي ليس بصريح النسب .

(٢) الضمير في (كانوا) لأعداء الخنادف . وإن غبت كانوا بين راو لهجائي أو محتب يسمع ما هجيت به أو مفسر للشعراء . والشنائف البغضاء ، والفعل شنف له (كفرح) وشنفه .

(٣) صيف وصف أي عدل عنها .

(٤) التنف الجبل القائم كأنه الحائط . أو هو المهوى بين جبلين .

(٥) جدفة قطعه . وجدف الطائر طار وهو مقصوص الجناحين .

(٦) التخيس التدليل ، والمخيس (بكسر الهمزة وفتحها) السجى لأنه يدل ، أو لانه موضع

أبيت تطوف الزُّطَّ حولي يُجْلُجُلْ عليَّ رقيبٌ منهم كالمُحَالِفِ^(١)

وقد كان الفرزدق لا يدعى إلى وال أو أمير إلا خاف وتوقع الشر . عبث به رجلان فقالا له : أجب ! الأمير يدعوك - وهما يلعبان معه - فهرب وترك رداءه معهما . ثم قال فيهما :

وما كنتُ لو فرقتاني كلا كما بأَمِكما عريانتين لأفرقا
ولكنما فرقتاني بضِغَمٍ إذا ما رأى قرناً أبناً ودقدا^(٢)

وكان خوفه الشديد يلجئه في كثير من الأحيان إلى التقرب من الشرط فيمدحهم بشعر غث ضعيف استجلاباً لرضام^(٣) وهو بعد هذا كثير ذكر الخوف في شعره . وخير ما يتصوره في ممدوحيه من الفضائل ونبيل الصفات ، أنهم يؤمنون الخائفين . ولم تكن مِدْحَةٌ من مدامحه تخلو من طلب الأمان أو الحماية .

يقول لبشر من قصيدة يمدحه فيها :

لو أنني كنتُ ذا نفسين إن هلكت إحداهما كانت الأخرى لمن غربا^(٤)
إذا لجئتُ على ما كان من وَجَلٍ وما وجدتُ حذاراً يغلب القدرا
كلُّ امرئٍ آمنٍ للخوفِ أَمْنُهُ بِشْرُ بن مروان والمذعورُ من ذَعْرَا

(١) الزط قوم من السند كانوا بالبرمة جلاوذة (جمع جلواز وهو الشرطي) وحراس سجن الجبل الجرس الصغير والجلطة التحريك وشدة الصوت .
(٢) بن بالكان وأبن أقام . دقدا سمع له صوت وجلبه .

(٣) الديوان ص ٦٦٠ و ٨٧٦ .

(٤) غير هنا بمعنى بقي . وهي من الأضداد .

ويقول في مدح العباس بن الوليد بن عبد الملك :

وكم من كريم يشتكي ضعفَ عظمه أقمته له ما يشتكي بالسقائف^(١)
وآمنته مما يخاف اذا أوى اليك فأمسى آمناً غيرَ خائف

ويقول في مدح سليمان بن عبد الملك :

سليمانُ غيثُ الممحِلينَ وَمَن به عن البائس المسكين حُلَّتْ سلاسله

ويقول في مدح يزيد بن عبد الملك :

ولا جارَ بعد الله خيرٌ من الذي وضعتُ إلى أبوابه رَحْلَ خائف
إلى خيرِ جارٍ مُستَجارٍ بحبله وأوفاهُ حبلاً للطريد المُشارِف^(٢)
على هوة الموت التي إن تقاذفت به قذفته في بعيد النفاق
ويمدح المهلب فيقول :
كان المهلبُ للعراق وقايةً وحيا الربيعِ وَمَعْقِلَ الفُرارِ^(٣)

ويمدح الوليد بن يزيد بن عبد الملك بقوله :

من يات رايّة الوليد ودِفْئُها من خائف لجريرةٍ لا يُضرَرِ

ويمدح أسد بن عبد الله القسري لإنقاذه من سجن خالد فيقول :

رمى بي إليه الخوفُ حتى أتيتُه وقد يَمْنَعُ الحامي إذا ما تَمَنَعَا

(١) السقائف الجوائر التي يوضع فيها الغزو المكسور .

(٢) المشارف الذي اشرف على الهلاك .

(٣) الحيا هو المطر .

به حطم الله القيودَ وأومنتُ مخافةُ نفسٍ طومنتُ أن تَفَزَّعا
فما ينجي لا أخش العدو ولا أزلُ على الناس أعلو من ذرى الجحد مفرعا

وشعر الفرزدق الذي صور فيه خوفه وحاله في السجن من أروع الشعر
وأجمله . يقول للوليد بن عبد الملك معسوراً خوفه من الحجاج :

وقد خفتُ حتى لو أرى الموتَ مُقبِلاً ليأخذني - والموتُ يكرهُ زائرُهُ -
لكان من الحجاج أهونَ روعةً إذا هو أغضى وهو سامٍ نواظرُهُ
أدبٌ ودوني سِرٌّ شهرٍ كأنني أراكَ وليلٌ مستحيرٌ عساكرُهُ^(١)
ذكرتُ الذي بيني وبينك بعدما رمى بي من نجدٍ تهامة غائرُهُ
فأيقنتُ أني إن نأيتُك لم يَرِدْ بي النأيُ إلا كلَّ شيءٍ أحاذرُهُ
وأن لو ركبْتُ الريحَ ثم طلبتَنِي لكنْتُ كشيءٍ أدرَكْتُهُ مقادرُهُ
فلم أَرَ شيئاً غيرَ إقبالٍ ناقتي إليك وأمرِي قد تَعَيَّتْ مصادره^(٢)
أخاف من الحجاج سَوْرَةَ مُخْدِرٍ ضواربَ بالأعناق منه خوادِرُهُ

ويقول معسوراً رهبة الحجاج في نفوس الناس :

إذا ما بدا الحجاجُ للناس أطرقوا وأُسكِتَ منهم كلُّ من كان ينطق

(١) عساكره ظلمته . واستحارها بئونها .

(٢) يدل هذا البيت على أن الفرزدق رحل للوليد . وهو يعارض ما ورد في رائيته التي مدح بها أخاه سليمان بن عبد الملك من بعد ، فزعم فيها أنه أول خليفة أموي يرحل إليه (ص ٢٤١ بالديوان) . ويبدو أنه اعتبر نفسه مكرها في رحلته هذه . فهو لم يرحل إليه وأهبا فيه ، ولكنه رحل إليه طالبا للأمان حين لم يكن من الرحيل بد .

فما هو إلا بائِلٌ من غُفَاةٍ وآخر منهم ظِلٌّ بالريقِ يَشْرِقُ
وطارت قلوبُ الناسِ شرقاً ومغرباً فما الناسُ إلا مُهْجِسٌ أو مُلْقَلِقٌ^(١)
ويقول مالك بن المُنْذِرِ بن الجارود مصوراً حاله في سجن خالد ، متبرئاً
من هجائه :

وَإِذَا حُجِلْتُ إِلَى الصَّلَاةِ كَأَنِّي عِبَاءٌ يَمِيلُ بَعْدِلِهِ الْمَعْدُولُ
يَمْشِي الرِّجَالُ بِهِ عَلَى أَيْدِيهِمْ اللَّهُ دَرُّ مَقْيَدٍ مَحْمُولُ
إِنَّ الْقَرَى سُجِنَتْ مَعِيَ نِيرَانُهُ عَنْ كُلِّ نَازِلٍ جَنْبَةٍ وَدَخِيلٍ^(٢)
قَدْ كُنْتُ أَطْعِمُهُنَّ كُلَّ سَمِينَةٍ لِلطَّارِقِينَ بِأَسْرَعِ التَّعْجِيلِ
يَا مَالِ هَلْ لَكَ فِي أَسِيرٍ قَدْ أَتَتْ تَسْعُونَ فَوْقَ يَدَيْهِ غَيْرُ قَلِيلٍ^(٣)
فَتَجَزَّ نَاصِيَتِي وَتَفَرُّجَ كُرْبَتِي عَنِّي وَتَطْلُقَ لِي يَدَاكَ كُبُولِي^(٤)
يَا مَالِ هَلْ أَنَا مُهْلِكِي مَالِمْ أَقْلُ وَلْيُعْرِقَنَّ مِنَ الْقَصَائِدِ قَيْلِي
ويقول له من قصيدة يمدحه بها :

وَكَيْفَ بَيْنَ خَمْسُونَ قِيداً وَحُلُقَةً عَلَيْهِ مَعَ اللَّيْلِ الَّذِي هُوَ أَدْمُ
أَبَيْتَ أَقَاسِي اللَّيْلِ وَالْقَوْمُ مِنْهُمْ مَعِيَ سَاهَرٌ لِي لَا يَنَامُ وَنَوْمُ

(١) الهجس الصوت الخفي تسمعه ولا تفهمه . اللقطة اضطراب الصوت .

(٢) نازل الجنبه الضيف الذي ينزل في ناحية من البيت . والدخيل الضيف الذي ينزل داخل البيت .

(٣) يا مال يخاطب مالك بن الجارود . مال ترخيم مالك . تسمون يعني تسمين قيدا .

(٤) يطلب منه الفرزدق أن يقص شعر رأسه ويطلقه . وجز الناصية عند العرب فيه معنى

الاذلال . وكذلك كانوا يفعلون بأسراهم إذا منوا عليهم باطلاقتهم .

ولو أنها صُمُ الجبال تحمَّلتْ كما حملتْ رجلاي كادتْ تحطِّمُ
 ..وعلمني مشيَّ القيِّدِ خالدُ وما كنتُ أدُنِّي خطوهُ أتعلِّمُ
 أقول لرجليَّ اللتين عليهما عُرى وحديدٌ يجبِّسُ الخطوَّ أبهم
 أما في بني الجارود من رائحٍ لنا كما راح دُفَاعُ الفرات المثلَّم
 ويقول أيضاً مصوراً حاله في سجن خالد ، متبرئاً من هجائه ، حين احتفر
 النهر الذي سماه (المبارك) من قصيدة يمدحه بها :

ألا تذكرون الرحمَّ أو تُقرِّضونني لكم خُلُقاً من واسع الحلم ماجد
 يقول لي الحدَّادُ هل أنت قائم وهل أنا إلا مثلُ آخرَ قاعدٍ^(١)
 كإني حرُّوريُّ له فوق كعبه ثلاثون قيداً من قُرُوصٍ مُلاكِدٍ^(٢)
 وراوٍ عليَّ الشعرَ ما أنا قلته كعترِضٍ في الرمح دون الطرائدِ^(٣)
 ويقول من قصيدة يمدح بها هشام بن عبد الملك :

إذا قلتُ للحراس هل ليلتي دنتُ من الصبح أو كانتْ جنوحاً نجومها
 يقولون ما يَنزلن إلا تَنَزُّلاً بطيئاً ومسوداً علينا أديمها
 فليت مكان الأربعين التي لها بساقيَّ آثارُ مبينٍ وشومها

(١) الحداد السجان لانه يحد الناس ، والحد المنع .

(٢) الحرورية الخوارج . قروص قيد يقرص ويبيض في الرجل . الملاكد اللازم .

(٣) الطرائد جمع طريدة وهي ما طردت من وحش أو غيره . شبه نفسه بالذي يمترض دون الطريدة فيصاب بالرمح خطأ وليس هو بالمقصود .

أَخَا نَجْدَةٍ عِنْدِي أَخُوهُ فَجَعْتُهُ بِهِ وَالْمَنَآيَا جَانِبَاتُ حُتُومِهَا
فَنَازَلْنِي بِالسَّيْفِ عَنْهُ وَدُونَهُ
مَعَ السَّيْفِ خَضْبُ الْأَرْضِ بَادٍ شَكِيمُهَا^(١)

كان الفرزدق أعرابياً جافياً غليظ الطبع . وتبدو هذه الغلظة وهذا الجفاء في فنه وفي حياته على السواء . أما فنه فالحشونة بادية في ألفاظه وفي صورته . فالكلمات تبدو في شعره قلقة متنافرة ، وكأنه يمحما بقوة واقتداره ، شامت أو لم تشأ . فهو يؤلف بينها متمصفاً ، وكأنه ينحت من صخر كما كان يقول النقاد القدماء في تصويره . وقد كان يقول : أنا أشعر الشعراء ، وقد يأتي على وقت وقلع ضرر أهون عليّ من بيت شعر . وذلك صحيح . ولكننا نضيف إليه أن الشعراء يدعون الإنشاء في مثل هذه الأوقات ، حتى تصفو نفوسهم وتسخو قرائحهم . وهم يعملون الرغبة في قول الشعر هي الذريعة إلى إنشائه ، كما كان يقول أبو تمام في وصيته للبحرّي . أما الفرزدق ، فقد كان يمضي مكابراً ويمحتلب الشعر من غير وجه ، فيبدو وكأنه يقتلعه من نفسه اقتلاعاً ، أو كأنه يقطع أضراره على حد تصويره . ولذلك كثرت المعاطلة في شعره . انظر إلى تراكب الألفاظ في مثل قوله حين يتبرأ مما نسب إليه في هجاء المبارك :

فَلَا رَفَعْتَ إِنْ كُنْتُ قُلْتُ الَّتِي رَوَا عَلِيٌّ رِدَائِي حِينَ أَلْبَسَهُ يَدَيَّ
يُرِيدُ أَنْ يَقُولَ : فَلَا رَفَعْتَ يَدَيَّ رِدَائِي حِينَ أَلْبَسَهُ إِنْ كُنْتُ قُلْتُ الَّتِي رَوَا عَلِيٌّ .

(١) الحنوم جمع حتم (يفتح الحاء وسكون التاء) وهو القضاء . الجانب : الذي لا ينقاد والغريب . وجانبه مثنى إلى جنبه . الخضب (بكسر الغاء وسكون الفاء) نوع من الحيات أو ذكرها الضخم . الشكيم الأنفة والمقصود هنا الثراسة . يقول ليت لي مكان هذه القيود فأولسا بنازلني نائراً لأخيه الذي قتلته ففجعت به ، بنازلني بسيفه ، ومن دونه حية ضخمة أبسلت ثراستها .

وفي قوله يمدح يزيد بن عبد الملك :

فلا أُمَّ إلا أُمَّ عيسى علمتها كأُمِّك خيراً أمهاتٍ وأمجداً^(١)

وفي قوله يمدح عمر بن الوليد بن عبد الملك :

إلى ابن الإمامين اللذين أبوهما إمامٌ له لولا النبوة يُسجد

وفي قوله يمدح أيوب بن سليمان بن عبد الملك :

تجاوزت عنهم فضلَ حلمٍ كما عفا بمسكنَ والهنديُّ تعلو ذكورها

أبوك جنوداً بعد ما مرَّ مصعبٌ تفلَّدَ عنه وهو يدعو كثيرها

وانظر إلى الارتباك الذي يبدو في رثائه لمحمد بن يوسف ومحمد بن الحجاج بن

يوسف ، وقد ماتا في جمعة واحدة ، على ما في الأبيات من تضمين قبيح :

لئن صبرَ الحجاجُ ما من مصيبة تكون لمرزوءٍ أجلٌّ وأوجعا

من المصطفى والمصطفى، من ثقاته خليليه ، إذ باناً جميعاً فودعاً^(٢)

.. فلا صبر إلا دونَ صبرٍ على الذي رزئتَ على يومٍ من البأس أشنعاً

على ابنك وابن الأمِّ إذ أدركتهما الـ منايا وقد أفنيت عاداً وتبعاً

وإلى قوله في هجاء الطرماح بن حكيم الطائي :

وما طيءُ إلا بجوسٍ كأنهم بهائم تعلو الأمهاتِ فحوها

وما تلکمُ إلا بجوسٍ نساؤها بناتهم آباؤهن بُعوا^(٣)

(١) يقصد بأم عيسى سيدتنا مريم رضي الله عنها .

(٢) يقصد بالمصطفى والمصطفى ابنه وأخاه .

(٣) يتهمهم بأنهم مجوس يتزوجون أمهاتهم وبناتهم .

وانظر إلى كثرة الضمائر وتراكبها واضطرابها في قوله يهجو عمر بن هُبَيْرَة :

ولكن أبوها من لؤى بن غالب مَنَافُ لَهُ مِنْهَا مِنَ الْمَجْدِ كَاهِلُهُ
ملوكٌ وأبناء الملوك أَتَتْهُمْ من الله بالفُرْقَانِ مِنْهُ رَسَائِلُهُ

وانظر إلى الالتواء المتعب ، الذي يحمل شعره أقرب للأحاجي والألفاظ في قوله يمدح جميل بن 'حمران الفزاري :

أنت ابنُ أمِ أُمْرِي، تُنَمِّي إِذَا نُسِبَتْ حيث انتمت بأبيها بنتُ حسانا
نالت به الشمسَ لو كادتُ تناوُلُها بالجد إن كان مجدُ عندها كانا

لم يوهب الفرزدق ما وهب جرير من سلامة في الذوق ، وامتياز في الحس اللفظي ، فالفاظه كالصخر دائما ، ولذلك كان أكثر ما يصادفه التوفيق إذا افتخر . انظر إلى قوله في قصيدته المشهورة (عَزَفْتَ بِأَعْيَاشٍ) حين يصور كرم قومه وقت الجذب ، كيف يصف العواصف العاتية ، فيخيل إلى السامع أن العالم قد أوشك على نهائيه ، وإن الأرض قد زلزلت زلزالاتها ، وأخرجت أثقالها . فالسما قد اغبرت أفاقها ، والرياح الحمراء تهجم على البيوت في عنف فتتكشف ستورها . وذعرت النوق الضخمة التي امتلأ سنامها بالشحم ، فاندفعت تلعبها صفارها ، تقطع في طريقها الجبال التي شدت إليها البيوت . وشغل عنها راعيها في هذا البرد القارس ، فهو يباشر النار بصدره وبكفيه ، لا يتحرف عنها ، ولا يحس لذعها وحرارتها . وظهر نجم الشيمري في السماء ، ينذر بشتاء شديد ، وجذب يتقشر منه وجه الأرض . وأخذت الثلوج تتساقط على أسنمة الإبل ، تعلموها كأنها قطن مندوف . وأجد البرد الكلاب ، فاندفعت إلى النار تقاتل عنها أصعابها لتربض فيها . فإذا انتهى الفرزدق من هذا التصوير الرائع لشدة البرد ، وقسوة الجذب ، قال : في مثل هذه الأزمات ، تجدنا أكره الناس وأكثرهم بذلاً للضيغان :

إِذَا اغْبَرَ آفَاقُ السَّمَاءِ وَكُشِفَتْ
 وَهَتَكَتِ الْإِطْنَابَ كُلَّ عَظِيمَةٍ
 وَجَاءَ قَرِيعُ الشَّوْلِ قَبْلَ إِفَالِهَا
 وَبَاشَرَ رَاعِيَهَا الصَّلَا بَلْبَانَهُ
 وَأَوْقَدَتِ الشَّعْرَى مَعَ اللَّيْلِ نَارَهَا
 وَأَصْبَحَ مَوْضِعُ الصَّقِيعِ كَانَهُ
 وَقَاتَلَ كَلْبُ الْحَيِّ عَنْ نَارِ أَهْلِهِ
 وَجَدَتِ الثَّرَى فِينَا إِذَا بَيْسَ الثَّرَى
 كُسُورَ بُيُوتِ الْحَيِّ حَمْرًا حَرْجَفَ^(١)
 لَهَا تَامِكٌ مِنْ صَادِقِ النَّيِّ أَعْرَفَ^(٢)
 يَزِفٌ وَرَاحَتٌ خَلْفَهُ وَهِيَ زُقْفَ^(٣)
 وَكَفَّهِ حَرَّ النَّارِ مَا يَتَحَرَّفَ^(٤)
 وَأَمَسَتْ مُحُولًا جِلْدُهَا يَتَوَسَّفَ^(٥)
 عَلَى سَرَواتِ النَّيْبِ قَطْنٌ مُنْدَفَ^(٦)
 لَيْرِبُضَ فِيهَا وَالصَّلَا مُتَكَنَّفَ^(٧)
 وَمَنْ هُوَ يَرْجُو فَضْلَهُ الْمُتَضَيِّفَ^(٨)

- (١) آفاق السماء جوانبها . الكسور جمع كسر (بكر فسكون) وهو ما وقع على الأرض من الغباء . الحرجف الريح الشديدة .
- (٢) الإطناب الجبال التي يشد بها الغباء . التامك السنام العظيم ، التي الشحم .
- أعرف مرتفع .
- (٣) القرع فعل الإبل . الشول الإبل التي جفت البانها . إفالها صفارها . يزف يمدو صرعا .
- (٤) الصلا (بكر الصاد) النار . اللبان الصدر . يتحرف ينحرف من النار ويحيد .
- (٥) الشعري نجم يطلع في أول الشتاء . وأمست يعني الأرض . محولا من الحل (يفتح فسكون) وهو الجذب . يتوسف يتقشر من الجفاف وقلة المطر .
- (٦) سروات النيب استمتها . النيب مسان الإبل .
- (٧) الصلا متكنف اجتمع عليه الناس وقعدوا حوله .
- (٨) الفرزق متأثر في بعض صوره ومعانيه بطريقة حيث يقول :

أَنَا إِذَا مَا الْفَجِيمِ أَمْسَى كَانَهُ
 وَجَاءَتْ بِصَرَادٍ كَأَنَّ صَقِيمَهُ
 وَجَاءَ قَرِيعُ الشَّوْلِ يَرْقُصُ قَبْلَهَا
 نَرْدُ الْعُشَارِ الْمُتَقَاتِلِ شَطِيطَهَا
 بَيْتِ أَمَاءِ الْحَيِّ تَطْهَى قُدُورُنَا
 سَمَاجِيقُ ثَرْبٍ وَهِيَ حَمْرَاءُ حَرْجَفَ
 خِلَالِ الْبُيُوتِ وَالْمَنَازِلِ كَرْسَفَ
 مِنَ الدَّفْعِ وَالرَّاعِي لَهَا مُتَحَرَّفَ
 إِلَى الْحَيِّ حَتَّى يَمْرَعَ التَّمْصِيفَ
 وَيَأْوِي إِلَيْنَا الْأَشْمَتِ الْمُتَجَرَّفَ

هذا التوفيق المعجيب الذي يصادف الفرزدق في الفخر ، وفي تصوير مناظر الصحراء ، وحياة البدو ، يجافيه وينحرف عنه ، حين يتغزل أو يرثي أو يعرض لما يحتاج إلى الرقة من فنون الشعر . انظر إلى جفاء غزله ، حين يطلب إلى صاحبه أن تديه لأنها قد قتلت . فإن لم تفعل قتلها بالسيف .

فلم أرَ مقتولاً ولم أرَ قاتلاً بغير سلاحٍ مثلها حين أقصدا
فإن لا تُقادي أو تديه فلا أرى لها طالباً إلا الحسامَ المهندا
وحين يهددها بالتخليد في جهنم ، لأنها تسفك دمه بغير جريرة .

يا ويح أختِ بني كنانة إنها لبخيلة بشفاء من لم يحرم
فلئن سفكتِ دماً بغير جريمة لتُخلَّدنَّ مع العذاب الألام
ولئن حملتِ دمي عليكِ لتَحْمِلنَّ ثِقلاً يكونُ عليكِ مثل يَلَمَّ^(١)

وإلى سوء اختياره للألفاظ ، مع تراكب العبارات ، في قوله يرثي الحجاج :

فلم أرَ يوماً كان أنكى رزيةً وأكثرَ لطمًا للعيون الذَّوَارِفِ
من اليوم للحجاج لما غدَّوا به وقد كان يحمي مُضْلِعَاتِ المكالِفِ

فاختياره لكلمة (لطمًا) هنا ، على ما فيها من ثقل ، غير موفق . وسوء اختيار الفرزدق للكلمات ، وبلادة حسه اللفظي ، واضح في اختياره لأسماء أولاده ، فقد سمى أحدهم خَبْطَةَ ، وسمى الثاني سَبْطَةَ ، وسمى الثالث لَبْطَةَ . ولو أن الأسماء كانت شيئاً يُشْتَرَى ، لقد كان له عن هذه الأسماء مندوحة .

(١) يللم جبل .

ولو أن عدواً لهم أراد أن يلقبهم بأثقل الألقاب ، ما اختار غير الأسماء التي
سمّاهم بها أبوم .

وانظر إلى خشونة التصوير ؛ حين يشبّه صاحبه لفرط حياثها بن ألح عليه
النفز ، أو أنهكه السل .

يُشَبَّهْنَ مِنْ فَرَطِ الْحَيَاءِ كَانَهَا مِرَاضُ سُلالٍ أَوْ هَوَالِكُ نَزْفٍ
وحين يتمنى لها ولنفسه أن يكونا بعيرين أجربين ، يخاف الناس عدواهما
فيكونها منفردين ، ليعيشا في عزلة سعيدين :

فَمَا لَيْتَنَا كُنَّا بَعِيرَيْنِ لَا نَرِذُ عَلَى مَنْهَلٍ إِلَّا نُشَلُّ وَنُقَذَفُ
كَلَانَا بِهِ عَرٌّ يَخَافُ قِرَافِهِ عَلَى النَّاسِ مَطْلِي الْمَسَايِرِ أَخْشَفُ^(١)
وانظر بشاعة تصويره لكرم العباس بن الوليد بن عبد الملك ، حين يقول
إن الندي والجود قد صاحبا ، وقد تحالفوا على إغراق البشر - وهو يقصد
بإغراق البشر إغداق النعم عليهم :

إِنَّ النَّدَى صَاحِبَ الْعَبَّاسِ حَالَفُهُ
وَالْجُودَ . هُمْ أَخُوهُ قَدْ أَغْرَقُوا الْبَشَرَ

(١) المر (بفتح الميم) الجرب ، القراف المخالطة ، السامر اصول الفخدين والابطين
وهو اول ما يصيب الجرب . أخشف يابس الجلد من الجرب . مطلق السامر أي مطلق
بالظفران . ولكتير أبيات شبيهة بهذه حيث يقول :

لَا لَيْتَنَا بِأَمْزَجٍ لِمِزِجَةِ بَعِيرَيْنِ نَرْمِي بِالْخَلَاءِ وَنَعُوبِ
كَلَانَا بِهِ مَرٌّ لَمَنْ يَرْنَا يَقْلُ عَلَى حَسْنَتِهَا جَرِيَاءُ نَعْدَى وَاجْرِبِ
إِذَا مَا وَدَدْنَا مِنْهَا صَاحِ أَهْلِهِ عَلَيْنَا لَمَّا نَنْفَكْ نَرْمِي وَنَعْرِبِ

وانظر إلى خشونة ذوقه ، حين يمدح يزيد بن عبد الملك ؛ فيقول له إنك فعلت ما أعيا أباك :

تناولت ما أعيا ابنَ حربٍ وقبله وأعيا أباك الحازم المتخيراً
وإنما يمدح الخليفة بأنه كريم ابن كرام ، شجاع ابن شجاع .
وانظر إلى جفاء ذوقه ، حين يصور لذع الحمر القوية ، وشدة تأثيرها في الشارب فيقول :

شربنا في بني 'جشم' بن بكر شراباً ليس من سَقَطِ المتاع
شراباً يضِرُّ طِ الباسِرُ منه ويذهب بالُمِلَّةِ والصداق^(١)

وقد كان الفرزدق لجفاء طبعه بعيداً عن التأثر العميق بالإسلام ، لم يدخل الإيمان قلبه ، ولم يرقق طبعه الوحشي اللفظ . فهو يعيش بشعوره وعواطفه في الجاهلية ، يهجم على اللذة متهكماً ، ويفتخر بذلك ، ولا يبالي أن يصم نفسه بالزنا وشرب الخمر ، في بلد إسلامي ، يتحرج فيه الناس من إعلان هذه الآثام الغليظة ، وينكرونها أشد الإنكار . يقول في نديم له اسمه (دَيْكَل) :

شربتُ ونادمتُ الملوكَ فلم أجد على الكأسِ نَدَمًا نالها مثل (دَيْكَل)
أقلَّ مِكَاساً في جَزورٍ سَمِينَةٍ وأسرعَ إنضاجاً وانزالَ مِرْجَلٍ
فقي كرمٍ يهتزُّ للمجد لا ترى نداماهُ الا كلَّ خِرْقٍ مُعَدَّلٍ^(٢)
عشيَّةَ نَسْنَا قَبِيصَةً نعلَه فبات الفتى القَيْسِيُّ غيرَ مُنْعَلٍ

(١) المبللة وجع الظهر . الباسور المرض المعروف وجمعه بواسير .

(٢) الخرق (بكسر الخاء) الجواد . ملل يلام على اسرافه وتبذيره .

ويقول في هجاء جرير :

إن تك كلباً من كليب فإني من الدارميين الطوال الشقاشق^(١)
نَظَلُّ ندامى للملوك وأتم تمشون بالأرباق ميلَ العواتق^(٢)
وإنا لتجري الخمر بين سراتنا وبين أبي قابوس فوق النارق
لأن غدوة حتى تروح وتأججه علينا وذاك المسك فوق المفارق

ويذهب مذهب الفتاك المتعمرين من شعراء الجاهلية ، أمثال الأعشى
وإبراهيم القيس ، فيصف نزوله عند شيخ مسن ، وتظاهره أمامه بالتقوى ، حتى
اطمأن إليه وضيقه ، ثم غلبه على زوجته :

نبئتُ عند الشيخ مُهرأ يبيعه من آل الحرُون لم تُقَطَّعْ أباجله
فلما أتيتُ الشيخَ يرْجف رأسه وَتَرَعْدُ من بعد المشيب مفاصله
قرأت عليه سورة الكهف واقفاً لياخذَ فيه الحِلْمَ والجَهْلُ شامله
وأطرفتُ إطراقَ الشُّجاعِ وشَمَرَتُ عن الساقِ تشميراً رقيقاً ذلاذله^(٣)
فما زلتُ حتى قال : هل أنت نازلٌ فإنك ممن لا تُخاف غوائله
فلما انبرت للنبي والشيخُ غافل من الحذر تحفياً شخصها وتضائله

(١) الشقشقة لهاة البعير يخرجها عند هيجانه .

(٢) الأرباق المعرى التي تشد إليها البهم . الواحد ربقة (بكسر الراء) . العواتق جمع عاتق وهو ما بين الكتف والعنق .

(٣) الشجاع النعبان . اللذالذ أسافل القميص الطويل ، جمع ذلل (على وزن ههههه) . وقيل أبواب تلبس بعضها فوق بعض ، كل واحد منها أقصر مما تحته ، لتظهر كلها للناظرين .

فقلت أبرق لاح في مدلهمة من الليل أم ريم لطيف أنامله
 فبيت لها في مرصد كنت أدري به الوحش لا يخش علي غوائله^(١)
 ويهجو المهب فيقول إن قومه من الأزد كانوا ملاحين ، فهم نبط لم يعبدوا
 الأصنام في الجاهلية :

فكيف ولم يأتوا بمكة منسكا ولم يعبدوا الأوثان عند المحصب
 ولم يذغ داع يا صباحاً فيركبوا إلى الروع إلا في السفين المضبب^(٢)
 ويكرر ذلك في قصيدة أخرى يهجو به :

وكيف ولم يقد فرساً أبوكم ولم يحمل بنيه إلى الدوار^(٣)
 ولم يعبد يغوث ولم يشاهد لمحير ما تدين ولا يزار
 وما لله تسجد أزد بصرى ولكن يسجدون لكل نار
 ويفتخر بظلمه للناس ، على طريقة الجاهليين ، في مواضع كثيرة من شعره .
 ومن ذلك قوله :

إذا مضر الحمرأ حولي تعطفت علي وقد دق اللجام شكمي^(٤)

(١) دوى الصيد (كضرب) يدريه دريا خنله . وكذلك تدواه (بتشديد الراء) وادواه
 (بتشديد الدال) . وراجع كذلك أبياتا أخرى في الديوان تشبه هذه الأبيات في رائيتها :
 الا من لشوق انت بالليل ذاكره وانسان عين ما يغمض مائره

(٢) يقول انهم لا يعرفون الا ركوب السفن . ولم يركبوا الخيل قط في قتال حين يصبح
 الداعي : يا صباحاً . والتضبيب شدة القبض على الشيء .

(٣) الدوار (على وزن كتان يفتح الدال) فسم كانت تنصبه العرب وتدور حوله . وقد
 تضم الدال . وقد تخفف الواو فلا تشدوكما هي هنا في البيت .

(٤) الشكيم الحديدية المترسة في فم الفرس والتي يتصل بها اللجام من طرفيها . دقه قطعه

أَبَوْا أَنْ أَسُومَ النَّاسَ إِلَّا ظُلَامَةً وَكُنْتُ ابْنَ مِرْغَامِ الْعَدُوِّ ظَلُومٍ
وقوله :

يُخْتَدِفَ قَبْلَ النَّاسِ بَيْتَانِ ، فِيهَا عَدِيدُ الْحَصَى وَالْمَأْثَرَاتُ الْعِظَائِمُ
إِذَا مَا هَبَطْنَا بِلَدَةٍ كَانَ أَهْلُهَا بِهَا وَوُلِدُوا يَظْعَنُ بِهَا كُلُّ جَارِمٍ^(١)
لَنَا الْعِزُّ مَنْ تَحْلِيلَ عَلَيْهِ بِيُوتُنَا يُمْتُ غَرْقًا أَوْ يَحْتَمِلُ أَنْفَ رَاغِمٍ^(٢)

وقد اقترب جفاء الفرزدق بفنكه وفجوره ، فأتى قدرأ ضخمأ من الشعر
المعن في الفحش والفظاظة ومجافاة الذوق في آن معاً . انظر إلى ما يقول هذا
الرجل الغليظ القلب ، في زوجته حذرأ حين ماتت :

يَقُولُونَ زُرُّ حَذْرَاءَ وَالتُّرْبُ دُونَهَا وَكَيْفَ بِشِيءٍ وَصَلُهُ قَدْ تَقَطَّعَا
وَلَسْتُ وَإِنْ عَزَّتْ عَلَيَّ بَزَائِرُ تَرَابًا عَلَى مَرْسُومَةٍ قَدْ تَضَعُّعَا
وَأَهْوَنُ مَفْقُودٍ إِذَا الْمَوْتُ نَالَهُ عَلَى الْمَرءِ مِنْ أَصْحَابِهِ مَنْ تَقَنَّا
وَأَهْوَنُ رُزْءٍ لِمَرِيٍّ غَيْرِ عَاجِزٍ رِزْيَةٌ مُرْتَجٍ الرُّوَادِفُ أَفْرَعَا

وانظر إلى ما يقول هذا الرجل الفظ المفحش ، في رثاء جارية كانت قد
حلت منه ، ثم لم تلبث أن ماتت :

وَعِثْدِ سِلَاحٍ قَدَرِزْتُ فَلَمْ أُنْجِ عَلَيْهِ وَلَمْ أَبْعَثْ عَلَيْهِ الْبَوَاكِيا

(١) الظن الرحيل . الجارم الذي ارتكب جرماً . ويقصد به هنا الشديد الجرم على
الناس .

(٢) الرغام التراب . وارغمه الصقه بالتراب أي اذله . يحتمل انف داهم يعني يمشي ذليلاً

وفي جوفه من دارم ذو حفيظةٍ لو أنَّ الليالي أنساته لياليا
ولكن رأيتُ الدهر يعثرُ بالفتى ولا يستطيع ردَّ ما كان جاثيا
وكم مثله في مثلها قد وضعته وقد كنتُ وثاباً أُجرُّ الدواھيا
ولكن وقاني ذو الجلال بقُدرةٍ شُرورَ زواني الناسِ إذ كنتُ زانيا

والفحش شيء أصيل في طبع الفرزدق . فهو ولوع بالتفصيل العاري عن الاحتشام ، وكأنه يجد لذة في استعادة تجاربه ، وجر الناس إلى المشاركة في التمتع بعرضها . يقول من قصيدة يمدح بها هشاماً ، ويختم الغزل فيها بقوله :

مَشِينَ إِلَيَّ لَمْ يُطَمِّثَنَّ قَبْلِي وَهَنَّ أَصْحُ مِنْ بَيِّضِ النِّعَامِ^(١)
فَبِتَّنْ بِجَانِبِي مُصَرَّعَاتٍ وَبَيْتٌ أَفْضُ أَغْلَاقِ الْخَتَامِ

وليس الفحش وحده هو الذي يسترعي النظر في مثل هذا الشعر ، ولكننا نلاحظ فيه أيضاً أنه يذهب فيه مذهب الفتك والهجوم على اللذة .

يمدح يزيد بن عبد الملك ، فيقدم لمدحه بمقدمة طويلة تستغرق ثلاثين بيتاً ، وهي من أفحش الغزل تفصيلاً ، وأكثره إمعاناً في التدقيق العاري المتحلل من كل القيود الخلقية . يبدأها بقوله :

وَأَلْفَةً بَرَدَ الْحِجَالِ احْتَوَيْتَهَا وَقَدْ نَامَ مِنْ يَخْشَى عَلَيْهَا أَصْحَرَا^(٢)

بل هو يحض الناس على الفجور ويدلهم على سبيله في قوله :

(١) الطمّث افتضاض البكارة .

(٢) الديوان ص ٤٢٧ - ٤٣١ .

عليك الدوّ إن بمستواه نساء الجن في البلد الرقاق^(١)
فتنكح ما اشتھت بغير مهر ولا عدوى عليك ولا صدق^(٢)

وبينا نجد جريراً يبكي حين تمر به جنازة وهو يمل بعض شعره ، فيقطع الإملاء وقد أخذته رهبة الموت ، نجد الفرزدق يقول للحسن البصري ، وقد اجتمع به في جنازة فسأله وهو يعظه : ما أعددت لهذا اليوم ؟ فيجيبه : شهادة أن لا إله إلا الله منذ ثمانين سنة . وقد كان يبدو للفرزدق في بعض الأحيان أن يتكلف النكس ، ويحمل نفسه على طريق الصالحين من أهل العبادة ، فيقول في ذلك شيئاً من الشعر . ولكن قارىء هذا الشعر لا يجد فيه أثراً لحشوع أو إيمان ، بل هو يكاد يستغزه للضحك ، وكان فيه شيئاً يشبه التهاون الساخر - وإن كان غير مقصود - يقول يوم لقيه الحسن البصري في الجنازة :

لقد خاب من أولاد دارم من مشى إلى النار مشدود الحناقة أزرقا
إذا جاءني يوم القيامة قائدٌ عنيفٌ وسواقٌ يسوق الفرزدقا
أخافُ وراء القبر إن لم يُعافني أشدَّ من القبر التهاباً وأضيقا
إذا شربوا فيها الصديد رأيتهم يذوبون من حر الصديد تمزقاً

هذا شعر مضحك بقافيته القافية ، وهذه القافات التي يستكثر منها في ثنانيا البيت ، فتجمله كتحققة الدجاج الذي يتهاى للبيض ، وهذه الصورة التي يتخيل فيها الفرزدق ألوان العذاب ، من شد الحناق ، والقائد العنيف ، والسواق الذي

(١) الدو الصحراء. الرقاق (بفتح الراء) الأرض المستوية اللينة التراب ، تحت صلابه.

(٢) المدوى طلبك من الوالي أن يعديك على من ظلمك بأن ينتقم لك منه اسم من أعداء أي نصره وأعانته عليه .

(يسوق الفرزدق) ، إلى آخر هذه الأبيات ، التي تصور رجلاً يتكلف الخشوع ويحمل نفسه عليه حملاً .

وانظر بعد هذا إلى قصيدته التي يحجو فيها إبليس ويبدأها بقوله :

أطعتك يا إبليسُ سبعين حِجَّةً فلما انتهى شيبي وتمَّ تَمَامِي
فررتُ إلى ربي وأيقنتُ أنني مُلَاقٍ لآيَمِ الْمُنُونِ حِمَامِي
فهي أبعد الأشياء عن هجائه . وكأنه كان ينطق فيها بلسانه ، كما قال له
الحسن البصري ، حين ذهب إليه فقال له : إني هجوت إبليس فاسمع . قال : لا
حاجة لنا بما تقول . قال : لتسمعن أو لأخرجن فأقول للناس إن الحسن ينهى
عن هجاء إبليس . قال له الحسن : اسكت فإنك بلسانه تنطق ^(١)

وبعد ، فقد كان الفرزدق هو الشاعر الوحيد الذي استطاع أن يصمد لجرير
من كل معاصريه ، وأن يكيل له بمثل كيده . وهو إن لم يستطع أن يبلغ مبلغه
في هدوء الأعصاب ، وامتلاك النفس ، وذكاء القلب ، فقد استطاع أن يدانيه
من وجوه كثيرة . فمن ذلك براعته في خلق الصور وابتكارها ، والتأدي في
توليدها والكشف عن أجزائها ، حتى تبدو واضحة مشرقة من كل نواحيها .
يقول لجرير معيراً ذلة عمائه وخالاته ، وابتذالهن في رعي الغنم ، ويتهمنن بعبد
من الرعاة اسمه يسار :

كَمْ عَمَّةٍ لَكَ يَا جَرِيرُ وَخَالَةٍ فَدَعَاءٌ قَدْ حَلَبَتْ عَلَيَّ عِشَارِي ^(٢)

(١) الأغاني ١٩ : ١٤ والديوان ص ٧٧٠

(٢) الفدع خروج مفصل الإبهام مع ميل في القدم قليل ، يعبره بأنها رامية . مشار
جمع مشراء (بضم ثم فتح) وهي الناقة التي مضى لحملها عشرة أشهر أو ثمانية .

كَمَا نَحَازِرُ أَنْ تَضِيعَ لِقَاؤُنَا وَلَمَّا إِذَا سَمِعْتَ دَعَاءَ يَسَارٍ^(١)
 شِفَارَةٍ تَقْدُ الْفَصِيلَ بِرَجْلِهَا فَطَارَةٍ لِقَوَادِمِ الْأَبْكَارِ^(٢)
 كَانَتْ تُرَاوِحُ عَاتِقَيْهَا عُلبَةً خَلْفَ اللَّقَاحِ سَرِيعَةَ الْإِدْرَارِ^(٣)
 ويقول في قوم من بني العدوية نزل برجل منهم اسمه أبو المهمل في موضع
 يقال له (الْعِدَان) فلم يعطوه إلا فصيلا :

أَلَا قَبِحَ اللَّهُ الْقُلُوصَ الَّتِي سَرَتْ بِرَجْلِي إِلَى خَصْصِي الْعِدَانِ الْمُهْمَلِ
 بَنِي أُمِّ عَيْلَانَ كَأَنَّ لِحَاهُمُ مَخَالِي شَعِيرٍ عُلِقَتْ فَوْقَ أَبْغُلٍ
 تَجْمَعُهُمْ لِي فِي فَصِيلٍ كَانَا تَجْمَعُهُمْ لِي فِي أَغْرٍ مُجْجَلٍ
 ويقول لِمَالِكِ بْنِ الْجَارُودِ :

لَعَمْرِكَ مَا أَشْبَهْتَ جَدَّكَ مَالِكًا وَلَا جَدَّكَ الْجَارُودَ يَأْعَصِبُ الْكَلْبُ
 وَمَا مَالِكٌ إِلَّا عَجُوزٌ كَبِيرَةٌ مُضَيَّبَةُ الْأَسْنَانِ تَزَحَفُ فِي الرَّكْبِ
 ويقول لِرَجُلٍ مِنْ جِيرَانِهِ :

قُعُودُكَ فِي الشَّرْبِ الْكَرَامُ بَلِيَّةٌ وَرَأْسُكَ فِي الْإِكْلِيلِ إِحْدَى الْكِبَائِرِ
 فَمَا نَطَفْتُ كَاسٌ وَلَا طَابَ طَعْمُهَا ضَرَبْتَ عَلَى حَافَاتِهَا بِالْمَشَافِرِ

(١) يسار اسم راع ، يقول اذا سمعت هذه المرأة دعاء الرامي تركت الإبل وذهبت اليه .
 (٢) الشفارة التي تشفر الفصيل برجلها اذا دنا من أمه ليرضع ، الفطارة من الفطر (يفتح
 الفاء) وهو الحلب بالسبابة والوسطى مع الاستمانة بطرف الإبهام . والقوادم الخلفان (بكسر
 الغاء) المتقدمان من البقرة والناقة (والخلف من الناقة كالضرع للشاة) . ويقال ان
 الإبهام تحلب فطرًا لانه لا يمكن حلبها غبا لقصر الخلف ، والغب الحلب بأربع أصابع مع
 الاستمانة بالإبهام ، أو الحلب باليدين جميعا .

(٣) العلبة قدح ضخم من جلود الإبل أو من الخشب يحلب فيها . تراوح عاتقها علبة أي
 تضعها على هذا العاتق تارة وعلى العاتق الآخر تارة . اللقاح (بكسر اللام) الإبل ، واحدها
 لقوح (بفتح اللام) ولقعه (بفتح اللام وكسرهما) وهي الناقة الحلوب .

ومن الهجاء الذي يعتمد على السخرية قوله في هجاء طيء :

ولو أنَّ عصفوراً يَدُّ جناحَه على طيءٍ في دارها لاستَظَلَّتِ
وقوله في هجاء رجل اسمه صالح بن كُدَير . وقد دخل عليه . فوجد بين
يديه دراهم منشورة ، فسأله إياها ، فتنقَّى له صفارها :

يقولون صَبَّحَ صالحاً فاستَغِثَ به وما صالحٌ ؟ ريح الخُرُوءِ بصالح !

وقوله يهجو محمد بن جرير بن عبدالله البجلي :

تَنَحَّ أَهَانَ اللهُ مَثَوَاكَ خَاسِئاً عن اسمِ نَبِيِّ المسلمين مُحَمَّدٍ
وقوله في هجاء رجل من بني نهشل :

فمِعْزَاكَ أَصْلِحْهَا التَّلَادَ فَإِنَّمَا سَنَاوُكَ فِيهَا أَنْ تَنَبَّ وَتَرْضَعَا
سَيَاتِي ابنَ مَسْعُودٍ على ناي داره ثَنَاءٌ إِذَا غَنَى به الركب أَقْدَعَا^(١)
وقوله في هجاء رجل من قومه أقرضه مائة درهم . ثم ألح في طلبها حتى
دفعها إليه ، وبراعة السخرية هنا تستند إلى الواقعية التي تحكي أسلوب عامة
الناس في مألوف حديثهم :

أَفِي مائةٍ أَقْرَضْتَهَا ذَا قَرَابَةٍ على كلِّ بابٍ مَالُ عَيْنِكَ يَدْمَعُ ؟
تَسِيلُ مَا قَيْكَ الصَّدِيدَ تَلُومُنِي وَأَنْتَ امْرُؤٌ قَحْمُ الْعِذَارَيْنِ أَصْلَعُ
فَدُونَكَهَا إِنِّي أَخَالُكَ لَمْ تَرَلْ لَدُنْ خَرَجَتْ مِنْ بَابِ بَيْتِكَ تَلْعَ^(٢)
تَنَادِي وَتَدْعُو اللهَ فِيهَا كَانَمَا رُزْتُ ابنَ أُمٍّ لَمْ يَكُنْ يَتَضَعَعُ

(١) التلاد والتلید ما ولد عندك من مالك . وهي منصوبة على البذل من الضمير في (أصلحها) . نبيب النيس مباحه عند السفاد . يسخر به قاعلا سيايتك ثناء ولكنه ثناء مقلد .
(٢) لمع بيده (كمنع) أشار . كأنه لا يزال يرفع يديه متحررا .

وقريب من هذا الأسلوب ، قوله بتهكم بالأنصار ، حين تحداه رجل منهم
أن يقول مثل شعر حسان :

وبالله لولا أن تقولوا تكاثرتُ علينا تميمٌ ظالمين وأسرفوا
لما تُرِكَتْ كَفُّ شيرٍ بإصبع ولا تركتُ عينٌ على الأرض تطُرف

والفرزدق إن كان يقصر عن جرير في الهجاء الشخصي ، فهو يتفوق عليه
تفوقاً ظاهراً في الهجاء الاجتماعي ، الذي يبدو فيه أوسع أفقاً ، وأشمل نظراً.
فالدارس للحياة الاجتماعية في ذلك العصر ، يستطيع أن يجد صورة منها في
شعر الفرزدق ، هي أوضح بكثير مما يستطيع استخلاصه من شعر جرير . فقد
استطاع الفرزدق أن يصور فساد الحكم وتجبر الولاة ، وظلم الجباة ، وانتشار
الرشوة ، وتأثر الحكام بالقبلية . وقدّم لنا صوراً واضحة للسجون في ذلك
العصر . فبينما كانت عين جرير النقادة لا تقع إلا على الأفراد من الناس ، كان
الفرزدق يقف من عصره موقف الرقيب ، الذي يفتح عينه على كل ما حوله من
أحداث ، لينهال بسوطه على المتحرفين عن جادة الصواب .

الموالي والهجاء

عرفت الدولة الأموية بتعصبها لعنصر العرب ولكل ما هو عربي، والاستخفاف بهذا الخليط من الأجناس، الذين حملتهم سيوف العرب على الخضوع، فسكتوا كارهين، ولَبِسَ بعضهم الإسلامَ على فسادٍ ودَخَل. وبينما كان العرب ينظرون إلى هذا السيل من الموالي، الذي يتدفق عليهم مع الفتوحات، أمرى من الرجال والولِئدان، وسببا من الجوارى والإماء، نظراً الغالب إلى المغلوب، كان هؤلاء الموالي يخفون في أنفسهم حقداً يتربص ملتصاً 'مُتَنَفِّساً' ومنفذاً. فالعرب الذين كانوا في جاهليتهم لا يحترمون إلا القوى، فرداً كان أو جماعة أو أمة، ظل في سوادهم - وفي الأعراب منهم خاصة - بقية من هذا الإحساس، لم تتغلب عليها سماحة الإسلام في دعوته إلى الإنصاف والأخوة في الله. فهم لا يرون هذا الخليط من الأسرى والإماء إلا عبيداً أرقاء، قد أباحهم السيف لهم ليسخروا في خدمتهم. والموالي - ومعظمهم من الفرس - لا يرون العرب إلا بدواً جفاة، قد أتاهم الملك عفواً، ليس في قديمهم ما يؤهلهم لسيادة أو تدبير سياسة. وإنما هو الحظ وعرض الصدفة قد أسعدهم، حين حباهم بالنبي ﷺ، ففضى لهم الغلبة، ونكب هذه الأمة المريقة، ففضى عليها الذل والاستمباد.

ولم يكن بد لهذه الجيوش الجرارة من الموالي من أن تعيش وتلتصم طريقها للحياة، وتستتر هذه الحسرة اللاذعة، وهذا الحقد الدفين بستار من الرياء. فاتخذ بعضهم صناعة الغناء، وكسب مكانه بالزلفى والغلبة على قلوب هؤلاء البدو، الذين بهرتهم الألحان الجديدة المترفة، وما يصاحبها من آلات موسيقية

لا عهد لهم بثلاثها . ولم تكن فتنتهم بهذه الطائفة نفسها من مغنين ومغنيات ، بأقل من فتنتهم بألحانهم الجديدة وموسيقاهم . فقد كانت هذه الطائفة تنشر البدع الجديدة في أساليب الحياة الاجتماعية ، في نفس الوقت الذي تفتن فيه الناس بهذا البدع الجديد من ضروب الفناء .

فهذا هو ابن سريج يخفي صلعه بمحمة مركبة ، ويخضب أطراف أصابعه بالحناء ، ويلبس الثياب المصبغة ، ويسير في الطرقات عابثاً ، يجر وراءه جرادة قد شد رجلها بخيط ، يطيرها ويمدحها كلما تحلفت عنه . وهو يصحب جماعة من المترفين العابثين من شباب العرب في مواسم الحج ، يتعرضون للنساء في طوافهن . يحج مرة مع عمر بن أبي ربيعة على نجيين ، رحالتاهما ملبستان بالديباج ، وقد خضبا النجيين . ويحج معه مرة أخرى ، وقد ركب عمر نجيباً مخضوباً بالحناء مشهور الرحل بقراب مذهب ، وركب ابن سريج بغلة شقراء ، ومعه غلام له يقود فرساً أدهم أغر محجلاً ، في عنقه طوق ذهب ، ومع عمر جماعة من حشمه وغلماه ومواليه ، وعليه حلة موشية يمانية ، وعلى ابن سريج ثوبان هراويان مرتقمان (١) .

وهذا هو حنين الحيري ، يتخذ الأزياء الفارسية الزاهية الألوان ، فيغني عند بشر بن مروان وعُودُه في حجره ، وعليه قباء زاهي اللون ، وجبة واسعة من الفرو الأحمر طويلة الكم تتذبذب يداها ، وخفان موشيان (٢) . وهذا هو القريظ ، يُصنِّع نفسه ويُبرِّقها - كما يقول صاحب الأغاني (٣) - حين يغني ، فيضرب بالعود ، وينقر بالدق ، ويوقع بالقضيب ، فيفتن الناس بغنائه وبوضاء وجهه وحسن زيه .

(١) الأغاني ١ : ٤٤٩ - ٢٧٤

(٢) الأغاني ٢ : ٣٥٠

(٣) الأغاني ٢ : ٣٦٠

افتتن العرب بهذه الطبقة من الموالى التي اتخذت الغناء ، حتى لقد وقف ابن عائشة يغني في الموسم ، فحبس الناس ، واضطربت الحامل ، ومدت الإبل أعناقها ، وكادت الفتنة أن تقع ، فجيء به إلى هشام بن عبد الملك فقال له : يا عدو الله ! أردت أن تفتن الناس ؟ فأمسك ابن عائشة عنه ، وكان تباهاً . فقال له هشام : أرفق بتبيك ! فقال : حق لمن كانت هذه قدرته على القلوب أن يكون تباهاً . فضحك وخلقى سبيله ^(١) .

وبلغ من فتنة الناس بهم أنهم كانوا يحتفلون بمقدمهم ، فيجتمعون لاستقبالهم بما لا يجتمع لثله خلق في استقبال أمير أو خليفة . قدم حنين الحيري على الحجاز ، حين دعاه إليها مغنوها الثلاثة المشهورون - ابن سريج والغريص ومعبد - فلما كان على مرحلة من المدينة بلغهم الخبر ، فخرجوا يتلقونه ، فلم يُرَ يوم كان أكثر حشراً ولا جمعاً من يومئذ . وبلغ من تراحم الناس على الدار التي نزلوا بها حين ضاقت بهم أنهم صعدوا فوق السطوح فسقط الرواق على من تحته . ومات حنين تحت الردم ^(٢) .

هذه طائفة من الموالى ، قد ابتغت الوسيلة للظهور والثراء والغناء ، وانتقمت بسلاح المستضعف الذي يفزو القلوب والجيوب ، حين يعجز عن مواجهة الخصم . ويمكننا أن نضيف إلى هذه الطائفة أشعب وأضرابه من المهرجيين ، الذين يكسبون مكائدهم بحركاتهم الجسمية ونواذرهم البارعة . فقد مرن أشعب على ألوان من الحركات العجيبة ، فلان يفضن وجهه ويشنجه ، حتى يصير عرضه أكثر من طوله ، ويصير في هيئة لم يعرفه أحد بها ، ثم يرسل وجهه ويطوله ، حتى يكاد ذقنه أن يحوز صدره ، ثم يفرغ ثيابه ويتحاذب فيصير في ظهره حذبة كسنام البعير ، ويصير طوله مقدار شبر أو أكثر ، ثم يقوم

فينتاول حتى يصير أطول ما يكون من الرجال (١). وكان مع هذا من أكثر الناس نادرة ، وأحسنهم فكاهة ، وأجودهم أداء للفناء .

وطائفة أخرى من الموالي قد انصرفت للدين ودراسة القرآن والتفقه ، كالحسن البصري ومحمد بن سيرين وسعيد بن جبير وعطاء بن يسار وربيعه الرأي وابن جرير (٢) . وهؤلاء قد انصرفوا للعبادة ، فأذهب الإسلام غيظ قلوبهم ، وبرأهم مما اقسم به جنسهم من الحقد على العرب والكيد لهم .

وطائفة ثالثة اتخذت الشعر وبرعت فيه ، فأتاح لهم نبوغهم شيئاً من النفوذ . احترف بعضهم السياسة ، فتعصب لهذا الفريق أو ذاك من الأحزاب العربية ، كالذي يروي من تعصب سديف لبني هاشم ، وتعصب شبيب لبني أمية (٣) ، ومناصرة أبي العباس الأعمى للأمويين (٤) وانقطاع إسماعيل بن يسار لآل الزبير (٥) . وكان هؤلاء الشعراء في معظمهم منافقين ، لم يعتنقوا هذا المذهب أو ذاك عن عقيدة أو إيمان ، فالعرب عندهم سواء لا يحملون لهم إلا البغض والازدراء ، ولكنهم يلتمسون السبيل للظهور ، بما يتكلفون من تصنع الولاء والإخلاص لأصحاب النفوذ . وخير ما يصور علاقتهم بهذه الأحزاب العربية ، ما يروي صاحب الأغاني من قدوم إسماعيل بن يسار على الغمّر بن يزيد بن عبد الملك - وكان قد تحول إلى الأمويين بعد قتل ابن الزبير وإفضاء الملك إليهم - استأذن إسماعيل على الغمّر فحجبه ساعة ، ثم أذن له ، فدخل يبكي ، فقال له الغمّر : مالك يا أبا فائد تبكي ؟ قال : وكيف لا أبكي ؟ وأنا على مروانيتي ومروانية أبي أحجب عنك ؟ فجمال الغمّر يعتذر إليه ، وهو يبكي ، فما سكّت حتى وصله الغمّر يحملة لها قدر . وخرج من عنده ، فلحقه رجل فقال

(٢) حش الاسلام ١ : ٢٧

(٤) الأغاني ١٥ : ٥٩

(١) الأغاني ١٧ : ٩٥

(٣) الأغاني ١٤ : ١٦٢

(٥) الأغاني ٤ : ٤٠٨

له : أخبرني وبلك يا إسمعيل ، أي مروانية لك ولأبيك ؟ قال : بفضننا إياهم . امرأته طالت ، إن لم يكن يلعن مروان وآله كل يوم مكان التسبيح ، وإن لم يكن أبوه حضره الموت فقل له قل لا إله إلا الله ، فقال لعن الله مروان ، تقريباً إلى الله تعالى وإيدالاً له من التوحيد ، وإقامة له مقامة ^(١) . وقد كان إسمعيل هذا شعوبياً شديداً التعصب على العرب ، فكان لا يزال مضروباً محروماً مطروداً . وكذلك كان ابنه إبراهيم ^(٢) . دخل إسمعيل على هشام بن عبد الملك في خلافته ، وهو بالرصافة جالس على بركة له في قصر ، فاستنشهده - وهو يرى أنه سيلتشدده مديحاً له - فأنشده قصيدته التي يفتخر فيها بالمجم :

يأربع مية بالعلياء من ريم هل ترجعن إذا حيتتُ تسليمي
إلى أن انتهى إلى قوله :

إني وجدك ما عودي بندي خور	عند الحفاظ ولا حوضي بمهدوم
أصلي كريم ومجدي لا يقاس به	ولي لسان كحد السيف مسموم
أحمي به مجد أقوام ذوي حسب	من كل قرم بتاج الملك معموم
ججاجيح سادة بلج مرازية	جرد عتاق مساميح مطاعيم
من مثل كسرى وسابور الجنود معاً	والهرمزان لفخر أو لتعظيم
أسد الكتائب يوم الروع إن زحفوا	وهم أذلوا ملوك الفرس والروم
يمشون في الحلق الماضي سابغة	مشي الضراغة الأسد اللهاميم
هناك إن تسالي تنبي بان لنا	جرثومة قهرت عز الجرائيم

(١) الاغاني ٤ : ٤١٠

(٢) الاغاني ٤ : ٤١١ و ٤٢٧

فغضب هشام وقال : يا عاض بظفر أمته ، أعلتي تفخر ؟ وإياي تلشد قصيدة تمدح بها نفسك وأعلاج قومك ؟ غططوه في الماء ! ففطوه في البركة حتى كادت نفسه تخرج ، ثم أمر بإخراجه وهو بشر حال ، ونفاه من وقته ، فأخرج عن الرصافة منفياً إلى الحجاز ^(١) . ومما يصور نفاق هذه الطائفة من الموالي في علاقتهم بسادتهم ، ما يروي الطبري ، من أن الوليد بن يزيد لما اشتد به الضيق وأخذ الثوار من كل مكان ، قال : من جاء برأس فله خمسمائة . فجاء قوم بأرؤس . فقال الوليد : اكتبوا أسماءهم . فقال رجل من مواليه ممن جاء برأس : يا أمير المؤمنين ! ليس هذا بيوم يُعمل فيه بنسيئة ^(٢) .

ومن هذه الطائفة جماعة كانوا يكيدون للعرب بإثارة الفتن والتعريض بين السادة والقادة ، كالذي حدث في مقتل سيدنا عثمان رضي الله عنه ، وما تلاه من وقوع الحرب بين سيدنا علي وبين معاوية رضي الله عنهما . ومنهم من كانت وسيلته إلى الكيد هي إفساد العقيدة بدس الأحاديث الكاذبة وإختراع التأويلات الباطلة كالذي أقعّم على التشيع من مفتريات .

وآثر بعض الشعراء من الموالي أن يبتعد عن السياسة ومغامراتها ، وما تجر على محترفيها من مكاره ، فكسبوا مكانتهم بهجاء الناس . وهؤلاء كثير ، منهم الحزين الكتاني ، وفيه يقول أبو الفرج : كان هجاء خبيث اللسان ساقطاً يرضيه اليسير ، ويتكسب بالشر وهجاء الناس ^(٣) . ومنهم ابن الخطاط ، كان ماجناً خليعاً هجاء خبيث اللسان ^(٤) . ومنهم ابن ميادة ، كان عريضاً للشر يطلب مهاجمة الشعراء ومسابة الناس . وكان يضرب بيده على جنب أمه ويقول :

اعرّز ميسى مَيَّادُ للقوافي واستمعين ولا تخافي
ستجدين ابنك ذا قِذَافٍ ^(٥)

(٢) الطبري ٥ : ٥٥٦

(٤) الأغانى ١٨ : ٩٢

(١) الأغانى ٤ : ٤٢٢

(٣) الأغانى ١٤ : ٧٦

(٥) الأغانى ٢ : ٢٦٣

ومنهم أبو عطاء السَّنْدِي^(١) . ومنهم زياد الأعجم^(٢) . ومنهم يزيد بن مَفْرَغ الذي اشتهر بأهاجيه في آل زياد ، وصلابته في احتمال أذاام وصبره على اضطهادهم^(٣)

وقد كان كثير من هؤلاء الشعراء لا يكتفون تعصبهم لقومهم ، وتهكمهم بكل ما هو عربي ، حتى لقد غلب عليهم الاستهتار ، وروي عن بعضهم ما يصور الاستخفاف بالإسلام ، وكأنهم لم يروه إلا مذهباً سياسياً ، قد أتاح للعرب هذا النفوذ العريض ، الذي قوّض دولتهم ، وجعلهم في هذا المكان من الذل والاستعباد .

فمثال تعصبهم قول ابن ميادة - وكان ابن أمّ ولد -^(٤) :

أنا ابن أبي سلمى وجدي ظالم وأمي حصانٌ أخلصّها الأعاجم
أليس غلام بين كسرى وظالم باكرم من نيّطت عليه التامم
وقوله له :

لنا الملك إلا أن شيئاً تعدّه قريش ولو شئنا لداخت رقابها
وإن غضبت من ذا قريش فقل لها معاذ الإله أن أكون أهابها
وقوله :

فضلنا قريشاً غير رهط محمد وغير بني مروان أهل الفضائل

(٢) الاغانى ١٤ : ١٠٢

(١) الاغانى ١٦ : ٨١

(٣) الاغانى ١٧ : ٥١

(٤) الاغانى ٢ : ٢٦٢ . وابن أم ولد أي أن أمه كانت جارية أبيه العربي . وميادة أم الشاعر التي يلبس إليها فارسية ، وأبوهم عربي من خططان .

وقد لقيه إبراهيم بن إسماعيل فقال له أنت فضلت قريشاً ؟ وجردده وضربه أسواطاً ^(١) .

ومن أمثلة هذا التعصب كذلك ما يروى من أن زياداً الأعجم كان يخرج عليه قباء ديباج تشبهاً بالأعاجم ، حتى لقد مر به يزيد بن المهلب ذات يوم وهو على حاله تلك ، فأمر به فقتل أسواطاً ومزق ثيابه قائلاً : والتُّرك تشبه لا أم لك ؟ ^(٢) .

أما استهتارهم ومجافاتهم للإسلام فالأمثلة عليه كثيرة . كان زياد الأعجم عند عمر بن عبد الله بن معمر بفارس . وقدم عليه غزال بن محمد الفقيه من مصرفكان غزال يحدثه بحديث الفقهاء ، فقال زياد :

يحدثنا أن القيامة قد أتت وجاء غزال يبتغي المال من مصر فكم بين باب الترك إن كنت صادقاً وإوان كسرى من فلاة ومن قصر ومر به يزيد بن حبناء الضبي وهو ينشد هجاء مفحشاً ، فقال له : ألم يأن لك أن ترعوي وتترك تمزيق أعراض الناس ؟ ويحك حتى متى تتأدى في الضلال ؟ كأنك بالموت قد صبحك أو مساءك . فهجاء زياد بقوله ^(٣) :

يحذرنى الموت ابنُ حبناء والفتى إلى الموت يغدو جاهداً ويروح
وكل امرئ لا بد للموت سائر وإن عاش دهرأ في البلاد يسيع
فقل ليزيد يا ابن حبناء لا تعظ أخاك وعِظ نفسك فانت جَنوح

(٢) الاغاني ١٤ : ١٠٤

(١) الاغاني ٢ : ٢٩٤ و ٣٣٠

(٣) الاغاني ١٤ : ١٠٧

تركتَ الثَّقِي والدين دين محمد لأهل التقى والمسلمين يلوح
 وتابعتَ مُرَّاقَ العراقيين سادراً وأنت غليظ القُصْرَيْنِ صحيح^(١)
 وروى الزبير بن بكار أن أباه ولي الحجاز ، فالزم ابن الحياط حضور الصلاة
 مع الجماعة ، فجاء ابن الحياط وأنشده :

قل للأمير يا كريم الجنس يا خير من بالغور أو بالجلُس^(٢)
 وعُدَّتِي لولدي ونفسي شغلتنِي بالصلوات الخمس
 فقال له : ويحك . أتريد أن أستغفبه لك من الصلاة ؟ والله لا يمفيك وإن
 ذلك ليبعثه على اللجاج في أمرك ثم يضرك عنده . فمضى وقال : نصبر إذن
 حتى يفرج الله تعالى^(٣) وقد 'حد' ابن الحياط في الحر ، جلده مالك بن أنس .
 فلما ولي ابن سعيد القضاء في المدينة قال فيه^(٤) :

بَكَّتْنِي النَّاسُ لَأَنْ جُلِدْتَ وَسُطَ الرَّحْبَةُ
 وَأَنْنِي أَزْنِي وَقَدْ غَنَيْتَ فِي الْمُحْتَسِبَةِ^(٥)
 أعزف فيهم بعضاً اب ن مالك المقتَضَةِ
 فقلت لما أكثرُوا عليَّ فِيمَ الْجَلْبَةِ
 ذا ابنُ سعيدٍ قد قضى وحائلاً مقترِبَةِ

(١) السادر المنحبر والذي لا يبالي ما صنع . القصريان ضلمان بليان الترفويين .

(٢) الغور ما انخفض من الأرض ، والجلُس ما غلظ .

(٣) الأغانى ١٨ : ٩٩

(٤) الأغانى ١٨ : ٩٧

(٥) المحتسبة طائفة من الشرطة يمشون في الطرقات لمراقبة الناس وأخذ المستهترين

والمخالفين .

لا بل له التفضيل فيه بما لم أنل والغلبة بحسن صوت مطرب وزوجة مُعْتَصِبَة

وكان الحزين الكتاني مدمناً للشراب فاسد الدين . وفد على عبدالله بن عبد الملك فقال له : أي الرقيق أعجب إليك ؟ قال : ليختر لي الأمير . فاختار له عبدالله أحدهم وقال : رضيت لك هذا ، فإنني رأيته حسن الصلاح . فقال الحزين : لا حاجة لي به فأعطني أخاه . فأعطاه إياه .

وكان بعض هؤلاء الشعراء - على مكانتهم في الشعر - لا يفصحون ولا يحسنون النطق بالعربية . كان أبو عطاء السِندي يجمع بين لثقة ولكنة فلا يكاد يفهم كلامه . كان يقول (مرهبا مرهبا هيا كم الله) يقصد : مرحبا مرحبا هيا كم الله . وكان يقول (زز) يعني زُج . و (ززادة) يعني جرادة . ويقول (أزُن) يعني : أظن . ويقول (بنو سَيطان) يعني : بنو شيطان . وكان الناس يسمونه فيكتمون الضحك ولا يحسرون على إظهاره خوفاً من شره (٢) . أتى سليمان بن سليم فأنشده :

أَعَوَزَتْنِي الرُّوَاةُ يَا ابْنَ سُلَيْمٍ	وَأَبَى أَنْ يُقِيمَ شِعْرِي لِسَانِي
وَعَلَا بِاللَّيْلِ أَجْجِمُ صَدْرِي	وَجَفَانِي لِعُجْمَتِي سُلْطَانِي
وَأَزْدَرْتَنِي الْعَيُونُ إِذْ كَانَ لَوْنِي	حَالِكًا مُجْتَوًى مِنَ الْأَلْوَانِ
فَضَرَبْتُ الْأُمُورَ ظَهْرَ الْبَطْنِ	كَيْفَ أَحْتَالُ حِيلَةَ السَّانِي
وَتَمَنَيْتُ أَنَّنِي كُنْتُ بِالْشَمِ	رَفْصِيحًا وَبَانَ بَعْضُ بَيَانِي

(٢) الألفاني ١٦ : ٨٢ و ٨٧

(١) الألفاني ١٤ : ٧٦

فَاكْفِنِي مَا يَضِيقُ عَنْهُ لِسَانِي بِفَصِيحٍ مِنْ صَالِحِ الْغُلَامَانِ
يُفْهِمُ النَّاسَ مَا أَقُولُ مِنَ الشَّعْرِ وَإِنْ الْبَيَانَ قَدْ أَعْيَانِي

فأمر له سليمان بوصيف بربري فصيح ، فسماه عطاء ، وتكنى به ، ورواه الشعر ، فكان إذا مدح من يحمديه أو ينتجعه أمره بإنشاده ما قاله (١) .

وكان زياد الأعجم لا يحسن النطق بالعربية على ما أتبع له من التقدم في الشعر . وقد ضرب أبو الفرج مثلاً لمجمته بقوله لغلام له دعاه فأبطأ عليه (منذ لدن دَ أوتك إلى أن قلت لي ما كنت تَسْنَأُ ؟) يقصد : منذ لدن دعوتك إلى أن قلت لي ما كنت تصنع ؟ .

وقد حقق المهجاء لهذه الطائفة ما طمحووا إليه من مكانة ، فكان سلاحاً مرهوباً يخشاه الناس ، يتقونه بإكرامهم ومداراتهم . روى رجل أنه كان جالساً عند المهلب ، فاقبل عليه رجل طويل مضطرب ؛ فلما رآه المهلب قال : اللهم إني أعوذ بك من شره . فجاء فقال : أصلح الله الأمير . إني قد مدحتك ببیت صَفَدُهُ (٢) مائة ألف درهم . فسكت المهلب . فأعاد عليه القول . فقال : أنشدنيه . فأنشده :

فَتَى زَادَهُ السُّلْطَانُ فِي الْخَيْرِ رَغْبَةً إِذَا غَيَّرَ السُّلْطَانُ كُلَّ خَلِيلِ

فقال له المهلب : يا أبا أمامة ، مائة ألف ؟ ! فوالله ما هي عندنا . ولكن ثلاثون ألفاً فيها عروض (٣) . فالمهلب لم يدفع الثلاثين ألفاً لهذا البيت التافه

(٢) الصغد (بفتح تين) المعطاء .

(١) الاغانى ١٦ : ٨١

(٣) العروض جمع عرض (يفتح العين وسكون الراء) وهو المتاع وكل شيء سوى النقد . يريد المهلب أن يعطيه بمض البالغ نقداً وبمضه متاعاً . (الاغانى ١٤ : ١٠٧) .

من الشعر ، فهو لا يساوي شيئاً . وإنما دفعها اتقاء هجائه ، واشترى بها عرضه .
ولقد بلغ من رهبة هؤلاء الموالي عند الناس ، وجراتهم عليهم ، أن زياداً
هذا شرب يوماً مع حبيب بن المهلب ، فسجعت حمامة على شجرة ، فقال لها
زياد :

تَغْنِيْ أَنْتِ فِي ذِمِّي وَعَهْدِي وَذِمَّةُ وَالِدِي إِنْ لَمْ تُطَّارِي
فإِذَا يَقْتُلُوكَ طَلَبْتُ ثَأْرًا لَهُ نَبَأُ لَأَنْكَ فِي جَوَارِي

فتعداه ابن المهلب فأصاب الحمامة بسهم تهكماً به ، فانطلق زياد إلى المهلب
ابن أبي صفرة شاكياً ، فالزم ابنه دية الحمامة ألف دينار لأنها جارته (١) . وإنما
فعل ذلك اتقاء شره . وحج عبد الله بن عبد الملك بن مروان ، فقال أبوه :
سبأ قبلك الحزين الكناني الشاعر بالمدينة ، وهو ذرّب اللسان ، فأياك أن
تحتجب عنه ، وأرضه . ووصفه له ، فقال إنه أشعر ذو بطن عظيم الأنف .
فلما قدم عبد الله المدينة وصفه لحاجبه ، وقال له : إياك أن تردّه (٢) . بل لقد
بلغ من جرأة الحزين الكناني ، أنه كان يفرض الضرائب على أشرف الناس وعلى
بعض القرشيين .

روى صاحب الأغاني أنه ضرب على كل رجل من قريش درهمين في كل شهر ،
منهم ابن أبي عتيق ، فجاء يوماً لأخذ درهميه وهو على حمار أعجف ، وكان
كثير الشاعر جالساً مع ابن أبي عتيق . فدعا ابن أبي عتيق للحزين بدرهمين .
فقال له الحزين : من هذا الذي معك ؟ قال : هذا أبو صخر كثير - وكان قصيراً
دميماً - فقال له الحزين : أتأذن لي أن أهجوه ببيت ؟ قال : لا لعمري لا
أذن أن تهجو جليسي ، ولكن اشتري عرضه منك بدرهمين آخرين . ودعا له

(١) الأغاني ١٤ : ١٠٣

(٢) الأغاني ١٤ : ٧٧

بيها . فأصغى ثم قال : لا بد من هجائه بيت . قال : أو أشتري ذلك منك بدرهمين آخرين . ودعا له بيها . فأخذها وقال : ما أنا بتاركه حتى أمجوه . قال : أو أشتري منك ذلك بدرهمين آخرين . فقال له كثير : ائذنت له وما عسى أن يقول في ؟ فأذن له ابن أبي عتيق فقال :

قصيرُ القميص فاحشٌ عند بيته بعضُ القُرَادِ بآسته وهو قائم

فوثب كثير إليه فوكزه فسقط هو والحمار، وخلص ابن أبي عتيق بينهما^(١).

وقد كان معظم هجاء هذه الطبقة كما ترى غثاً نافعاً إذا وزن بموازين الشعر . وكان شطر كبير منه مرتجلاً ينشئه الشاعر لساعته . كان الحزين الكنانى يمدح محمد ابن مروان ويهجو عمرو بن عمرو بن الزبير . ثم إن ابن مروان سأله أن يكف عن عمرو فأبى ، وقال : لا والله ولا بِحُمْرِ النِّعَمِ وسودها ، لو أعطينها ما كففت عنه ، لأنه ما علمت كثير الشر ، قليل الخير ، متسلط على صديقه فظ على أهله . (وخيرُ ابن عمرو بالثريا معلق) فقال له محمد بن مروان : هذا شعر ؟ فقال : بعد ساعة يصير شعراً ، ولو شئت لمجلته ، ثم قال^(٢) :

شرُّ ابن عمرو حاضر لصديقه وخير ابن عمرو بالثريا معلق
ووجه ابن عمرو بلاسرٌ إن طلبته نوالاً إذا جاء الكريم الموفق
فنفس الفتى عمرو بن عمرو إذا غدت كتائب هيجاء المنية تَبَرَّقُ^(٣)
فلا زال عمرو للبلایا رَدِيَّةً تباكره حتى يموت وتطرُقُ^(٤)
يعيرُ هريرَ الكلب عمرو إذا رأى طعاماً فما ينفك يبكي ويشق

(٢) الاغانى ١٤ : ٨٣

(٤) ودية أي هدف وغرض

(١) الاغانى ١٤ : ٧٦

(٣) برق (كطرب) تحير

وهذا شعر تافه كما هو بَيِّن . ولكن أمثال هؤلاء الهجائين كانوا من اللصة
وضياع الحسب بحيث يكبر على الأشراف ما يقولون لهم وإن كانت تافها .
ثم هم لا يسألون أن يهجوم الناس . ولذلك كانوا أكثر ما يتعرضون للمادة
والوجهاء . ولم يكونوا يتعرضون للذين لا يزالون أن يهيجوهم ؛ ويظهرون
عدم الاكتراث بشعرهم . هجا ابن الحياط موسى بن طلحة بن بلال التميمي
فقال :

عجب الناس للعجيب الحال حاض موسى بن طلحة بن بلال
زعموه يحبض في كل شهر ويرى صُفْرَةً لكل هلال

فلقبه موسى فقال : يا هذا ، وأي شيء عليك ؟ نعم حضت وحملت
وولدت وأرضعت . فقال له ابن الحياط : أنشدك الله أن لا يسمع هذا منك
أحد فيجترىء على شعري الناس فلا يكون شيئاً ، ولن يبلغك مني ما فكره
بعد الآن .

وقد غلب على هجاء هذه الطبقة الاقتضاب والقصر ، فكان ذلك أدعى
لنفوذه وخفته على الألسن ، وأشد للذعة ونكايته . كان عبيد الله بن زياد
يقول : ما هجيت بشيء أشد عليّ من قول ابن مفرغ :

فكّر فني ذاك إن فكرت مُعْتَبَر هل نلت مكرمةً إلا بتأخير
عاشت سُمَيَّةٌ ماتدرى وقد عُمرت أن ابنها من قريش في الجماهير
وقال في هجاء زياد بن سُمَيَّة (٢) :

(١) الاغانى ١٨ : ٩٥

(٢) هو زياد بن أبيه والي العراق الذي أراد معاوية أن يلحقه بأبيه أبي سفيان .

فاقسم ما زياد من قریش ولا كانت مُسمّية من تميم
ولكن نسلُ عبدٍ من بَغِيٍّ عريقِ الأصل في النسب اللثيم
وقال فيه :

إن زياداً ونافعاً وأبا بك رة عندي من أعجب العجب
إن رجالاً ثلاثة خلّقوا في رحم أنثى ما كلهم لأب
ذا قرشيُّ كما يقول، وذا مولى، وهذا بزعمه عربي
ويقول زياد الأعجم لكعب الأشقري الشاعر حين هجاء :

قُبيلةٌ خيرها وشرها وأصدقها الكاذب الآثم
وضيفهم وسطَ أبياتهم وإن لم يكن صائماً صائم
ويقول له :

إذا عذَّبَ اللهُ الرجالَ بشعرهم أمنتُ لكعبٍ أن يُعَذَّبَ بالشعرِ
ويقول لرجل من جرّهم :

قضى الله خلق الناس ثم خلّقتُمُ بقيةَ خلق الله آخرَ آخرِ
فلم تسمّعوا إلا بما كان قبلكم ولم تُدرِكُوا إلا بدق الحوافر
فلو ردَّ أهلُ الحق من مات منكم الى حقّه لم تُدفنوا في المقابرِ

هذه طبقة من المستضعفين المغلوبين على أمرهم ، فَرَضَتْ عليهم القوةُ
الذلَّ ، وَقَضَى عليهم التَّمَصُّبُ المتطرف أن يعيشوا مستعبدين مهضومي
الحقوق ، فتسلح بعضهم بالرياء يستربه حقدَه الكامن ، وتسلح فريق منهم
بالهجاء ، ودفع اليأس فريقاً ثالثاً إلى الزهد ، يلتمسون في نعم الآخرة المقيم
عوضاً من جاء الدنيا الحائل . ولكنهم في جملتهم ظلوا يكيّدون للعرب ،
ويلشرون حضارتهم الفارسية في بطنهم وتصميم ، حتى أُتيح لهم الظفر الكامل ،
فقوّضوا ملك الأمويين ، وأقاموا على أنقاضه دولة عربية المظهر ، فارسية
الروح والتصميم .

والحمد لله رب العالمين

مصادر البحث

مرتبة حسب أوائل الحروف

(أ)

الإنباء على قبائل الرواة	لابن عبد البر	السعادة بمصر ١٣٥٠هـ
الأغاني	لأبي الفرج الأصفهاني	دار الكتب المصرية في الأجزاء
		العشرة الأولى، بولاق فيما يليها
الأمالي	لأبي علي القالي	دار الكتب المصرية
أنساب الأشراف	للبلاذري (أحمد بن يحيى)	الجامعة المصرية بالقاهرة ١٩٣٨

(ب)

بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب	للألومي (محمود شكري)	التجارية بمصر ١٣٤٢هـ - ١٩٢٤م
البيان والتبيين	للجاحظ (عمر بن بحر)	التجارية بمصر ١٣٤٥هـ - ١٩٢٦م

(ت)

تاريخ ابن الأثير (الكامل)	لابن الأثير (عز الدين)	المنيرية بمصر ١٣٤٨هـ
تاريخ الطبري (الأمم والملوك)	للتطبري (محمد بن جرير)	التجارية بمصر ١٩٣٩م
التبصير في الدين	للسفراييني (شاهفور)	الأنوار ١٣٥٩هـ - ١٩٤٠م
التنبيه والإشراف	للسعدي (أبي الحسن)	الصاوي بمصر ١٣٥٧هـ - ١٩٣٨م
	علي بن الحسين	

(ج)

جبهة أشعار العرب للقرشي (أبي زيد
محمد بن الخطاب)
التجارية بمصر ١٣٤٥ هـ - ١٩٢٦ م

(ح)

حماسة أبي تمام لأبي تمام (حبيب بن أوس)
الأزهر بمصر ١٣٤٦ هـ - ١٩٢٧ م

(خ)

الخراج لأبي يوسف (يعقوب بن إبراهيم) السلفية بمصر ١٣٥٢ هـ
الخراج للقرشي (يحيى بن آدم) السلفية بمصر ١٣٤٧ هـ
خزانة الأدب للبغدادي (عبد القادر بن عمر) الحلبي بمصر ١٩٣٠ م

(د)

ديوان الأخطل الكاثوليكية بيروت ١٨٩١ م
ديوان أعشى همدان (ضمن ملحقات ديوان الأعشى أبي بصير) لندن ١٩٢٨ م
ديوان جرير التجارية بمصر ؟
ديوان الفرزدق د د ١٣٥٤ هـ - ١٩٣٦ م
ديوان الكهيت بن زيد مطبعة الرسالة ؟
ديوان المعاني للمسكري (أبي هلال الحسن) التجارية بمصر ١٣٥٢ هـ
بن عبد الله بن سهل

(ش)

شرح حماسة أبي تمام للتبريزي (أبي زكريا يحيى بن علي) التجارية بمصر ١٣٥٧ - ٩٣٨
شرح نقائض جرير والفرزدق لأبي عبيدة معمر بن المثنى ط أوروبا

شعراء النصرانية
للأب لويس شيخو
الكاثوليكية بيروت ١٩٢٦ م
الشعر والشعراء
لابن قتيبة (أبي محمد عبد الله بن مسلم) تحقيق السقا ١٩٣٢ م

(ط)

طبقات فحول الشعراء
محمد بن سلام الجحفي
المعارف ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م
الطبقات الكبرى
لابن سعد (عبد الله محمد بن سعد) ليدن ١٣٢٠ هـ

(ع)

المقد الفريد
لابن عبد ربه (أحمد بن محمد
ابن عبد ربه)
العمدة في صناعة الشعر ونقده لابن رشيق (الحسن بن رشيق)
المواصم من القواصم لابن عربي
التجارية بمصر ١٩٤٠ م
السلفية بمصر ١٣٧٥ هـ

(ف)

فتوح البلدان
للبلاذري (أحمد بن يحيى)
الفهرست
لابن النديم (محمد بن إسحق)
التجارية بمصر ١٣٥٠ - ١٩٣٢ م
التجارية بمصر ١٣٤٨ هـ

(ك)

الكامل
للبرد (أبي العباس محمد بن يزيد)
التجارية بمصر ١٣٥٥ هـ

(م)

المؤتلف والمختلف
للأمدي (أبي القاسم الحسن بن بشر) القدسي بمصر ١٣٥٤ هـ
مختصر الفرق بين الفرق
للسعني (عبد الرازق بن رزق الله) الهلال بمصر ١٩٢٤ م
مروج الذهب
للمسعودي (أبي الحسن علي بن الحسين) البهية بمصر ١٣٤٦ م
المعارف
لابن قتيبة (أبي محمد عبد الله بن مسلم) الحسينية بمصر ١٣٥٣ - ١٩٣٤ م

مجمع الأدباء	لياقوت الحموي (أبي عبد الله	الحلي بمصر ١٣٥٥ - ١٩٣٦
	ياقوت بن عبد الله)	
مجمع البلدان	لياقوت الحموي	، ،
مجمع الشعراء	للمرزباني (أبي عبد الله محمد بن عمران)	القدمي بمصر ٨١٣٥٤
مقدمة ابن خلدون	ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد)	الأزهرية بمصر ١٣٤٨ - ١٩٣٠
الموازنة بين أبي تمام والبحتري	للأمدي (أبي القاسم الحسن بن بشر)	صبيح بمصر
الموشح	للمرزباني (أبي عبد الله محمد بن عمران)	السلفية بمصر ١٣٤٣

(ن)

النزاع والتخاصم فيما بين	للمقرزي (تقي الدين بن	
بني أمية وبني هاشم	علاء الدين بن محيي الدين)	، ، ، ،
نسب عدنان وقحطان	للمبرد (أبي العباس محمد بن يزيد)	لجنة التأليف بمصر ١٣٥٤ - ١٩٣٦
نقائض جرير والأخطل	شرح أبي تمام (حبيب بن أوس)	الكاثوليكية ببيروت
نقد الشعر	لقدامة (أبي الفرج قدامة بن جعفر)	المكشوف ببيروت ١٩٣٩
نقد النثر	، ، ،	الجامعة المصرية ١٣٥١ - ١٩٣٣
نهاية الأرب في فنون الأدب	للتويري (أبي العباس أحمد بن	
	عبد الوهاب)	دار الكتب المصرية

(و)

الوساطة بين المتنبي وخصومه	للجرجاني (القاضي علي	
وفيات الأعيان	لابن خلكان (القاضي أحمد بن محمد)	الحلي بمصر ١٣٦٤ - ١٩٤٥
	للمنقري (نصر بن مزاحم)	الأميرية ببولاق مصر
وقمة صفيح		، ، الحلي بمصر ١٣٥٥
		الحلي بمصر ١٣٦٥

فهرس

نشأة الأحزاب السياسية

(ص ٧ - ٢٠)

العقلية العربية لم تسخ النظام الجديد الذي جاء به الإسلام ، ولم تنس وطنها الأول الصغير (القبيلة) لتتفانى في الوطن الكبير ص ٧ - تصورم الإسلام على أنه سياة لقريش على بقية القبائل ص ٧ - العرب ينغرون من الزكاة ص ٧ - ظهور المتنبيين من مختلف قبائل العرب منافسة لقريش ص ٨ - الردة حركة عصبية والشعر الذي قيل فيها منصب كله على القبائل لا على مبادئ الإسلام ص ٨ - الجزيرة العربية تتحول سريعاً إلى إمبراطورية واسعة ص ١٠ - حاجة الظروف الجديدة إلى نظم سياسية وإدارية واجتماعية جديدة ص ١١ - اضطراب الجزيرة بالفتن وظهور الأحزاب الثلاثة الكبيرة (الشيعة ، والخوارج والأمويين) ص ١١ - بين علي ومعاوية ص ١٢ - معاوية يوطد أركان الدولة ويدعم النظام والاستقرار ص ١٣ - عودة إلى الاضطرابات والفتن بعد موت معاوية الثاني ص ١٣ - آثار هاتين الثورتين في التفكير العربي ص ١٥ - مناقشة نظام الحكم للمرة الأولى بين العرب ، العصبية القديمة تتخذ صورة حزبية مهيبة ص ١٦ - اختلاف برامج الأحزاب ، أثر العصبية القديمة في الأحزاب الجديدة ص ١٨ - العراق موطن المعارضة في العصر الأموي ص ١٩ .

الهجاء السياسي

(ص ٢١ - ٧٣)

الهجاء السياسي من أظهر فنون الشعر في العصر الأموي ص ٢١ - حرص معاوية على تشجيع الشعراء وتألف الناس بالمال ص ٢١ - دعوة الشعر للظهور بعد أن خفت صوته منذ وفاة النبي ﷺ ص ٢١ - اعتماد الزعماء والملوك على الشعراء في تهيئة الناس لمشاريعهم والترويج لها في الدفاع عنهم ومهاجمة خصومهم ص ٢٢

- السياسة الحزبية حرفة يتكسب بها الشعراء ص ٢٤ - استفحال الهجاء السياسي ص ٢٥ - الهجاء بدع العصر ص ٢٦ - المربد في العراق يحتل مكان عكاز في الجاهلية ص ٢٧ - اختلاف صور الهجاء السياسي وتعدد مذاهبه ص ٢٨ - بعضه جاهلي الأسلوب يقوم على العصبية ، وبعضه يهاجم أصحاب الدعوة والمطالبين بالخلافة ، وبعضه يهاجم الولاة ، وبعضه بصور سخطة على جميع المتنافسين في الملك من قريش ، يفهم بالطمع والجشع ص ٢٨ - شعر العصبية امتداد لشعر الحروب في الجاهلية لم يتأثر بالمثل الإسلامية ، فالفتن الإسلامية منفذ للحزازات القديمة التي تلمست طريقها للظهور عن طريق الزعماء المتنافسين على الحكم ص ٢٩ - ظهور لون جديد من الهجاء العصبي هو هجاء الإقليم ص ٣٤ - عصبية الشام وعصبية العراق ص ٣٨ - الشعر الذي يتصل بأصحاب الدعوات ويهاجم المطالبين بالخلافة يتميز بإدراكه للحياة الجديدة وتأثره بمثل الإسلام وأسلوب القرآن ص ٤١ - بعضه ينصب على نظام الحكم ص ٤٣ ، وبعضه ينصب على أشخاص الحكام ص ٤٤ ، وبعضه صورة من الاضطراب والبلبلة التي سادت هذه الفترة ص ٥٠ - غلبة الحزن على شعر العلويين ص ٥١ ، غلبة الفدائية على شعر الخوارج ص ٥٣ - الشعر الذي يعارض الولاة وينقد سياستهم من أمتع ألوان الشعر السياسي ، وأكثرها دقة ووضوحاً في تصوير المجتمع والكشف عن معانيه ص ٥٧ : تدفق الأموال على الناس وتميز طائفة الحكام ص ٥٨ ، تأثر الولاة بالعصبية ص ٦٣ - شعر يلقي التهم جزافاً ولا يكاد يقادر أحداً ص ٦٥ ، كثرة شكوى شعراء العراق من ظلم المال في جباية الأموال ص ٦٧ .

الأخطل

(٧٤ - - ١١٩)

نشأته : حرماته وعمده ، تعرضه لكمب بن جميل التماساً للشهرة ص ٧٤ - هجاء الأنصار واتصاله بيزيد ص ٧٦ - دخوله في السياسة ودفاعه عن الدولة ومهاجمة أعدائها ص ٨١ - حظوته عند الأمويين وعلو شأنه في قبيلته ص ٨٣ - الأخطل شاعر القبيلة وزعيمها ص ٨٤ - ربطه بين قبيلته وبين الأمويين وأثره

في تغلب أيام الفتنة الثانية ص ٨٧ - اشتباك قيس بتغلب وموهف الأخطل ص ٨٨ - قسوته وبشاعة تصويره لمناظر القتال ص ٨٩ - الأخطل في قمة مجده السياسي : تيه وإدلاله على عبد الملك ص ٩٥ - الأخطل لسان الحكومة الذي يعبر عن رأيها واتجاهاتها ص ٩٧ - هجاء القيسية في النقائض ص ٩٨ - (خف القطين) مثال رائع للشعر السياسي ص ٩٩ - الغلطة القاسية طابع الأخطل في أهاجيه ص ١٠٢ - تأييده لسياسة الولاة وتبرير مسلكتهم في عنفهم وشدتهم ص ١٠٣ - حق الأمويين في الخلافة ص ١٠٥ - القوي الغالب هو صاحب الحق لأن الله لا ينصر الظالمين ص ١٠٨ المثل الجاهلية التي تعتمد على القوة تلبس ثوب الحق الإلهي على يد الأخطل ص ١٠٨ - الأخطل بدوي يعيش على المثل الجاهلية في حياته وفي فنه ص ١٠٩ - كثرة الوشائات حول الأخطل وضعف نفوذه في البلاط الأموي ص ١١٦ - عدي بن الرقاع يحتل مكان الأخطل عند الوليد ص ١١٧ .

الهجاء الشخصي

(ص ١٢٠ - ١٥٣)

الهجاء الشخصي من أظهر فنون الشعر في العصر الأموي، والعراق بنوع خاص موطن هذا الفن ص ١٢٠ - الشعراء يصطنعون أسلوب الحطيئة في التكسب بالهجاء ، خوف الأشراف والوجهاء من الهجائين ص ١٢٠ - المتهتكون من الهجائين المحترفين : الحكم بن عبدل ص ١٢٢ ، الأقيشر ص ١٢٣ - الهجاء القصير اللاذع ص ١٢٥ - فن النقائض : محور هذا الفن شعراء العصر الثلاثة ص ١٢٨ ، كثرة عدد الشعراء الذين دخلوا بينهم وانشغال الناس بأمرهم ص ١٢٨ ، العداوة وحدها ليست هي الدافع للهجاء ص ١٢٩ ، المناقضة منافسة فنية ومباراة أدبية ص ١٣٠ ، الارتجال في النقائض ص ١٣٣ ، الشعراء يتربصون بخصومهم ص ١٣٣ ، مهارة الهجاء تتركز في إدراكه لوجه النقص البارز في خصمه وقدرته على الافتتان والتصرف فيه ص ١٣٤ ، الإجابة من نفس البحر والروي مظهر للتنافس الفني ص ١٤٠ ، الشاعر يقابل نقيضته بقصيدة خصمه في الأسلوب والمعاني والأغراض ص ١٤١ ، الشاعر يستكمل قصيدته بإضافة بعض الأبيات بعد سماع نقيضة

خصمه ص ١٤٧ - الأسلوب القصصي في الهجاء ص ١٥٠ - الهجاء والمقدّم
النفسية : أمثلة من جرير والفرزدق والأقيشر والمغيرة بن حبناء والحكم بن عبدل
وشعراء الموالي ص ١٥١

نقائض جرير والفرزدق والأخطل

(١٥٤ - ١٧٢)

النقائض ليست هجاء خالصاً فهي خليط من فنون الشعر التي عرفها العرب
ص ١٥٤ - لم يكن الهجاء هو الغرض الأساسي في كل النقائض ص ١٥٧ - النقائض
منافسة فنية والالتزام بنفس البحر والروي في النقيضة مظهر للتحدي الفني ص ١٥٧ -
من الظلم للنقائض أن تقارن بغيرها من فنون الشعر المتأخرة أو شعر الأمم الأخرى ،
والإنصاف يقتضي أن تقاس بعصرها وبيئتها ص ١٥٧ - النقائض محدودة الغرض
فهي شعر شخصي محوره الفرد لا يكاد يسمو إلى الحياة في أفقها الواسع ص ١٥٨ -
النقائض على قيمتها التاريخية والعلمية بعيدة عن أذواق المعاصرين ص ١٥٨ -
النقائض سجل لكثير من الأحداث التاريخية التي عاصرتها والتي سبقتها منذ وعى
العرب تاريخهم ص ١٥٩ - تباين شعراء النقائض الثلاثة في أسلوبهم الفني : الأخطل
يرضي فنه ، جزالة ألفاظه تضعف هجاءه وتحرمه روح الدعابة ، الأخطل شاعر
خاصة ص ١٥٩ - جرير مرح مداعب ، جرير لا يبجد نفسه في الشعر ، ذبوع شعره
وغلبته على قلوب الناس ص ١٦٠ - الفرزدق معنى بفنه ولكنه ليس موهوباً
كجرير ، الفرزدق يجاري جريراً في تناول المعاني الهجائية من قرب ص ١٦٠ -
الخصائص العامة للنقائض : العامة والابتذال في المعاني ص ١٦٠ ، وفي الألفاظ
ص ١٦٤ ، وفي الأخلاق ص ١٦٦ ، تكرار المعاني ص ١٦٦ ، القصص الهجائي ،
جرير أكثرهم تفوقاً في هذا المذهب ، والأخطل أكثرهم تحلفاً ص ١٦٧ - الفخر
الكثير بالمقدرة الشعرية ص ١٧٠

جرير

(ص ١٧٤ - ٢٠٢)

بنو يربوع : غلبتهم على البصرة والكوفة وخراسان في أيام الفتنة الثانية ص ١٧٥ -

ثروة الحطّافى جد جرير وخول عطية أبيه ص ١٧٥ - مولده في أواخر أيام عثمان
حوالى ٣٠ هـ واشتباكه بفسان السليطي ص ١٧٧ - وفوده على يزيد ص ١٧٧ -
بنو يربوع يدعون لابن الزبير ص ١٧٨ - تم في موقفها من الفتنة حزبان ، يتزعم
أحدهما سلة بن ذؤيب الرياحي ، ويتزعم الآخر الأحنف بن قيس ص ١٧٨ - خلو
شعر جرير مما يدل على لونه السياسي في هذه الفترة وتعليل ذلك ص ١٧٩ - زبيريته
وتعصبه للقيسية ص ١٨٠ - ضعف جرير ونفاقه وصلابة الفرزدق وأنفته ص ١٨٢ -
جرير يعول في التكسب على المدح ولا يهجو إلا من هاجمه ص ١٨٤ - إلحافه في
سؤال ممدوحيه ص ١٨٥ - شعر جرير رقيق سهل : عدم اصابته المدح ص ١٨٦ -
وقة شعر جرير صورة من طبعه السمع ونفسه المطمئنة ص ١٨٩ ، إجادته في الغزل
والرثاء ص ١٩٠ - مواهب جرير الشعرية تبدو كاملة حين يهاجم الأفراد ص ١٩١ :
هدوء طبعه وبرود أعصابه ، تهكمه وسخريته ، امتياز حسه اللفظي ص ١٩٢ ،
عينه نقادة تقع على العيوب وتهتدي إلى مواضع السخرية ، خياله الخصب وذكاؤه
النفاذ يمدّه بالصور الغريبة في الاقتنان وبالنكت البارة اللاذعة ص ١٩٤ ، جرير
من أخطر الهجائين في إطلاق الألقاب على خصومه وترويج الاشاعات الباطلة
عنهم ص ١٩٧ ، جرير فنان أصيل يلمح ولا يصرح ص ١٩٩

الفرزدق

(٢٤٥ - ٢٠٣)

بين جرير والفرزدق ص ٢٠٣ - مولد الفرزدق حوالى سنة ٢٢٤ هـ ص ٢٠٤ - ألفت
الظروف بين جرير والفرزدق من وجوه وخالفت بينهما من وجوه ص ٢٠٥ ، ضعة
جرير وشرف الفرزدق ، رقة جرير وغلظة الفرزدق ، جرير رقيق يؤثر السلام
والفرزدق عنيف يحيا حياة نضال ، جرير زبيري قيسي والفرزدق لا يعتد إلا
بقبيلته ، جرير ينافس الفرزدق على زعامة تميم في الشعر ص ٢٠٦ - الفرزدق
يحاول أن يضع حداً لتقدم جرير وشهرته ، التنافس على الزعامة الشعرية للقبيلة
هو الدافع الأول لتهاجميهما ص ٢٠٧ - الفرزدق طموح شديد الإحساس بالتفوق
والامتياز إلى حد الجنون والمرض ص ٢٠٧ - والفرزدق لا يرحل إلى الخلفاء ولا

يرى لقبيلته تم نظيراً ص ٢١٠ - اضطراب الروايات وتناقض الآراء في مذهبه السياسي ص ٢١٣ - الفرزدق مستقل في تفكيره السياسي لا يصدر في شعره وتصرفاته إلا عن مصلحة قبيلته ص ٢١٦ - الفرزدق لا يستجدي ممدوحيه كجرير ولكنه يسألهم في أنفة وترفع ص ٢١٦ - الفرزدق هجاء لأنه مغرور بنفسه لا ينظر إلى الناس إلا مستخفاً هازئاً ص ٢١٧ - سوء علاقة الفرزدق بالولاء وهجاؤه لهم وجرأته عليهم ص ٢١٨ - الفرزدق يجمع بين صفتين متناقضتين ، فهو مجنون بالغرور والكبرياء ولكنه شديد الضعف في احتمال المكاره والصمود للكفاح ، شعر الفرزدق مزاج من الشعور بالعظمة والشعور بالرهبة والخوف ص ٢٢٣ - شعر الفرزدق رائع في وصف السجون وتصوير خوفه ص ٢٢٧ - الفرزدق جاف غليظ الطبع في فنه وفي حياته ص ٢٣٠ - الفرزدق ينحت من صخر ص ٢٣٠ - تراكب الألفاظ واضطراب الضمائر والتعسف في التراكيب ص ٢٣٠ - ملاءمة طبعه الشعري للفخر ولوصف المظاهر العنيفة وتصوير حياة الصحراء والبادية ص ٢٣٢ - فشله في الغزل والمدح ص ٢٣٤ - الفرزدق لجفاء طبعه بعيد عن الإيمان العميق والإسلام الصحيح ص ٢٣٦ - مثله جاهلية : يفتخر بالزنا وشرب الخمر ص ٢٣٦ - هجو اليمينية بأنهم ملاحون ص ٢٣٨ - يفتخر بظلمه للناس ص ٢٣٨ - اقتران جفائه بفنكه وفجوره أنتج قدراً ضخماً من الشعر الممغن في الفحش ص ٢٣٩ - الفرزدق ولوع بالتصوير العاري يحد في ذلك لذة آثمة ص ٢٤٠ - الفرزدق يبدو مضحكاً حين يتكلف النسك والخشوع ص ٢٤١ - الفرزدق هو الشاعر الوحيد الذي استطاع أن يصمد لجرير ، موازنة بينه وبين جرير في الفن الهجائي ص ٢٤٢ - تفوق جرير في الهجاء الشخصي وتفوق الفرزدق في الهجاء الاجتماعي ص ٢٤٥

الهجاء والموالي

(ص ٢٤٦ - ٢٦١)

العرب ينظرون إلى الموالي نظر الغالب إلى المغلوب ، والموالي لا يرون العرب إلا بدواً جفاة ص ٢٤٦ - الموالي يسترون حقدهم بستار من الرياء ص ٢٤٦ -

بعض الموالي يحترفون الغناء ويتفلقون في البيوت العربية ويفتنون الناس بموسيقاهم وبأزيائهم وبما ينشرون من ألوان الحضارة والبدع ص ٢٤٧، فريق آخر من الموالي ينصرف إلى العلوم الدينية فتذهب غيظ قلوبهم وتعصبهم ص ٢٤٩، فريق ثالث يتخذ الشعر صناعة ويحترف السياسة ص ٢٤٩ - وبعضهم يكسب عيشه ومكانته بهجاء الناس ص ٢٥١ - رقة دين هؤلاء الموالي صورة لاستخفافهم بكل ما هو عربي ص ٢٥٢ - بعض شعراء الموالي لا يحسنون النطق بالعربية ص ٢٥٥ - الهجاء يحقق لشعراء الموالي مكانة وجاهاً ص ٢٥٦ - خوف الناس من شعرهم على ثقافته من الناحية الفنية ص ٢٥٨ - غلبة المقطوعات القصيرة على هجائهم ص ٢٥٩ - الموالي ثلاث فرق فريق منافق يستر حقه مداهناً، وفريق يدفع عن نفسه بالهجاء، وفريق دفعه يأسه إلى الزهد والانصراف عن الدنيا، ولكنهم في مجموعهم يكدون للعرب حتى يتحقق لهم الظفر بالقضاء على الدولة الأموية وإقامة الدولة العباسية. ص ٢٦١ .
